زفاف بالملابس السوداء

رواية من تأليف

محمود عبد العزيز فرج

الاحترام قبل الحب وكل النساء سواء

اختلاف فى الشكل ووحدة فى المضمون

٤ شارع الشهيد محمود فؤاد مصر الجديدة ، تليفون ٢٩٠٠٠٥٧- القاهرة

موافقة إدارة الرقابة على المصنفات الفنية رقم ٢٥٤ بتاريخ ١٩٩٧/٣/١٩

٠١٢٨٢٢٤٨٤٦

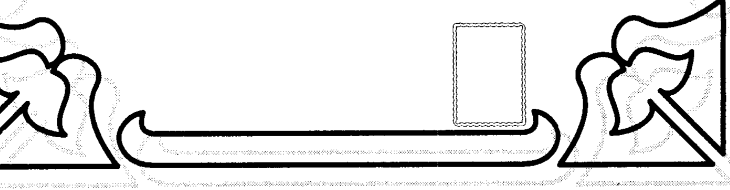


بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾

صدق الله العظيم

الآية ٣١ من سورة الرعد



تقـــديم

استعرضنا فى الجزء الأول من هذه الرواية نشأة الحاج محمد عبد المؤمن وقصة حبه لزوجته، وكيف أن الباشا والدها يسر له أمر زواجه منها لأنه تلمس فيـــه الرجولــة والشهامة، وأنه يستطيع أن يأتمنه عليها، وما تعرضت له ابنته فى قصة حبها لابن عبـــد المنعم السلحدار ونذالته التى جزاه الله عنها بحادث ذهب بفحولته وكـــاد يـــودى بحياتـــه، والمعاناة التى واجهتها "شوق" زوجة اللواء محمد السلحدار والدة ابنه الوحيد إسماعيل مـــن جبروت زوجته السابقة "جلنار" الوصيفة السابقة للملكة التى تُجَمِّلُها المساحيق، حيث راهنه قريبها "محمد الجاويش" على إقامة علاقة معها رغبة منه فى التخلص منها، وعندما هرب السلحدار من قصر جلنار إلى جنة شوق قامت بتدبير التخلص منه، وهددت شوق باتهامــها بقتله إذا لم تغادر الكفر فوراً هى وابنها وهددتها بقتل وليدها إن هى ظهرت مرة أخـــرى، وقامت جلنار بالاستيلاء على كل أملاك شوق من أبيها كما قامت بالاستيلاء على أمـــلاك الباشا وأمواله وحولتها لملكية المدعو عبد المنعم، وكيف أن "رفعـــت الأنـــاضول"، أخـــو (نورهان) زوجة الحاج محمد رفض زواج ابنه من ابنتها "منال" بدعوى أن والدها خطـــف قلب أخته. ثم استدرج والده ليسلبه كل ما يملك، وأن الفيلا التى يقيمون فيـــها هـــى مـــن ممتلكات والده التى سلبها هذا الصعيدى الجلنف، وكيف أن أخته قامت بكشـــف الحقـــائق لأولاده وحزنت لمحاولته إيقاع الشقاق بين الأبناء وعدم الاكتفاء بمعاداتها وزوجها الـــذى كان ينفق على بيته وأولاده، فقررت طردهم من الفيلا إن لم يكن رضاء فقضاء، والمعانـــاة التى كابدوها فى شقة ابنهما الذى تسلمها من الشرطة.

وفى هذا الجزء نستكمل معاً قصة الحاج محمد والسيدة شوق وابنها إسماعيل مـــع من ظلموهما سواء أخو زوجته أو الابن الذى نسب زوراً إلى زوج شوق، وكيـــف أن الله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل، فيتضرع مدحت الأناضول إلى الله أن يغفر لـــه إســـاءته لصاحب الأفضال الكثيرة عليه وعلى عائلته الحاج محمد الصقر، ويحكم على "عبد المنعم" بالإعدام لاشتراكه فى قتل الرجل الذى تولى تربيته ويموت الشاب الضال ابنـــه بمجـــرد علمه بإعدام والده ويتم إيداع والدته مصحة للأمراض النفسية يتولى الحاج محمد نفقاتها.

وأرجو أن يكون فيما ذكر من أحداث بما سبق ذكره وما يتخللـــها مـــن وقـــائع، واسقاطات على ما كان المواطن المصرى يتحلى به من أخلاق وسلوكيات أيام الأجداد، ما يجدد الأمل فى تغيير ما بأنفسنا.

محمود عبد العزيز فرج



١٥- سيارة وسائق

أنهى الحاج محمد حديثه مع ضيفه ، بأسرع مما توقعته الحاجة جميلة ، فقد شعر بأن هناك أحداثا جسيمة حدثت ، تلك التي حدت بحسام أن يحاول تقبيل يديه أثناء خروجه المتسرع ، وهذا ليس له سوى مفهوم واحد ، هو أنه اطلع على ما لم يكن الحاج محمد يرغب في إطلاعه عليه ، وعبارة زوجته التي شيعت حسام بها تحمل أكثر مما يمكن أن يتصوره الحاج محمد ، فهو رجل بسيط يأخذ معظم الأمور بكل السهولة والبساطة ، ولا يفكر إلا في صالح الناس وخيرهم ، أخذها عن والده الشيخ عبد المؤمن ، ومرن جميلته عليها منذ أن دخلت داره ، وتأصلت فيها عندما وجدت أن الكل يخدم الكل ، والكل يعاون الكل ، لا سيد ولا مسود ، ولا غريب ولا قريب ، كل من في الدار أو الجيران أو المعارف أو الأقارب أو حتى البلديات ، أهل ، لهم ما للأهل ، وعليهم ما يستطيعون تقديمه ، فهو لا ينتظر من أحد معروفا أو خدمة ، بالرغم من أنه يسارع بتقديم خدماته للجميع ، من يطلبها ومن لا يطلبها ، وكان أخوها مدحت من هؤلاء الذين لا يطلبون ، ولكنهم يأخذون ، ويأخذون أكثر مما يستحقون ، وربما مالا يستحقون ، لكنه لم يكن ينظر إليه باعتباره أخو زوجته ، ولكن باعتباره أحد أفراد عائلته ، ومعنى أن جميلة تكسر هذه القاعدة ، فلابد وأنه فعل ما يستوجب ذلك ، لكن لا وقت الآن لمعرفة الأسباب ، هي قالت لابن أخيها ، هي حرة فيما تقوله لعائلتها ، فلا حجر عليها ، لكن الأمر لا بد وأنه ينال منال بأسلوب أو آخر ، وهذه المسكينة لابد وأنها الآن في أشد الحاجة إليه ، فهو الوحيد الذي يستطيع أن يعيد إليها البسمة ، وهذه في الحقيقة أحد أهم الوظائف الرئيسية للوالد ، أن يعرف خلجات أولاده وبناته ، ويكون لهم الصديق والحبيب والأب الذي يهمه سعادتهم قبل العلم وقبل الطعام أيضا ، ولا يسمح مهما كانت الظروف ، أن تبكي عيونهم ، أو أن تدمع قلوبهم بألم أو شكوى .

كانت منال تنتحب بكاء ، وأختاها تحاولان التسرية عنها دون فائدة ، فقد كان المها أكبر من أن تتحمله ، وجرحها أعمق من أن يوصف ، والكل يتصور أنها تبكي حبها الذي تبددت نهايته ، لكنها كانت تبكي لأنه خرج حتى دون أن ينظر إليها ، وهل كانت تتوقع أن تقول ما قالت وينظر إليها ؟ نعم .. هو الرجل ، وعبارتها كانت دفاعا عن كرامتها ، فعندما تشعر الفتاة أو المرأة عموما ، أن هناك من يرفضها ، فإنها لا تستكين ، لكنها تقاتل وتقسم " أن توريه النجوم في عز الظهر " ، وهو .. كان عليه أن يتحمل كل ما تقول ، فقد جرحها والده جرحا غائرا ، كيف يرفض زواجه منها ؟ وإن كان هناك خلافات بينه وبين أبيها .. أو حتى والدتها التي هي أخته ، فهذا

شأهم ، أمـــا حسام ، فقد كان من الواجب عليه أن يقول ولو من باب المجاملة ، أنه ليس من رأى والده ، وأنه سيتمسك بحبه لها ، ليس فقط رغم معارضة والده ، وإنما لو وقف العالم كله ضـــده ، هذا ما كان يجب عليه أن يقوله ، لا أن يلقي بالحجر في البركة ، ويقف يتفرج ، ثم وبعد كل هـذا .. لا ينظر إليها وهو خارج .. لقد ارتكب أكثر من جريمة ، جريمة انسياقه وراء كلام والـــده ، دون أن يعتذر مقدما عن أن ما يقوله ليس له دخل بموضوعه مع منال ، وجريمة مسايرة والدها في الإطلاع على جميع المستندات ، كأنه متشكك في صدق ما تقوله ، وما دام هو متشكك في صدق ما تقوله والدها ، فلا بد وأنه مصدق ما قاله والده ، كان يكفي أن يطلع علـــى عقـد الفيـلا ويتأكـد من أن والده لم يقل الحقيقة ، ومعنى هذا أن كل ما قالته أو تقوله عمته أو عمه الحـــاج محمد لابد وأن يكون صدقا ، والجريمة الأشنع من كل هذا ، أنه خرج دون أن ينظر إليها ، كـــان يجب أن يستعيد ثقتها في حبه لها رغم كل ما حدث أو يحدث .

لكنها معذورة في تصوراتها ، فهي لم تستطع أن تتصور معنى أن يكتشف أن كل ما حدث ويحدث من نعم يعيشون فيها هو وأهله جميعا ، هي من خيرات وبركات هذا الرجل الذي يحتقره والـــده ، وهذا الرجل والد محبوبته التي أعلنها بحبه ، ورضيها زوجة له ، فلو قدر له أن يتزوجها فســـيكون أمام عينيه ليل نهار ، كيف يستطيع أن ينظر إلى ولي نعمهم ليل نهار ، ووالده المستفيد الأول مـــن هذه النعم يحتقره ، أمور كبيرة تلك التي تواجه هذا المسكين ، وما كان لمنـــال أن تستشـــعرها ، كـــل ما يهمها هو حبه لها ، أو بمعنى أدق ، حبها له ، الذي أهمله ، فلم ينظر إليها ولو من ركـــن عينيه ، يشعرها بأنه سيصارع العالم كله من أجلها ، وليس أباه فقط . لم يكن أبوها مخطئـــا ، وان كان والده هو المخطئ ، ومتى هي التي ذكرت القاعدة ، المخطئ يتحمل خطأه ، وعلى والـــده أن يتحمل أخطاءه ، فمالها هي وهذه الأخطاء حتى يحملها حسام بها ، ولا ينظر إليها معتـــذرا وهـــو خارج .

وفي غرفة نومها الأم تغلي وهي تبكي ، فما كانت تتوقع من أخيها أن يقول ما قال ، ولا يفعل ما فعل ، يكذب !! كل ما تفعله وتتحمله هي وجميع أفراد أسرتها الصغيرة من أجل ســـــعادته هـــو وعائلته ، يكذب ويقلب الحقائق ، طرده لأبيه قلبه إلى استيلاء من الحاج عليه ليســـلبه أموالـــه ، شراء الحاج للفيلا ، قلبه إلى أنه سرقها ، عطايا الحاج له ولأسرته ، قلبها إلى المستأجر الذي يأتيهم بإيراد وقف تركه أبوه لهم ، كأنما هو لا يعرف ماذا ترك أبوه قبل وفاته ، لقد أتى مرضه على كل

شئ ومدحت شاهد على ذلك ، لم يقبل الباشا أن يكون عالة على زوج ابنته ، فعندما وجـــد أن فوائد البنك لا تكفي ، طلب تحويل مبالغه إلى شركات توظيف الأموال ، وعندما تم الاستيلاء على تلك الشركات ، وانقطع إيراده منها ، وكانت فاتورة علاجه قد تزايدت مبالغها بما يجاوز دخلـــه مهما كان قيمته ، باع للحاج الفيلا ، ولم يقبل الحاج تسجيلها باسمـــها وبناتهـــا ، إلا ومدحـــت شـــاهد على العقد ، ولما تجاوزت مصاريفه ثمن الفيلا ، كتب للحاج تنازلا عن مبالغه في شركات توظيف الأموال ، وسجله في الشهر العقاري وأيضا بشهادة مدحت على هذا التنازل ، لم يـــرض المسكين بأن يكون عالة على زوج ابنته ، وهو يملك مليما واحدا ، أبت عزة نفسه التي لم يرثها ابنه منه ، إلا أن يحتفظ بأمواله معه ، ينفق منها على علاجه ، حتى إذا ما انتهى أحد المصادر ، لجـــأ إلى آخر ، حتى أتى عليها كلها قبل وفاته بزمن ليس بقصير ، ومدحت شاهد على كل هذا ، فقد كان الباشا يرسل له مصاريف بيته ، ولما انتهت كل أمواله ، لم يستطع أن يرسل له شيئا ، وطلب مـــن زوج ابنته أن يرعاه هو وأسرته ، بل وأخذ عليه عهدا بذلك ، فما كان الرجل ليســـمح لأهـــل زوجـــة ابنه أن يتناولوا سيرته بسوء ، سواء أثناء حياته أو بعد مماته ، لم يهتم الباشا بعقوق ابنـــه وطرده له من القصر الذي يملكه هو ويأويه وعائلته فيه ، ولا بامتناعه حتى عن توصيله إلى بيـــت ابنته بسيارته ، ولم يفكر أن يطمئن على وصوله سالما بعد أن تركه يخرج طالبا النجدة من بواب أو سائق تاكسي ، لكن كل تفكيره كان في حرصه على أن لا تعاني عائلة ابنه أثناء حياته أو بعد مماته ، لم تكن ابنته مصدرا لقلقه ، فقد وفقه الله أن يزوجها من رجل يعرف كيف يصونها ويحافظ عليها ويحميها من غدر الدهر وتقلباته ، رجل استقبله بحفاوة وسعادة عندما لجأ إليه مطرودا من قصره ، تعلل المسكين بأنه أثقل على زوجة ابنه ، وأن مرضه أصبح يلزمها أن ترى ما لا يجب أن تراه مـــن جسده ، وهو يتحرج من هذا ، لكن عند ابنته وبناتها ، فربما كان الأمر لا يمثل إحراجـــا لهـــن ، فأحضر له الحاج محمد ممرضة تكون في خدمته ، وكان هو بنفسه الذي يتولى كل ما تتحرج منـــه الحريم سواء كان استحماما ، أو إخراجا ، ونظم له طبيبا أو أكثر ، ليكون تحت أشرافهم الـــدوري ، فلا يتألم الرجل في أمراض شيخوخته ، رجل يعمل كل ما وسعه حتى لا يشعره ولو للحظة بأنـــه عبء عليه ، أو أنه يتململ من تواجده ، أو من مصروفات علاجه ، بل دائما ما يقابله بالابتســـام الذي يسعد قلبه ويغنيه عن شكره ، بل لقد رجاه أن لا يكرر كلمات الشكر الذي يقابله بها كلما قدم له خدماته في أول الأمر ، بل وزاد بأن قبل يديه ، ودائما ما كان يعيد إليه الفضل في كل مـــا هو فيه من خير وسعادة ، ويذكره بأنه هو الذي أعطاه المبلغ الذي رفع عنهم المعاناة ، ونقلهم من

حياة الفقر إلى عز الثراء ، وهو الذي كان يمكنه من الحصول على عائد عن تدريسه لأولاد وبنات أصدقائه وجيرانه أولا ، ثم عن التعاقدات التي كان يسعى له فيها عند معارفه ليبني لهم أو يرمم أو يهندس ، ورجاه بكل ما يملك من تعابير الرجاء وكلماته ، أن لا يكرر ذلك ، بل وزاد بأن أصبح يقبل يده كل صباح وكل مساء ، وهو يذكره بأنه الغالي أبو الغالية ، ويؤكد له أنها وصية والده الحاج عبد المؤمن رحمه الله ، فقد قال له الرجل قبل وفاته ، أن الله عوضه بالباشا أبا ربما هو أفضل من أي أب ، وأن هذا الباشا يستحق منه أن يقبل يديه ليل نهار ، يكفيه أن زوجه ابنته ، ومن هي ابنته ، إنها الجميلة التي شغف بها حبا ، فهانت عليه حياته عندما انسحب من حفل نجاحها لما فعله أخوها معها ومعه .

كيف يمكن لأي إنسان ، وليست منال فقط أن تعايش عائلة كبيرها يكذب بهذا الفحش ، وكيف يمكن لمنال ابنتها الرقيقة الحنونة الجادة ، أن تتعايش مع كل هذا الكذب ، لم يهتم هذا الأفاق بما ينعم به عليه الحاج على حساب رفاهيتهم ، وربما ضرورياتهم ، ويسبه ، ويقلب عليه عائلته ، أمور ما كانت تستطيع الحاجة جميلة أن تتقبلها بالتسامح الذي تلقنته من زوجها وعائلته ، لكن نورهان هانم هي التي حسمت الأمر مع تلاعب هذا الإنسان الفاشل ، كتلة الفساد والكذب والخداع ، وراع الحاج محمد ما يرى ، زوجته .. حبيبته .. جميلته تبكي ، لقد حدثت من الأمور ما لا يمكن أن يتقبله ، فبالرغم من كل ما مر بهما من سنوات عمرهما ، فإن قلبه ما يزال يخفق بحبها ، لا يطيق البعد عنها لأكثر من سويعات ، وإن طالت ، عاد مسرعا بشوق طائر صغير يرى أمه قادمة له بالغذاء ، يتمناها أن تكون هي أول من يلاقيه فيقبلها قبلة يطفئ بها نار حنينه إليها ، وهل ينطفئ ؟ إنه يزداد ويزداد ، طوال عمره معها ، وربما يمتد الأجل إلى ما قبل ذلك ، لم يجد منها سوى الحب ، والتضحية ، والرضا ، والتفاني ، لقد صدق أخوها عندما قال إنها كانت على استعداد أن تتزوجه ، حتى ولو لم يوافق والدها ، تتحمل كل ما يفرضه عليها من شظف العيش ، دون أي تململ ، ودون حتى أن تسأل ، وهو لا ينتظرها حتى تسأل ، هي تعلم أن كل ما يفعله يسجله ، وكل ما ينفقه يثبته ، وسمح لها منذ البداية أن تطلع على كل ما يسجل ، وعلى كل ما يثبت ، وعلمها كيف تتعامل مع الأرقام ، وكيف تفهم الأحداث ، فلا فاصل بين الزوج وزوجته ، هي هو ، ولا يهمه إن كانت تعامله بالمثل ، لأنه يعلم بأنها تعامله بالمثل وأكثر ، لذلك لم يبخل على أي ممن ينتمون إليها ، لا على أبيها عندما طرده ابنه من القصر والسيارة التي يملكهما ، ولا على أخيها وعائلته بتحمله جميع مصاريفهم بعد أن فقد الوالد كل ما يملك ، وكذلك بعد أن مات ،

وحتى تلك اللحظة ، رغم أنه ما يزال ينعته بسيئ العبارات ، ويعلم أولاده كيـــف يكرهونـــه ، ولانزعاجه من بكائها ، أسرع يحتضنها ، ويحثها على أن تبوح بما يبكيها ، وبعد أن هدأت قليـــلا ، سردت بحزن قاس تتخله عبرات حارقة ما كان من أمر أخيها وعائلته ، نظر إليها بحنان وقال :

• " يا جميلتي لماذا تتحدثين في هذا الموضوع ، كنت لا أود أن تذكريه مجرد ذكر لا مع حسام ولا مع غيره ، لسببين ، أولهما تأثيره على العلاقات الأسرية ، وثانيهما أن الخير الذي أعمله ، ليس من أجلهم ، ولا حتى من أجلك ، وانما هو لوجه الله ، إذا كشف ، وبهذه الصـــورة ، ضـــاع أجره عند الله ، وإذا كنت أحتفظ بهذه المستندات ، فهي من بين المستندات التي أحتفظ بهـــا لكل شئ ، ولكُنَّ أيضا يا أفراد أسرتي ، وكذلك لجميع أفراد عائلتي ، هناك ملايين دخلـــت جيبي وبيتي ، وملايين خرجت من جيبي وبيتي ، ولا بد وأن أحاسِب نفسي قبل أن أحاسَـــب ، من نفسي أولا ، إذ كلما تدبرت أمري ، أراجع ذاكرتي ، هل أخطأت ، ولا أجـــد ســـوى المستندات التي تثبت الإجابة ، كذلك فأنا أتوقع اليوم الذي تحاسبني فيه أنت أو إحدى بناتك ، على ما أنفقت ، وقد كان ذلك على وشك أن يحدث عندما أعلنت منى تضررها من حيـــاة التقشف التي نحياها رغم ثرائنا الذي تثبته ممتلكاتنا ، لكنك عالجتيه بحكمة ، لم تلزمني تقـــديم المستندات ، لكن لو كانت منى ألحت في معرفة الثراء الذي ذهب ، لأظهرت لها المســـتندات ، ولكن بدون تجريح لأحد ، إن حسام خرج وكأنما هو مذنب ، لماذا تحملينه أخطاء والـــده ، ولعلها ليست إلا أخطاء والدك الذي أوصاني به قبل وفاته ، فقد كان يعلم ما سوف تؤول إليه أحواله ! "

وأجابته السيدة وهي تحاول أن تكفكف دموعها :

• "وهل كنت تتوقع مني أن أسمح له أو لغيره أن يمسك بسوء ؟ ويا لسوء ما قال .."

فربت الرجل عليها بحنان ، وهو يتمتم :

• "سأنبه على كمالي أن يكتم عنك أخبارهم ، أنا لا أسمح لأي إنسان كائن من كان أن يبكـــي هذه العيون الجميلة ، هل نسيتي ..؟ إنها عيوني التي أري بها جمال الدنيا .."

وحاول الرجل أن يعيد إليها الابتسام ، فنبهته إلي المسكينة التي خطف هذا القاسي فرحتها قبـــل أن تستشعرها ، فرفعها محتضنا إياها ، ودخل إلى غرفة بناته ، فنهضن سريعا يقفن لأبيهن احترامـــا

كما تعودن ، فجلس علي سرير منال ، وأجلسها إلى جواره ، وأدناها منه واحتضنها بعطف ، وكفكف دموعها ، ثم قال لها مستبشرا :

• "كنت عايزاها لونها إيه ؟ "

وتعجب الجميع .. وتساءلت منال ، وقال الرجل بتعجب :

• " انت لحقت تنسي ، انت قلت الماركة شيفروليه أو كاديلاك ، موديل السنة ، والسائق باليونيفرم والكاب .. بس ما قلتيش اللون .."

وبعد لحظة صمت حاولت فيها الفتيات استيعاب ما يرمي إليه أبوهن .. هجمن عليه يوسعنه تقبيلا ، والأم تطالب بحقها ، ولكن دون فائدة ، ثلاثة من الفتيات يحتوين الرجل بكل الحب والحنان ، فأين تجد المسكينة لنفسها مكانا بينهن ، أسعدها كثيرا مسحة الحزن التي فارقت منال سريعا ، ووقفت تبتسم كمن حازت جائزة من أرفع الجوائز ، فقد كافأها الله بهذا الرجل زوجا محبا لها ، وأبا عطوفا لبناتها ، وقالت الفتيات :

• "يا حبيبي يا بابا ، والنبي صحيح .."

وقال الرجل مؤكدا :

• "وهل سبق أن كذبت عليكم ؟ "

ودق الجرس ، وفتحت مهجة ، وإذا بالسائق باليونيفرم والكاب يسأل :

• " لو سمحت قولي للباشا أنا أوصلت إسماعيل بك ، ورجعت .."

ودخلت مهجة تزف الخبر لأختيها ، وخرجت البنات يستطلعن الخبر ، ويشاهدن السائق باليونيفرم والكاب ، ووصلت الدكتورة سعاد ، محملة بأكياس وصناديق ، تساعدها مبروكة الشغالة الجديدة ، حيث أمرتها أن تدخل إلي المطبخ والهانم الكبيرة سوف توضح لها كل شيء ، وأمرت محروس السائق أن يدخل الصناديق ، ثم ينتظر تحت حتى نزول الهوانم ، ونظرت البنات إلى أبيهن ، بالأمس فقط كانت الأحوال غير الأحوال ، فقال الرجل مؤكدا فرج الله الذي ينعم به على الصابرين :

• " كلما اشتد خالكم في مجافاته لنا ، كلما أكرمنا الله من واسع خيراته ، فـاكرين يـا بنـات الفلوس اللي في شركات توظيف الأموال ، اليوم صدر قرار بصرف جزء منها ، والجـزء ده والحمد لله كبير قوي ، يغير حاجات كثيرة جدا ، لذلك ، ذهبت اليوم أنا والدكتورة سعاد من النجمة إلي الإسكندرية للتخليص علي السيارة الشيفروليه اللي شيعها الدكتور طه ولد عمكم ، بس بقي هو بعتها لونها نبيتي ، علي الله يعجب عروستنا القمورة ."

وما أن رأى مسحة الحزن تغطي عينيها الجميلتين بدمعة رقراقة ، حتى ربت عليها وقال :

• " حسام يا منال تربيتي أنا من صغره ، مش تربية أبوه .. ولازم حييجي بسرعة هو وأهله كلهم يستسمحوكي ، وكل واحد حيعرف غلطه ."

وقالت منال شاكرة لأبيها حبه لهن وحنانه الذي يسعهن :

• " أنا لا يهمني لا حسام ولا عائلته كلهم ، أنا زعلانه قوي إنهم قالوا الكلام ده عن حضرتك ، رغم كل اللي حضرتك عملته معاهم .. وبعدين أنا خلاص ، كرهته .. كرهته يا بابا.."

وهرولت إلي الداخل تبكي بكاءا مرا ، فلحق بها والدها ، وقال لها :

• " إذا كنت زعلانه علشاني ، فأنا يا ستي مش زعلان ، وعلشان أثبت لك ، هم جـايين بعـد ساعة بالكثير أو ساعتين ، يعني على ما يلبسوا ، وحيعتذروا لي ، ولوالدتك ، ولكي ، يـا الله بقى ، انت مش عايزه تروحي مع أختك توصلوا علاء بيتهم بعربتكم الجديدة .."

ونسيت منال حزنها أمام فرح أختها بتمام شفاء زوجها ، ودخلت تستعد ، سـاعدتها في ذلـك الدكتورة سعاد ، التي كانت قد انتهت من مساعدة منى ومهجة ، وخرج الجميع مـاعدا الحـاج محمد وزوجته ، وركبت مهجه مع الدكتورة سعاد في سيارتها ، ومنى ومنال في سـيارتهم ، مـع السائق الذي فتح لهما الباب الخلفي ، مع انحناءه خفيفة تعبيرا عن الاحترام .

دق جرس التليفون ، وكان المتحدث كمالي بواب فيلا الأناضولي باشا ، قال إن البيـه الكبـير وجميع أفراد العائلة في طريقهم إليهم ، وقص عليه ما دار بين حسام وأبيه ، وإصرار حسام علـى ضرورة ذهابهم جميعا للاعتذار ، ونظر الحاج محمد إلى زوجته ، وأعلنها بالخبر ، فقـررت عـدم مقابلتهم ، وأن عليهم أن يعودوا من حيث جاءوا ، ويخلوا الفيلا قبل يوم الخميس القادم ، وألحت على زوجها أن يتخذ الاجراءات القانونية بشأنهم في حالة تقاعسهم عن الإخلاء ، وعبثا حـاول

الحاج محمد أن يثنيها عن قرارها ، فقال لها بلغة المغلوب على أمره ، وهي تعلم تماما بأنه من ذلك النوع من الرجال الذي يؤثر فيه بكاء أيتها امرأة ، خاصة إذا كانت من أهل بيته ، وقد عرفوا هذا عنه ، فإذا رغبت أيهن في شئ ، فما عليها إلا أن تفتح صنبور دموعها ، وكل طلباهّا مجابة وزيادة فقال لها بحنان :

- " وبنتك اللي حبت حسام .."

وأجابته بتسرع ، ودون تفكير :

- " هي لحقت تحب المسكينة ، قطف فرحتها قبل أن تسعد بها ، منه لله ، وبعدين هي حسمت الموضوع ، فهي تخشى أن يكون حسام نسخة من أبيه ، والحقيقة أنني كنت أشفق على أخي وألتمس له العذر نتيجة التربية المتسيبة التي أوصلته لما هو فيه الآن ، لكن بعد ما حدث ، فإنني ألعن وجوده وأعتبره مات .."

وأخفت وجهها بين يديها والدموع تنهمر من عينيها ، وزوجها يبثها كل الحب والحنان ، ويهون من المسألة ، لكنها ظلت على رفضها وإصرارها ، فالعائلة التي لا تقدر ما فعله زوجها لهم ، لا تستحق أي نوع من أنواع الاهتمام حتى ولو كانت عائلة أخيها . ودق جرس الباب ، وذهبت مبروكة لتفتح ، فأسرعت نورهان إلى الداخل ، ولما علمت أن القادمين هم أخوها وعائلته ، أمرت مبروكة بتوصيلهم غرفة المكتب ، حيث الحاج محمد في انتظارهم ، وإرسال محمدين البواب لإحضار دواء كتبت اسمه على ورقة عاديه . ورحب بهم الحاج ترحيبا فاترا ، وأشار إليهم بالجلوس ، وجلس هو أمام المكتب ، وأمر بالشراب فاعتذروا ، وساد الغرفة صمت قطعته الفت بقولها :

- " طبعا يا باش مهندس ، إحنا أهل قبل كل شئ ، ومش موضوع حسام هو اللي جابنا ، ومدحت أخوك وأخو نورهان زوجتك ، وخال بناتك ، وهو جاي يقدم اعتذاراته ويستسمحك .."

لكن مدحت لم يتفوه بكلمة ، وظل الحاج على صمته ، وتطوع حسام بالاعتذار عن والده ، وعنهم جميعا ، والحاج ملتزم الصمت ، وحاولت البنتان أن تتدخلا إلا أن الصمت الذي التزمه الحاج جعلهما تبتلعان الكلام ، وأخذ الجميع يستحثون مدحت أن يعتذر ، وهو قابع في مكانه كتلميذ بليد في امتحان صعب ، وبعد فترة صمت طويلة ، قال الحاج :

• " أظن نورهان هانم أعلنتكم بإخلاء الفيلا بتاعتها قبل يوم الخميس القادم ، أرجو تحديد الموعد المناسب ، حتى لا نضطر لاتخاذ إجراءاتنا القانونية .."

وتساءلت ألفت عن المكان الذي يذهبون إليه :

• " وهل تقبل نور هان هانم أن تطرد عائلة أخيها في الشارع ؟ "

فنظر الحاج إلي مدحت وأشار إليه وهو يزأر :

• " لا تلوموا نورهان هانم على طردها لكم من الفيلا ، ولا تلوموني إذا أخبرتكم إن خولي العزبة بتاعة البيك ، خلاص ، مفيش بعد اليوم لا مصروف بيت ولا فيلا ولا حساب خاص بالملابس والكوافير ، ولا حاجة خالص ، والأفندي ده هو السبب ، لا أنا ، ولا نورهان هانم ، كلكم كنتم بتتفرجوا عليه وهو غرقان في ملذاته ، خمرة وسهرات وفنجرة على الأفـوات ، آسـف البهوات ، ويبعزق الفلوس اللي أنا بأبعتها لكم من جيبي الخاص ، وعلى حساب أهـل بيـتي وعائلتي ، وعلى حساب ضرورياتي أنا شخصيا ، لكن بقي كل واحد أولى بفلوسه ، وهو بدل ما هو قاعد لاشغلة ولا مشغلة غير التعالي والعنطزة الكذابة ، يبقى بقى يشـوف الصعيـدي الجلنف حيعمل فيه إيه .."

وصمت الرجل برهة ، ثم سلم حسام كشفا به إجمالي المبالغ التي سـبق أن أرسـلها إليـهم ، ومصروفات ابنه وبناته ، وطلب أن يقوم مدحت بتحرير شيكات أو إيصالات أمانة يحـدد فيـها الموعد المناسب للسداد .

كان قاسيا جدا معه ، فهذه هي المرة لأولى التي يقابله فيها بكل ما يختزنه في نفسه من إهاناته له ، وتعاليه عليه ، ولم يراعي تعنيفه أمام أفراد أسرته ، ومدحت قابع في مكانه كأنما فقد القدرة علـى الكلام ، فنهض الحاج محمد بكل ما يمثله الكبرياء المصري الصعيدي ، كهرم يناطح الدنيـا عـبر السنين ، وترك الغرفة وكأنه يهرب منها ، فقد اعتبر عدم اعتذار مدحت إهانة أكبر من كل إهاناته السابقة ، ذلك أن كِبْرَهُ منعه من أن ينطق كلمات الاعتذار رغم أنه قدم خصيصا لذلك ، اعتـبر أنه ما زال يتعالى على الرجل الذي كان دائما ما ينعته بالدونية ، ونادى الخادمة :

• " مبروكة .. وصلي البهوات والهوانم للباب .."

ونهض الجميع وهم يجرون أذيال الخيبة ، فقد كان السبب الأساسي لحضورهم هو اعتذار مدحت ، ومحاولة أخيرة مع الحاج حتى لا يطردهم من الفيلا ، ويبقي على شهامته معهم تعويضا عن فشل أخو زوجته ، لكن مدحت هدم كل شئ بامتناعه عن الاعتذار ، لم يفعل شيئا سوى أنه ظل قابعا في مكانه ، لم تحركه كلمات أولاده له ، ولا حضور مبروكة لاصطحابهم ، وكان كأنه جثة ، لاشـــيء يتحرك فيه سوي عينيه ، وأطلقت ألفت صرخة من أعماقها اهتز لها الجميع ، وألقـــت بنفســـها علـــى صدر زوجها ، تتسمع نبضه ، وتكالبت فتاتاه عليه يبكيانه ، بينما حســـام يدلـــك يديـــه وصدره ، وتوسل حسام وهو يسأل عن التليفون ليطلب طبيبا ، وأسرع الحاج إلى نورهان وهو في حالة من الرعب ، لا يدري ماذا يفعل ، إلا أن نور هان نادت مبروكة وأعطتها الدواء الذي أمرها أن يشتريه محمدين ، وأمرتها أن تأخذ معها كوبا من الماء ، وشرحت لها ماذا تقول لحسام ليعيـــد لوالده الحركة .

وتساءل الحاج بعد أن خرج الجميع :

- "كنت تعلمين أنه سيفعل ذلك .."

وقالت بكياسة من أفشلت كيده :

- " ليست المرة الأولى .. هكذا هو ، كان يفتعلها دائما كلما رفض له طلب ، إلى أن كشـــفه طبيب العائلة ، فوصف لنا هذا الدواء ، ولأنه منشط قوي ، وذو رائحة نفاذة ، فإن مدحت لا يقبله ، وبمجرد اقترابه من أنفه ، يسرع بالتحرك .."

فتمتم الرجل وهو يدعو له بالهداية :

- "لم يترك حيلة ، إلا واستغلها ، لا أدري .. ماذا سيفعل بعد ذلك ..؟"

ما أن وصلوا الفيلا ، حتى تكالبت عليه الأصوات ، تأنيب من الجميع ، من زوجته أولا .. ثم من ابنه حيث أفقده كل شئ ، حبيبته ، وعمته ، وزوج عمته ، أقاربه الفعليين الحقيقيين ، الذين وقفوا ومازالوا يقفون معهم في أزمتهم التي ليس لها حل ، فماذا سيفعلون الآن وكل دخل الأسرة بضـــع جنيهات هي راتب حسام الذي كان لا يكفيه مصروفا خاصا ، وضاعت الفيلا ، السكن والأبهة ، فمن دونها من يكونون ، لا شئ ، كانوا دائما ما يتفاخرون بفيلا جدو ، فبماذا سيتفاخرون الآن ؟ لقد فسد ، وأفسد كل شئ ، كل شئ ، لم يبقَ له إلا والد لا هم له إلا التعالي والغطرسة ، وأخـــذ

يبحث في قريحته عن سبب واحد يدعوه للبقاء حيا ، لا عمل ، ولا مساهمة في أعباء البيـــت ، ولا نصيحة مناسبة لأولاده ، ولا منه ولا كفاية شره ، وغطرسته أوصلتهم إلى الشارع . بينما زوجته لم تتركه ، أخذت تعطيه من الكلام ما يقتل فيلا ، وماذا سيعملون الآن ، سينامون في الطريق العام ، أم يذهبون إلى ذلك الصعيدي الجلنف يقبلون أياديه وأرجله أن يقبل بهم في أي مكان يحدده لهـم ، فهو لن تعييه الحيلة ، أما مدحت بك الأناضولي ، رغم ما قد يمثله اسمه من شموخ تركي أصيـــل ، ماذا فعل لهم بامتناعه عن الاعتذار ؟ وماذا أفادهم بتلك التمثيلية السخيفة التي اصطنعها عند أخته التي تعرف كل ألاعيبه ؟ حيث أنها أرادت أن تكشف لهم تلك اللعبة القذرة ، فجهزت له الـدواء حتى تبين لعائلته كم هو كاذب ومخادع ، فلا يصدقوا ما قد يحاول أن يملأ رؤوسهم به من أكاذيب عن زوجها أو بناتها ، أو عنها هي ذاتها ، يالها من ذكيه نورهان هذه ، إن أول وأهم ذكاء لهـــا ، كان زواجها من محمد ، أجل ، لو كانت ألفت تعرف أن هذا الصبي الصعيدي ، سيكون له هـــذا الشأن ، لما اهتمت بنصائح والدتها ، واهتمام والدها بالشكل الاجتماعي ، والنسب الجيد والعائلة ، ماذا تنفعها كل هذه الأمور الآن ، بل هل سيقفُ والدها إلى جانبهم في محنتهم هذه ؟ أما صفيـــه ونشوى ، فقد كانتا في حالة هياج لم ينفع معها أي نوع من المهدئات اللفظية ، إن وقـــع المأســـاة عليهما أقوى من الجميع ، حسام ومصيره إلى الزواج ، ويكفيه مركزه العملي ، وهناك الكثـيرات اللائى تبهرهن الملابس الرسمية ، والوالدة هذا قدرها اختارته بنفسها ، وإذا تعسرت معها الحيـــاة ، فما عليها إلا أن تضعه عند أي من أولاده يتكفله ، وتذهب هي للإقامة عند أحـــد اخوتهـــا أو أخواتها ، وكلهم بسم الله ما شاء الله ، مراكز وعز وجاه ، أو أبيها ، فهو مازال يملك الكثير ، ولا هم له إلا السفر مع كل فوج سياحي يعلن عنه ، وكأنما هو يقول لأولاده وبناته ، لا تنتظروا موتي فأنا باق ، ولن أنتهي قبل أن آت على كل ثروتي وأتمتع بها كيف ما يحلو لي ، أما هما ، فمن هـــذا الذي سيفكر في الاقتراب منهما ؟ والد رفض أن يساهم بأي شئ في تكاليف زواج ابنته صفيـــه ، أيام أن كان هناك دخل من الحاج محمد أو حتى من الجن الأحمر ، وطفش المسكين ، فمن أين لـــه بشقة لا يقل ثمنها عن الأصفار الخمسة ، ثم جهاز لا يقل عن الأصفار الأربعة ، وربما يصل أيضـــا إلى الأصفار الخمسة ، لماذا كل هذا ، ليكون عائلة ، لا تأتي له إلا بكل الهم والغم الذي في العالم ، مصاريف ، هذه هي الأسرة ، مصاريف تربية ودراسة وعلاج ، وهذه ليست بسهولة الكلمـــات التي كتبت بها ، إنها جبل من الهموم ، آلام ما بعدها آلام ، وخناقات يومية صباحا ومساء ، حـــتى أصبحت معظم البيوت لا هم لها إلا الصراخ ، الصراخ من أي شئ ، ومن لا شـــئ ، والعينـــات

كثيرة ، فجميع زميلاتهما لا يرينهن إلا عابسات ، ما عدا القليلات اللاتي يأتين صباحا والبسمة تعلو وجوههن ، وهؤلاء محسودات ، ينظر إليهن دائما على أنهن قادرات ، فتسرق كتبهن ونظاراتهن الشمسية ، ونقودهن إن أمكن ، أو قد تلتمس واحدة من البائسات وربما أكثر ، واحدة من المتيسرات ، ترافقها كظلها ، إن اشترت طعاما تقاسمته معها ، وإن ركبت سيارة أجرة ، فمعها ، وهكذا ، وهل ستصل الحالة بهما إلى هذا القدر من المذلة ، ثم ماذا عن العريس الذي يطارد نشوى ، ليتها قبلت به قبل أن يحدث هذا الدمار ، فأين ستستقبله ؟ وكيف ستلقاه بعد الآن ؟ وماذا ستكون نظرته إليها وهي تجري خلف الحافلة العامة ؟ تركبها مثلما هم عامة الشعب ، ياه ، هل هذه هي حياة عامة الشعب ، تماما كما كانتا تسمعانه من حكايات الزميلات ، ولا تصدقان أن هناك بؤس يصل إلى هذا القدر ، حقيقة .. إن من يعيش في بحبوحة لا يقدر مشاكل الغلابة ، تباكى الجميع ، وهم لا يعرفون ماذا يفعلون ، لكن حسام فاجأهم :

- " جهزوا شنطكم ، فسوف نترك الفيلا باكر صباحا ، فبعد هذا الدرس القاسي ، يجب أن يكون الرد بكرامة ، ولا كرامة إلا بأن نترك هذه الفيلا ، والآن إن أمكن ، أما عن نفسي ، فسوف آخذ حقيبتي وأرحل من الآن .."

وتعجب الجميع ، وتساءلوا فيما بينهم ، أين وكيف ومتى ..؟ كثيرة تلك الأسئلة التي ألقوها إليه ، فقال بهدوء :

- " لقد تسلمت شقتي التي خصصتها لي الشرطة منذ مدة ، وبها بعض الأثاث الذي وجدت شراءه فرصة ، وأعتقد بأنها تكفينا ، حتى نتدبر الأمر .."

حاول والده أن يعترض ، ويقلب أمورا لا وجود لها إلا في مخيلته المريضة ، فقال حسام بهدوء :

- " يا والدي ، لقد رأينا كل شئ ، الفيلا ، وأنت بذاتك قد وقعت شاهدا على عقد بيعها ، والثمن الذي دفع فيها يزيد كثيرا عن أي ثمن عرضه غيره ، والمبلغ بالكامل تم إيداعه كاملا في حساب جدي بالبنك ، يعني بما فيه نصيب زوجته اللي هي أختك ، يعني الرجل لم يأخذ حقك ، ولا أختك كذلك ، كما أن ما دفع ثمنا للفيلا في خلال تلك الفترة كان يساوي قصرا أفضل منها بكثير ، ثم أن الأمر منذ سنوات ، ولو حسبوا علينا الإيجار ، لما تمكنت أن توفي به لو عملت أربعة وعشرين ساعة في اليوم ، والحقيقة أنني لم ولن أرى أو أسمع عن رجل في مثل شهامة زوج عمتي ، هذا الصعيدي الذي لا تكن له احتراما أو مودة ، لقد فعل لنا الكثير ،

الذي كان يجب عليك أنت أن تفعله ، دون أن يطلب منه أحد ذلك ، ودون أن يعلن عن نفسه .."

ثم ذكر كل ما قرأه في الملف من مستندات ، وعندما حاول أن يكذبه ، أعلنت نشوى بمرارة تأييدها لأقوال أخيها ، وأنها رأت بعينيها كل المستندات التي تؤيد كلمات أخيها ، ولم يجد الرجل سوى نظرات تقدح شرارا من ابنته صفيه ، فقد كانت في صفه ظنا منها أنه صادق فيما يقول ، لكن عندما ثبت لها كذبه ومكابرته التي كانت ألفت على دراية تامة به ، فإن أي شئ يقوله ، يصبح مراوغة وتضييع وقت فيما لا طائل منه ، وعندما حاول أن يتباهى بخولي العزبة الذي يأتي أول كل شهر ، صدمه حسام ببواب عمارة زوج عمته ، وأعلمه أن الحاج أعلنها صراحة أمامه بأنه لن يأتي بعد اليوم ، وما على والدته إلا أن تدبر أمورها بالجنيهات التي يجنيها حسام من عمله ، أما الوالد المحترم ، فعليه أن يمتنع عن الخمر مجبرا ، وكذلك السجاير ، ولن يكون هناك تسالي لزوم مشاهدة التليفزيون ، والسيارة يجب أن تتوقف عن الحركة ، فما عاد هناك ثمنا يدفع لبنزين أو صيانة ، ولا ذهاب للجامعة بسيارات مملوكة أو أجرة ، وعلى الوالدة أن تعرف كيف يدبر الناس عموما حياقم بالمرتبات التي يتقاضونها ، فهناك بدون شك من الجيران من هم في مثل دخلهم ، وربما أقل ، وسوف يرشدونها إلى الأساليب الاقتصادية التي يديرون بها أمورهم ، والتي يعجز عنها عباقرة الاقتصاد ، وأشياء كثيرة يجب عليهم أن يتخلصوا منها ، نتيجة لهذه المكابرة التي لم تأت عليهم إلا بالوبال . وكل من أفراد أسرته ينظر إليه بغضب ، ويقول ما يقوله في نفسه ، فقد كان دائما مصدر تعاسة لهم ، أما اليوم ، فإنه مصدر بلاء ، وكل من أفراد أسرته يتمنى له شيئا ، ليس في صالحه بدون شك ، أما المسكين حسام ، فقد كانت فجائعه كثيرة ، ففجأة وبدون استعداد ، يجد نفسه في وضع لا يحسد عليه ، فمن شاب يستعد للزواج ، لرجل يتحمل هموم أسرته بكاملها ، الأب والأم والأختين ، بمرتب لم يكن يكفيه مصروفا خاصا ، ومن رجل يلهو بسيارته كيف ما يشاء ، وتفتح له الأبواب ، وأولها باب الفيلا التي يسكن فيها ، لرجل كتب عليه أن ينحشر في علبة من علب هذه الأيام التي يسمونها شقق سكنية ، يعلم الله كيف سيستطيع أن ينام ، وهكذا ، كلمة صغيرة قالها رجل في لحظة انتشاء ، جاءت بكل الويلات على كل أسرته ، وهو من بينهم .

١٦- منال

عادت البنات والدكتورة سعاد بعد أن قمن بتوصيل عـــلاء إلي مترلــه ، ودخلــن فــورا إلي والدهــن ووالدهن ، لم يطقن الانتظار ، فقد كان الانفعال بما حدث ، أقوي من أن يستطعن معـه التحكم في تصرفاتهن ، وقصصن علي الوالد ما كان من عائلة عـــلاء ، وهـــم يـــرون الســـيارة والســـائق يفتح الباب لمنى ومنال ، وهما تخرجان بكل الاعتزاز ، ويصطحبان علاء إلى ســـيارقم ، حيث أقنعت الدكتورة سعاد والديه ، ووافقها الرأي الطبيب المعالج ، أن اهتزازات سيارقم البيجو ليست في صالحه ، وتركتهما منال لتركب مع الدكتورة سعاد ومهجه ، بينما علاء ومنى في الكنبة الخلفية للسيارة ، والسائق يسير في طريق هو يعرفه ، علمت منه منى أن والدها شرحه له ، وعبـد المنعم وميشو في السيارة البيجو ، يحاولان أن يكونا في مقدمة الركب ، لكن السائق كان حاذقا في قيادته ، والسيارة جديدة ، فما كان لهما أن يسبقاه ، وبمجرد أن وصلوا ، خرج السائق ســـريعا ليفتح الباب لعلاء بك ، بينما ساعدته منى والدكتورة سعاد حتى أوصلاه إلى غرفته ، ورتبت سعاد أدويته ، وكتبت على كل دواء كمية الجرعة ومواعيدها ، ومدام ميشو تستمع بكل الاهتمـــام ، وعدن جميعهن بالرغم من محاولات عبد المنعم وزوجته وعلاء معهن ليتناولن الغداء معهم .

كان الجوع قد أخذ من الحاج مأخذه ، وبالقطع لابد وأن يكون قد طال الجميع ، فقد كان يوما شاقا على الحاج وسعاد ، فمنذ الفجر وهم في الطريق إلى الإسكندرية للتخليص علـــى الســـيارة الجديدة التي أرسلها الدكتور طه باسم عمه ، ولولا مساعدة إسماعيل بـــك لهمـــا ، لمـــا انتـــهت الإجراءات في يوم واحد ، فقد تبين أن للرجل معارف في الميناء والجمرك وغـــيره مـــن المصـــالح المهمـــة ، لذلك لم يمانع الحاج من اصطاحبه معه في السيارة عائدين إلى القاهرة ، بـــل وصمـــم عليـــه أن يتناول غداءه مع عائلته ، لولا اعتذاره بوالدته التي تعاني الوحدة في غيابه . كذلك فإن المعانـــاة التي سببتها المشكلة التي فجرها مدحت ، والألم الذي أفقـــده كـــل بهجـــة يمكـــن أن يستشعرها إنســـان بسبب بكاء ابنته منال وحرقة قلبها ، فما كان لأحد قابلية لغداء أو خلافـه ، ثم إن بناته خرجن مع سعاد إلى المستشفى التي بها علاء لتوصيله إلى بيته بعد شفائه من العمليـــة ، كان ذلك قبل الغداء ، حيث أنه آثر توفير جو من البهجة بخروج زوج أختهما من المستشـفى ، ثم وهذا هو الأهم ، فرحتهم بالسيارة الجديدة ، حيث كانت أكبر من أن تجعلهن يفكرن في طعـام أو خلافه ، فأنستهن الجوع وأي شئ آخر ، سوى متعتهن بسيارة جديدة بشكل رائـــع وماركـــة معروفة ، خاصة وأن الطريقة التي قدمها بها والدهن لهن ، كانت شئ أكثر من مثير ، يبقى كـــل

مـــا عداها غير هام ، أمور كثيرة حدثت هذا اليوم ، ولم يكن يتوقع أن تتأخر البنات في توصيـــل علاء إلى منزله بهذا القدر ، لذلك ما أن وصلن حتى أمر الحاج محمد بالطعام بطريقة تعمد فيـــها أن يضفي السعادة عليهن ، وتحولقت العائلة حول المائدة ، ومهجة تصف السيارة ، وسعادتها بهـــا ، ثم طلبت من والدها أن يوصلها السائق إلى مدرستها بالسيارة ، وإلغاء سيارة المدرسة ، ورفـــض الطلب طبعا ، فهو يعرف أن سيارة خاصة معناه التلكؤ وعدم انضباط المواعيد . كـــانت هنـــاك مسحة من الحزن تخيم على الوالدة ، فلا هذه ابتسامتها البراقة ، التي مازالت تحمل جوانب جمالها ، ولا مشاركتها معهم كانت كما تعود الجميع منها ، فنظرت الفتيات إلى الحاج محمد يستفســـرنه بعيون ملؤها الحب والوفاء ، والخوف أن يكون هناك ما يكدر صفو العلاقة بينهما ، لكن الرجـــل أسرع باحتواء زوجته تحت جناحه ، وطبع قبلة حب وحنان على جبينها معبرا عن سعادته بتلـــك السيدة التي لا تحزن إلا لما قد يكدر صفوه ، وكان هذا كفيلا بأن يدخل السعادة على الوالـــدة ، ومن ثم على بناتها .

رآها إسماعيل وهي تزلف إلى المصعد ، فملكت عليه كل تفكيره ، لم يكن يتصور ما ستحدثه هذه المشاهدة ، لم تكن سوى لمحة ، ولكنها فعلت فعل السحر ، فما أن رأى والدته حتى أخذ يكلمـــها عنها وعن جمالها ، قال لها بلهفة عاشق ولهان :

- " لولا أنني أعرف أن والدها رجل من الرجال الذين نادرا ما تجدين مثله ، فأنت تعرفينه جيدا ، إنه المهندس محمد ، ذلك الرجل الذي كان أول من فكرت فيه لتنفيذ عقود البطاطس ، قلـــت أن لديه الأرض والعزم والحيلة والرجال ، ثم أن له عندك من المنزلة والمحبة ما يجعل من الصعب نسيانه ما كتبت لك حياة ، وعندما نوهت بأنه حب ، سارعت تذكرين مواقفه التي تخلـــده في الذاكرة فلا ينسى ، وذكرت بعضا منها ، وأولها أنه كان أول من ساعدنا بعد ما طردتنا زوجة أبي من دارنا ، تلك الدار التي ظلت في ذاكرتك طوال السنوات التي مضت لم تنمح ، ولقـــد شعرت كم كانت سعادتك عندما تمكنت منها مرة ثانية ، وأعدت معها علاقتي بـــأخي دون مشاكل .."

فقاطعته مسرعة :

- " لا تقل أخوك .. إنه ليس بأخيك ، وربما يكون مجهول الأب ، فلتسأل زوجة أبيك من أيـــن جاءت للباشا به ؟"

ولما كان تركيزه على من رآها تخرج من بيت الحاج محمد ، فقد آثر الرجوع سريعا إلى موضوعها ، حتى لا يطغى موضوع عبد المنعم عليه ، فهو يعلم كم هو ثأرها عند زوجة أبيه وذلك الذي تدعيه أخا له ، وقد حان الوقت الذي تتمكن فيه من تنفيذ هذا الثأر ، والثأر عند الصعايدة ، ليس في شخص معين ، وإنما في أي شخص يمكن أن يكون ذا صلة قوية به ، ومن أقرب لزوجة أبيه من ابنها ، أو من ابن زرعته في عائلة السلحدار ، لا يمت للباشا بصلة ، وربما لا يمت لها هي أيضا بصلة ، ولكنه الحقد والغل الذي أعمى بصيرتها ، لتنتقم من شوق ووليدها ، حتى ولو كان ابنا شرعيا للباشا ، وإسماعيل يلتمس لها العذر ، سنوات من المعاناة التي لا حدود لها ، ولم تنس خلالها ولو للحظة ، ما فعلته هذه السيدة معهما ، وأصبح كما نشيد الصباح ، تلقنه له يوميا ، حتى أصبح يكره تلك السيدة ، ويكره عبد المنعم ، ولولا سفره إلى فرنسا ، وما درسه من علوم تجعل الكياسة خير في استرداد الحقوق من العصبية التي تعمي البصيرة والأبصار ، لما تقبل أن ينظر في وجه عبد المنعم ، وليس الاحتفاء به ، ودعوته هو والمحامي اللعين على الغداء ، فقال :

- " أليس هو ذاته الرجل الذي اقترح علينا الحل الودي مع عبد المنعم منذ أن بدأنا حياتنا في أرضه ، وحتى قبل أن نتسلم قصر جدك ،وقبل سفري إلى فرنسا ، ولعله هو الذي اقترح عليك أن تكون دراستي في فرنسا .."

وشعرت وكأنما ابنها يحاول أن ينتزع منها اعترافا بأنها كانت تحب الحاج محمد ، أو لعل هناك علاقة ما كانت تربط بينهما ، فأرادت أن تأخذه بعيدا إلى بداية قصتها معه ، حتى يعلم تربية فرنسا هذا ، أن هناك ما يسمى بالحب الشريف ، وليس الحب ما رآه في فرنسا ، قبلات في الطريق ، وضياع بين الأحضان ، فسارعت تصحح معلوماته :

- " علاقتي بالحاج محمد بدأت عندما كنت أتنقل بين حدائق الفاكهة ، وكان كل من يراني من أصحاب تلك الحدائق يحاول أن يلقي شباكه حولي ، وكأنما الحل الوحيد للتعامل معه ، لابد وأن يمر من خلال علاقة آثمة .. قليل هؤلاء الذين عرضوا علاقات شريفة ، لكنها بالقطع مؤقتة ، أي أنها نزوة ، وضقت بهم أيما ضيق حتى لكأنني فكرت مرارا في أمر آخر غير تجارة الفاكهة ، وفي إحدى هذه الجولات الفاشلة ، تعطلت سيارة والدتي التي كانت قد تركتها في جراج العمارة التي كانت تستأجر فيها إحدى الشقق ، كانت العمارة في جاردن سيتي ، والإيجار لم يكن بسيطا ، وكانت والدتي ترسله من فرنسا ، وأهل مصر يقولون أن الناس الذين

في فرنسا سوجرت ، يعني عندما يلتزمون ، يوفون ، ولذلك فقد كان صاحب العمارة لا يهتم إذا الناس السوجرت تأخروا في سداد الإيجار ، شهر اثنين ثلاثة ، غير مهم ، والحقيقة أن والدتي كانت ترسل الإيجار بانتظام ، حتى ولو اضطرتها الظروف إلى تأخيره بضعة أشهر ، كانت ترسل كل المستحق دفعة واحدة ، وكانت والدتي قد تركت لي مفتاح الشقة قبل أن تسافر ، لكي أرعاها وأتولى الإشراف على نظافتها ، وعندما حدث ما حدث ، لم أجد أمامي سوى هذه الشقة ألجأ إليها ، فأرسلت إلى والدتي أخبرها بما حدث ، ولم تمانع الماما بشرط أن أدفع الإيجار ، والإيجار لشقة بمثل حجمها وجمالها والشكل العام للعمارة التي فيها ، والمنطقة ، جاردن سيتي ليست مجرد لفظ يطلق على منطقة من المناطق السكنية في القاهرة ، إنها معقل لكل الأرستقراطية ، سكانها من القمة في كل شئ ، لذلك كان كل ما فيها يتسم بهذه الصفة ، المحلات والشوارع والنظافة وكل شئ ، وعلى هذا فالإيجار لم يكن مبلغا زهيدا ، كما هي إيجارات تلك الأيام ، وكان لزاما أن أدفعه ، وكذلك إيجار الجراج ، والبواب والكهرباء ، والطعام ، ومن أين لي كل هذا ، إن ما استطاعت مسعدة والدة عبد الجليل أن تدسه في يدي من الأموال التي تركها الباشا ، لا تكاد تكفي مصروفات شهور قليلة ، وكان لزاما علي أن أعمل ، لأكفلك وكذلك تلك المسكينة رتيبة والدة خلف ، لقد كانت في مثل حالتي وربما أسوأ ، امرأة بلا مأوى تحمل طفلا ، طردت هي الأخرى ، طردها زوجها لأنها فقيرة ، لم تأت له إلا بالنحس ، وقد وجد من تستطيع أن ترفع عنه كاهل الفقر والبؤس ، فما إبقاءه عليها ، طردها وطفلها لم يزل بعد رضيعا ، جلست على رصيف محطة القطار تندب حظها ، رأف بحالها البعض وألقي إليها ببضعة قروش ، لكن مصيبتها كانت أكبر بكثير من تلك القروش التي لم تتجاوز العشرة ، أما أنا فقد كان وضعي أفضل منها كثيرا ، على الأقل معي بعض الجنيهات ، والجنيه زمان ، كانت له قيمته مثلما هو الإنسان المصري ، فعندما تنخفض قيمة العملة ، ينخفض معها قيمة كل شئ في البلد ، وأول هذه الأشياء القيم ، وجدتها تستجدي الذاهب والغادي ، أنا أعرف أين سنذهب ، شقة والدتي في انتظارنا ، أما قصر جدي لوالدتي ، فقد حرمه علينا أيام حياته لأن أمي تزوجت من مصري صعيدي ، ثم حرم القصر علينا أنا وأنت بعد أن سافرت أمي إلى فرنسا لأنني تزوجت من تركي وأحمل منه طفلا ، والفرنسيون كانوا في حرب مع الأتراك في سوريا ، وبعض المناطق الأخرى ، ولولا أن مصر كانت قد

استقلت عن التاج السلطاني ، لكان وضع الفرنسيين في مصر في خطر أيضا ، لكن أولاد العم الإنجليز ، كانوا يحمونهم مع كل الأوربيين في مصر من كل شئ .."

فقاطعها إسماعيل بجفاء :

- " أين هي شعاراتكم أيها الفرنسيون ، حرية .. مساواة .. إخاء .."

وأجابته السيدة :

- " لقد جادلته والدتي في ذلك ، كيف ترفعون شعارات لا تطبقونها على أنفسكم ؟ أيـــن هـــي الحرية والمساواة والإخاء ، لقد أصبحت عبودية وتسلط واستعباد ، ومع ذلك ، فقد كـــان زوجها الصعيدي المصري من أكبر عائلات مصر ، فما له إن تزوجته ؟ لكنه حرم عليها قصره ، وبالتالي حرمه على ابنتها وهي صغيرة ، وعندما كبرت تزوجت من تركي ، فأصبح محرمـــا علينا طوال حياته ، خاصة وأنني أحمل ابنا لهذا التركي هو أنت ، ولأنني نشأت علـــى عـــزة النفس ، وكيف تكون الكرامة ، ورثتهما عن أبي رحمه الله ، توجهت فورا إلى شـــقة والـــدتي ومعنا رتيبة وخلف ، وبدأت أرتب للحياة ، تذكرت جولات أبي على المزارع ، فبدأت بهـــا ، وقد مرنت رتيبة على رعايتك أثناء غيابي ، فقد كنت تكبر خلفا بعدة سنوات ، ورآني الحـــاج محمد أستند إلى شجرة وأمامي سيارة ليست معطلة وانما مستهلكة ، فما كان عندي ما أنفقـــه على إصلاحها ، حتى أصبحت خردة ، تفهم مشكلتي سريعا ، فركبت معه في سيارته ، وأرسل من قطر سيارة والدتي ، وتولى إصلاحها ، واتفق معي على أن أشاركه تسويق إنتاج أراضيـــه التي كانت بدأت أوائل تباشيرها ، أنا بخبرتي في أسواق الخضار والفاكهة ، لما لعائلتي من زعامة في هذا المجال ، وهو بماله ورجاله وسياراته وإنتاجه ، وكانت شراكه جاءت علينا بالخير ، رتب لي سكناً مريحاً في الأرض مجانا ، كنت أستخدمه للأعمال أيضا ، وبذلك جنبني تكبر والـــدتي التي كانت تستحثني على سداد الإيجار ، ربما أكثر مما كان يستحثني عليه أصحاب العقـــار ، واستخدمت سيارات الحاج محمد في تنقلاتي ، وزاد بأن كان يرسل إلينا كل يوم احتياجاتنا من الطعام ، مثلنا في ذلك مثل باقي أفراد عائلته والعاملين في المزرعة ، لقد كانت هذه الشـــراكة بادرة خير وبركة علينا ، أنا وأنت ورتيبة وخلف ، فلولاها لما تمكنت من الاستمرار في حيـــاتي أرعاك وأهتم بك دون أن يشاركك رجل يتزوجني ، أو أسافر إلى أمي في فرنسا ، أو أن تحتوينا

عائلة جدك في الصعيد . فهل بعد كل هذا يمكنني أن أنسى له ما طال بي العمر كل ما فعله من أجلنا ؟"

لكن إسماعيل فاجأها بسؤال ، كانت تتوقعه منذ البداية ، لكنه تأخر في طرحه :

- " كنت تحبينه ..!"

أطرقت قليلا ، فقد أعاد لها هذا السؤال الذكرى كاملة :

- " أحبه !! إن كلمة حب لا تساوي مشاعري نحوه ، لكن ماذا أفعل ؟ لقد كـــان يحـــب زوجته حبا منعه حتى من مجرد النظر إلى وجهي الذي لو شاهده ، لما تركني دون الارتباط بي ، فقد كنت من الجمال بالقدر الذي يسحر كل من يراه ، لكنه كان عفيفا ، بل لقد أعـــاد إلي العادات الجميلة التي سبق لوالدي أن زرعها في ، فقد رأيت كل نساء عائلته ، بل وحتى نساء العاملين عنده محجبات فتحجبت ، ورأيت الجميع يصلي ، فصليت ، وعلمـــت أن الجميـــع يصومون ، فصمت ، وسمعت الجميع يتلون كلام الله ليل نهار ، فتلوت ، وأنت كنت تقلدني ، حتى لكأنك بدأت الصلاة وأنت في السادسة وصمت وأنت في السابعة ثم تلاك خلف ، أمـــا رتيبة ، فقد رتب الحاج لها زوجا ، هو إمام الجامع الضرير ، ورضيت السيدة به زوجا ، على أن لا يمنعها من خدمتي ، فقد صانت هذه السيدة المعروف الذي فعلته معها بانتشالها من الفقر والضياع عندما تخلى عنها الجميع ، وعلمت ابنها خلف أن يكون طوع بناننا حتى الآن ، فهل تريدني أن أنسى الحاج محمد؟ والرجل لم يكتفِ بأن ينتشلني مما كنت فيه من ضياع ، وفقـــر ، وطمع كل من هب ودب ، حتى صاحب العمارة ، لم يكن ليصبر على تـــأخري في ســـداد الإيجار إلا لرغبة في نفسه أعلنها مرارا على استحياء ، أما الحاج محمد فقد أشـــعرني بأنـــه لا يتعطف علينا ، ولكنه أطلق عليها شراكة ، شراكة بماذا ؟ لكي تشتري فاكهة أو محصـــولا ، لابد من دفع عربون ، وأنا لم أدفع عربونا ، ولابد من اللف والدوران بوسائل نقل ملكـــي ، وليست ملكه ، لقد فعل أكثر كثيرا مما كان يجب على من يهمه أمرنا ، جدك مثلا ، الجـنرال "دي لاسوليه" الذي لم يكلف نفسه حتى مجرد السؤال عنا ، لا ونحن في الكفر ، ولا بعـــد أن توفي الباشا ".

ثم توقفت قليلا عن الكلام ، عصرها الذكرى ببعض العبرات ، فعادت إليها إشراقة وجهـــها ، واسترسلت :

• " ليتني أستطيع أن أرى الحاج محمد ، فقد مضت سنوات طوال منذ ما قبل أن نتسلم قصـــر جدك ، باعدت بيننا الأيام ، وتحولت مشاركتي الصورية له بعد أن استطعت تكوين رأسمـــال مش بطال ، إلى شراء لإنتاج الأرض ، وهذا كان يتولاه خلـف وبعـض الذيـن اخـترقم لمعــاونتي في هذا العمل ، ولما عدت من فرنسا ومعك الدكتوراه ، وعقود البطاطس ، انطلقت بين الحقول أشتري البطاطس لنصدرها إلى فرنسا ، وأعاد السادات إلينا قصر جدك ، بعد رفع الحراسات ، فعشنا في هذا القصر ، وأحضرت معك سيارتك الكبيرة ، فما عادت لنا حاجـة بالاختباء في أرض الحاج ، وما كان للحاج أصلا حاجة إلينا ، فهو لديه كل شئ ، ولكنـــه أراد أن يساعدنا دون أن يجرح مشاعرنا ، خاصة وأنه تربطه بعائلة زيدان علاقـــات نسـب ومصاهـــرة وتعامل ."

وعادت إلى صمتها تستعيد ذكريات الماضي ، وتصورات شبابها الجميلة ، وسألت نفسها ســؤال ابنها ، هل كانت تحبه ؟ إن كلمة حب بالنسبة له ليست كافية ، فالرجل عندما يقدم خدماته لوجه الله ، يعشقه الجميع ، الرجال قبل النساء ، ولكنه عشق من نوع رباني ليست فيه مصلحة ، لكـن النساء ، والأرامل على وجه الخصوص ، يداعب خيالهن شيطان الحب ، وقد يفلح في أن يستميل ذوات القلوب الضعيفة ، وقليلات الإيمان ، لذلك حرص الرجل على أن يزرع الإيمان في قلبـــها بكل القوة والعمق الذي جعلها ترتبط بابنها وبالله وفقط .

وأراد ابنها أن يخرجها من صمتها ، ويذكرها بموضوع حبه السريع لابنة هذا الرجل ، الذي تكن له كل هذا التقدير ، فقالت له :

• " خير البر عاجله ، والحاج محمد من أفضل الناس ، ولن تجد أحسن من بناته تربية ، ولا أفضل منه مصاهرة ، هيا بنا على بركة الله ، لكن من الأفضل أن تحدثه أو تترك له رسالة .."

وتحدث ، لم يكن الحاج محمد موجودا ، وتولت منال الرد على الهاتف ، وسمع صوتها كان البكاء والحزن قد أذبله ، فأصبح همسا ، يدغدغ المشاعر ، وطار صوابه ، الشكل والصوت والنســب والإيمان ، كلها أمور تشجع على الارتباط ، سألها عن والدها ، وترك له الرسالة ، وهو لا يريد أن ينهي حديثه معها ، وهي ليست على استعداد للحديث مع أحد ، حاول أن ينحرف بالحديث قليلا ، فوجد سماعة الهاتف تصمته ، ياله من عائلة ، الرد على قدر السؤال ، والتزيد ليس له ســوى جواب واحد ، هو إغلاق سماعة الهاتف وكأن القائل لم يقل ، لأن المستمع لم يسمع ، كلها بـوادر

تشجع على الارتباط ، فلن يجد خيرا منها ، وأعلم والدته بما حدث ، وأن الساعة السابعة مساء موعدهم .

كان لقاء حارا ، لولا أنها سيدة ، لكانت الأحضان هي الوسيلة الوحيدة التي تعبر عن فرحته وسعادته بها ، وقدمت الحاجة جميلة ، وكم هي الكلمات الرقيقة العذبة التي سمعتها منها ، وكم هي كلمات الرقى التي قالتها ، وتبادلوا الأحاديث الكثيرة ، كانت الحاجة جميلة تعرفها من خلال كلمات الحاج محمد عنها ، كان يقول لها كل شئ ، فهو لا يخفي شيئا عن زوجته ، لذلك كانت تتحدث معها ، وكأنها تعرفها منذ عشرات السنين ، وطلبت ابنتهما ، هي لا تعرف من ، ولكنها تريد ابنتهما لابنها إسماعيل ، وقال الرجل بهدوء :

- " عندي ثلاث ، منى وقد تم عقد قرانها ، ومنال مخطوبة ، ولم تبقى سوى مهجة ، وهذه قاصر ، فمن تراها سعيدة الحظ بهذا النسب الذي لا يمكنني إلا أن أقبله .."

وقال إسماعيل بكل الود والتحفظ :

- " كنت أتمناها ، صاحبة الصوت الرخيم التي أجابت هاتفي .."

وتذكر الحاج محمد :

- " آه .. إنها منال .. هذه مخطوبة لابن خالها .."

فقاطعته زوجته لأول مرة في حياتهما الزوجية :

- " انه مجرد كلام ..لم يدخل بعد في مراحل التنفيذ ، وقد لا يتم ، فالعريس ضابط شرطة ، والحاج لا يرغب في التعامل مع رجال الشرطة ، لا أقارب ولا نسب ولا أصدقاء ، إلا من بعيد لبعيد ، على كل إذا لم يتم موضوع ضابط الشرطة هذا ، فهي من نصيبك إن شاء الله "

وتعجب الحاج محمد من تغير زوجته ضد أخيها وابنه ، لم يكن هذا هو شعورها عندما حضر مع والدته ليطلبها ، كانت مرحبة بهم أيما ترحيب ، كانت سعيدة بأن هذه الزيجة ستعيد العلاقات بينهم وبين عائلة أخيها إلى ما يجب أن تكون عليه ، لكن ما أحدثه أخوها ، كان شرخا عميقا ، جعلها لا تود حتى مجرد ذكر اسمه ، وألقت باللائمة على الحاج ، حقيقة أن الحاج يتحفظ في تعامله مع رجال الشرطة ، فإن تعاملهم الدائم مع المجرمين ، جعل الكثيرين منهم لا يفكرون إلا من

منطلق التعامل مع هذه النوعية من البشر ، حتى لكأنهم يتعاملون مع أفراد الشعب كلهم على أنهم مجرمون ، وأصبحت البلد قسمان ، بوليس وجيش ، ومجرمون ، تدخل قسم الشرطة شاكيا ، فإذا خرجت منه يبقى بختك من السماء ، هكذا ، إن لم يعجبهم شكلك ، يبقى يا ويلك منهم ، لكن حسام هذا موضوع آخر ، وقد حمد الحاج الله أن هذا الموضوع أعاد العلاقات معهم ، فهو ليس من مؤيدي المقاطعات العائلية ، وأن كل ما فعله كان على سبيل صلة الرحم التي أمر بها ديننا الحنيف ، لكن أخاها سامحه الله ، لا يريدها إلا حسنة وأنا سيدك .

خرجت الحاجة جميلة مسرعة ، وطلبت من سعاد أن تجهز منال للدخول بالقهوة لعريسها ، ولكن ماذا تفعل سعاد مع وجه لا يريد أن يتعامل مع الابتسام ؟ وجدت صعوبة كبيرة في أن تقنعها بأنه من الأفضل أن يكون لديها خيارات ، فإن لم يكن حسام يبقى اسماعيل موجود ، لكن منال نذرت نفسها لحسام وفقط ، إما هو ، أو لا زواج ، وبعد جهد جهيد من سعاد والحاجة جميلة وكذلك منى ، وافقت على أن تقدم القهوة ، لكن لا وألف لا لأي عريس ، وتلقفتها السيدة شوق بكل الترحيب والحب ، واحتضنتها إلى قلبها بسعادة من ترغب في أن ترتبط بهذا الرجل الذي أعانها على مشاكلها ، وأحبته ، نعم .. أحبته ومازالت تحبه ، لكن لتسأل الله سبحانه أن يسعده مع زوجته ، وألقت منال يدها في يد إسماعيل مجاملة ثم سحبتها سريعا ، وهرولت خارجة دون أن تجلس ، وعللت والدتها ذلك بأنها خجولة ، ثم أنها تستعد لاختبارات آخر عام لها في الجامعة ، وبررت عدم جلوسها بأنها لا تريد أن تضيع الوقت ، كما أنها لا تعرف أن هناك عريس ، وقالت الكثير من العبارات والمبررات التي من هذا القبيل ، كانت السيدة جميلة تريد أن تقول لأخيها ولابنه ، أن بناتها يطلبهن من هم أفضل منهم ملايين المرات .

وكانت الحاجة جميلة تتمنى أن يكون اسماعيل هو عريس المستقبل لابنتها منال ، فقد قص عليها زوجها حكاية الضيف الذي حضر يوم إنذارها لحسام وأخته بإخلاء الفيلا ، حيث أنهى لقاءه به سريعا ، وأضاف بأن قص عليها كيف ساعده في إنهاء إجراءات السيارة ، وحرصا منه على راحة الحاج ، أقسم إلا أن يقودها من الإسكندرية إلى القاهرة ، وزاد من سخائه أن عرض عليه عقدا لشراء كمية من البطاطس ، يحضر هو الدرنات ويتولى الحاج محمد زراعتها في أرضه ، وأنقده شيكا بمبلغ سال له لعاب الحاجة جميلة ، التي تعودت على ما هو أكبر من هذا المبلغ عشرات المرات ، لكن هذا كان منذ زمن طال أكثر مما ينبغي .

عرفت أن اسمه إسماعيل ابن السيدة شوق التي كانت شريكة للحاج في تسويق خضرواته وفاكهته ، وأنه حصل على الدكتوراه في التسويق من فرنسا ، وعائلته أصلها عريق ، فوالده باشا ، ووالدته نصف فرنسية ، وجده من أكبر عائلات الصعيد ، فماذا بعد هذا النسب ، ويسكنون في قصـــــر هـــو ملكهم ، وليس ملك والد أو والدة العروس ، حقيقة أن زوجها الحاج محمد ســــاعدهم في بعض أمور حياتهم ، ولكن كان ذلك على سبيل المشاركة ، وليس التواكل وحسنة وأنا ســـيدك ، بل إن السيدة شوق فور جلوسها على المقعد الذي اختارته جميله لها ، وقبل أي حديث آخــــر ، أفاضت بأفضال الحاج محمد عليها وعلى ابنها ، ولولاه لما كان إسماعيل ، ولما كانت هي ، هـــي لم ينقصها ما قالت شيئا ، بل لقد زادت كثيرا عند من يقدر مثل هذه الأخلاقيات ، فماذا كان مـــن أخيها ، لا فضل ولا اعتراف بجميل ولا حتى يضع لسانه في فمه ويغلقه دون تلك الثرثرات الـــتي تشتمل على الكذب بأكثر مما تشتمل عليه من حديث .

امتدت السهرة ، وما أجمل السهرات التي يلتقي فيها الأحباب ، فما كانت تريد أن تتركــــهم ، وكذلك هم ، والشاب يشكر في العائلة لكنه همس لوالدته أنها ليست هي ، ووالدته تؤكد علـــى أنها لا يمكن إلا أن تكون هي ، فلا أحد غيرها في سن الزواج ، ومن غير المعقول أن تكون أختها ، لأنها مرتبطة بعقد قران ، لابد وأن الأمر اختلط عليه ، وأصبح التعليل الوحيد أنه ربما رأى أختها ، وبما أن أختها تم عقد قرانها ، فلا يبقى سواها ، وطالبته والدته أن يعيد النظر إليها مرة أخـــرى ، بعقل رجل راشد يريد الاستقرار في زواجه ، وأن اختياره لشريكة حياته يجب أن يكون مبنيا أساسا على الدين والبيت الطيب والأخلاق الحميدة ، ثم بعد ذلك المواصفات الشكلية ، وقصت له قصة الزوجة التي رغب زوجها في امرأة أخرى وقرر طلاقها ، فبدأت في دلالها عليه بصورة تجعله ينسى كل من سواها ، ثم جهزت له أكلة قدمت لها عنده بأنها شئ جديد ومثير ، فهل سبق له أن أكل في حياته بيضا ملونا ؟ وأحضرت له بيضا ملونا ، سعد بشكله لكنه كلما أزال قشرة إحدى البيضات ، وجدها كسابقتها ، فثار عليها ، فقالت له بدلالها الذي زادت عياره كثيرا :

• " يا حبيبي .. هكذا هن النساء .. اختلاف في الشكل ، ووحدة في المضمون .."

وفهم الزوج ما ترمي إليه زوجته ، وأحس كم هي محبة له ، يعني لم تجهز له ســـاطورا وأكيـــاس بلاستيك ، ولم تتآمر على قتله مع اخوتها وأقاربها ، ولم تضع له سما في الطعام ، ولا ندري من أيـــن جاءت حواتنا بهذه الأدوات القاتلة ، لمجرد أن زوجها اتجه قلبه لامرأة غيرها ؟ أما كان من الأفضل

أن تبحث عن أسباب تغير قلب زوجها عنها ، أما كان يجب أن تبحث عن عيوب نفسها ، والأمور التي لا تعجبه فيها وجعلته يتجه لغيرها ؟ وتحاول أن تغير من نفسها قبل أن تغير من زوجها .
وقصت عليه قصة الأعرابية التي أعلمها زوجها بعزمه على طلاقها ، فأظهرت له خسارتها بهذا القرار ، وقالت له بأنه كان نعم الزوج ، وفقدها له خسارة كبيرة ، وزادت بأن وصفته بأنه كان طيب العرق ، كثير المرق ، بمعنى أن عرق هذا الراعي أيام لم يكن هناك عطور ولا مزيلات رائحة العرق ، كان طيبا في أنفها ، من يستطيع أن يستطيب رائحة عرق أعرابي يعمل بالرعي ، لكن هذه الزوجة قالت لزوجها ذلك ، فكان لقولها في نفسه وقعا حسنا ، وعدل عن قراره ، وكثير المرق بمعنى كثير الطعام الذي يدخل اللحم في مكوناته ، والأعراب قديما ، كانوا قلما يتناولون غير التمر واللبن ، حقيقة أهما طعام صحي ومفيد ، لكن هل من بين بناتنا من تعجبها الحياة بالتمر واللبن ، اللهم إلا القليلات ، وتعجب إسماعيل من سعة إطلاع والدته على الأدب العربي ، بينما ثقافتها فرنسية ، لكنها أفهمته أن والدها رحمه الله جاهد مل وسعه ليزرع فيها حب الإسلام واللغة العربية ، ذلك أن الحياة العربية بالنسبة لابنة فرنسية شئ غير مألوف ، ربما تعافها سريعا ، والحمد لله أنها عاشت في كنف والدها بعيدا عن فرنسة أمها ، فكانت جرعات الأدب العربي ، والحياة العربية ، والأسلوب العربي ، هي كل ما كان يقدمه لها ، وذلك من خلال التعمق في أخلاقيات وعبادات الإسلام ، بما فيه من رحابة وعلم وتربية وشفافية ، وتاريخه الذي يمتد لأكثر من ألف سنة ، ولما تزوجت ، أكمل والده المشوار ، مما كان له الأثر الطيب الذي مكنها من أن تتحمل المشاق في سبيل تربيته التربية العربية الإسلامية التي جعلتها تفخر به ، ويفخر به كل من يعرفه ، وبينت له أن الكثير من الأمور الحياتية في هذا القرن ، والتي تعارف عليها بأنها أوربية ، هي في حقيقتها عربية الجذور ، بل إن الكثير منها ذكر في القرآن الكريم ، وتولى العرب نقلها إلى الغرب عن طريق الأندلس ، لكن هناك من لا يعجبه أن يتسيد العرب الحضارة الحديثة ، فهم يقتلون كل من يحاول الظهور بعبقرية ، أو يخربون كل ما يخرج إلى حيز الوجود من ابتكارات تنسب إلى العرب ، حتى الأهرامات ، يريد بنو إسرائيل أن ينسبوا بناءها إليهم ، وقد أعلن رئيس وزرائهم ذلك ، وأصر رئيس الوزراء المصري عليه أن يكذب ما قال ، وتم ذلك صراحة .

وبدأ إسماعيل يفكر في منال زوجة له في مستقبل أيامه ، لكن تلك الفتاة التي رآها تزلف إلى المصعد ، صورتها مازالت تتردد في ذاكرته ، فقرر التركيز على ما قالته والدته ، ولعل الله يريد

لـــه الخير ، فمن أهم الأسباب في نجاح الزواج ، البيت والتربية ، وهما ما لا يستطيع أن يختلـــف عليه اثنان بالنسبة للحاج محمد ، ويكفي أنه هو نفسه ناله شرف تربية الحاج محمد له ، فقد ظل في أرضه أكثر من عشر سنوات ، أنهى خلالها دراسته الثانوية ، ثم سافر إلى جدته في فرنسا ، فـــدرس في جامعاتها وحصل على الدكتوراه منها ، ثم عاد إلى جذوره في مصر ، أما والدته فقد رفضـــــت السفر معه ، حتى تستطيع أن ترسل له مصروفاته الدراسية والحياتية من كدها وعرقها ، فلا يكون لوالدتها عليه فضل ، تعيره به ما بقي لها من حياة ، إلى جانب خشيتها من أن يقطـــع ســـفرها إلى فرنسا صلتها بمصر ، مصر الأرض التي نشأت منها وعليها ، مصر تراب أبيها وزوجها ، مصـــــر الخير والنِّعَم والجو الجميل والحياة البسيطة ، مصر بأهلها الطيبين ، كرماء في كل شـــــئ ، طالمـــا استطاعوا ، مصر بشهامة أبنائها ورجولتهم وإقدامهم ، مصر الأرض والعرض والتاريخ والحيـــــاة والحضارة ، مصر الماضي والحاضر والمستقبل ، مصر الأمل.

أثناء ترتيبها لأوراقها ، لمحته ، مظروف كبير ضخم كتب عليه M.A.ZAK ، أعادها إلى الجامعة في أمريكا ، وتذكرت أن الأستاذ المشرف على دراستها هو الذي سلمها اياه ، تصورته مثل باقي المظاريف التي سلمها لكل من زملائها وزميلاتها ، والمصريين والمصريات منهم على وجه الخصوص ، وعلمت أن هذه هي عادته ، كلما أنهى أحدهم دراسته ، سلمه مظروفا لإحدى المستشفيات أو الجهات العلمية ، توصية منه للمسئولين فيها ، فهو طبيب مشهور ، وله زملاء وأصدقاء في جميع أنحاء العالم ، المظروف لم يكن يحمل عنوانا ، فظنت أن المدعو M.A.ZAK شخصا كان أو جهة علمية أو مستشفى ، مشهور جدا في مصر حتى لكأنها تستطيع الوصول إليه بمجرد السؤال عنه باسمه فقط ، وعندما عادت إلى مصر ، فوجئت بخطاب من جامعة القاهرة يطلبها للعمل أستاذة مساعدة بكلية الطب ، فلم تهتم بأمر مظروف أمريكا ، باعتبار أنه لو كان للعمل ، فقد جاءها العمل دون أن تسعى إليه ، وإن كان لشخص ما أو لجهة ما ، فلابد وأن يكون الراسل قد أعطاهم عنوانها أو رقم التليفون للإتصال بها ، وعليه فهي في انتظارهم ، خاصة وأن الدكتور المشرف على رسالتها ألح في طلب بيانات عنوانها ورقم هاتفها ، لكنها سألت خالها إن كان يعرف أحدا بهذا الاسم ، لكن خالها باغتها بسؤال تعجبت منه أيما عجب :

• " هو الدكتور طه أرسل معك خطابا لي .. أين هو ؟"

وناولته المظروف وهي تبدي تعجبها :

• " وما علاقة الدكتور طه بالأستاذ الذي أشرف علي دراساتي ..؟"

لكن خالها أخذ يطالع المستندات التي يحتويها المظروف ، وهو لاه تماما عن تعجب ابنة أخته وتساؤلاتها ، المسكينة كان تعجبها في بادئ الأمر من العلاقة بين الدكتور طه والأستاذ المشرف على دراساتها ، والآن ازداد تعجبها من العلاقة بين خالها وبين المدعو M.A.ZAK ، وساءلت نفسها عما قد يربط خالها بهذا الدكتور المتعجرف المتعالي ؟ وهل يمكن أن يكون له علاقة بمصر أو المصريين ؟ وفيما عدا المظاريف التي يسلمها لكل منهم في نهاية دراسته ، لم يكن إلا قمة في التعنت مع الطلبة المصريين على وجه الخصوص ، فكيف تكون له هذه العلاقات القوية التي تجعله يراسل خالها ، أو تكون له علاقة حميمة مع ابن خالها الدكتور طه ؟ إنها لم تشعر ناحيته بأي نوع من الود أو الاحترام ، وأخذت تتذكر بعضا من تصرفاته المتعنتة التي كان يتعامل بها مع المصريين ، ومعها

على وجه الخصوص ، وكان خالها مشغولا بقراءة المستندات التي يحتويها الخطاب ، ثم أعلن بسعادة :

- "أوراق أجهزة المستشفى وصلت ، معلهش يا دكتورة ، فيه مشوار ثاني إلي الأسكندريه باكر ، حيث تصل الباخرة ، مش عايزين ندفع غرامات ولا أرضية ."

وسألت الدكتورة سعاد خالها :

- " ما العلاقة بين ابن خالي وبين الدكتور الذي أشرف على أبحاثي ، ثم ما العلاقة بينك أنت يا خالي ، وبين هذا الدكتور الذي كنا ننعته بالتعبير المصري الدارج "طظ"..؟"

وكادت الدهشة أن تعقد لسانها عندما علمت أن هذا الدكتور الذين ينعتونه "بطظ" ، هو ابن خالها الدكتور طه عمر الصقر ، ورددت سعاد الاسم بالإنكليزية T.O.ZAK والذي يختصره المصريون هناك إلي " TOZ " يعني "طز" ، ذلك أنهم كانوا لا يقبلونه ، ويعتبرونه من عتاة المتشددين معهم ، بل واضطهادهم أيضا ، لكن خالها قال لها برقة الخال والعم :

- " هل كان أحد منهم يحصل على درجات ضعيفة ، أو أنه تخلف عن دراسته ؟"

فأطرقت سعاد محاولة التذكر ، ووجدت أن خريجيه جميعا كانوا يمتدحونه بعد انتهاء الدراسة ، بل إن من بين تلاميذه المصريين من استبقاه معيدا بذات الجامعة ، وكان هؤلاء المعيدون يبدون تعجبهم من الرعب الذي يسيطر عليهم من الدكتور .T.O.Z ، ويطمئنونهم حتى لا يرهبونهم أكثر مما هم فيه من رهبة ، حتى هي ، ذهبت إليه تشكره على التقدير الممتاز مع مرتبة الشرف الذي حصلت عليه بالرغم من أنها لم تكن تتوقع ذلك ، فشرح لها خالها أن طه كان مضطرا إلى ذلك ، فهو في جامعة يسيطر عليها أساتذة لديهم ميولهم العنصرية ، ولولا تحريفه لاسمه بعد حصوله على الجنسية ، وعدم ذكر الديانة في المستندات ، لتعرض هو شخصيا لمتاعب مع المتشددين منهم ، ولذلك .. فقد تعتبر تشدده معهم في حقيقته مساعدة وليس تعنتا بعكس ما يبدو ، والحمد لله أنهم كانوا يتأكدون من حبه لهم وحرصه عليهم بعد انتهاء الدراسة ، وعلقت سعاد :

- "إن خشيتنا منه ، كانت دافعا أساسيا في بذل المزيد من الجهود ، وكان تفوقنا واضحا رغم عدم رضائه عنا ، حتى أن زملاءه كانوا يلومونه على هذا التشدد ، لماذا كان يفعل ذلك ؟

أمــا كان من الأفضل أن يطلعنا على حقيقة الأمر حتى يتجنب سخطنا عليه ، وتعليقاتنا الــتي تغلفها السخرية قبل الفكاهة ؟"

وأطرقت مرة أخرى ، تتذكر وتتمتم :

• "لقد كان محقا ، فإن سياسته هذه كانت في صالحنا من جميع الوجوه ، لكن لماذا لم يخبرنا بهدفه ؟ على الأقل كنا وجدنا له بعض العذر ، ولاستراح هو من سخريتنا به واستهزائنا لــه ، وكنــا تقبلنا تعنته بكل الحب والتقدير ، كم أنا خجلة الآن مما كانوا يقولونه سخرية به !"

فقال لها خالها :

• " أيهما أفضل ، المعاملة أم النجاح ، لقد كانت معاملته لكم متشددة ، لكنكم كنتم تنجحون ، وبتفوق ، أعتقد أنه كان على حق ، فلو أنه أظهر تعاطفه معكم ، لتشدد الآخـــرون ، وربمــا وجدتم النتائج في غير صالحكم ، خاصة وأنك تقولين أنكم كنتم تبذلون جهودا مضنية حـــتى يرضى عنكم ، وقد كان ذلك في صالحكم أيضا ، وحاولي أن تتذكري عدد من لم يثبت وجوده ممن تتلمذوا على يديه .."

وسرحت سعاد بعض الشيء ، وهي تحاول أن تتذكر ، فوجدت أن جميع خريجيه التي تعرفـــهم ، تبوءوا مراكز مرموقة في مصر أو حتى في أمريكا ، ما كان لأحد منهم أن يتوقعها ، ثم تذكـرت أن المظاريف التي كان يرسلها معهم لمديري مستشفيات وعمداء كليات طب في مصر أو في دول العالم الأخرى ، كانت مفتاحا لتعيينهم في مراكز ممتازة ، لكن هؤلاء المديرين والعمداء ، لم يذكروا هـــم أن الدكتور TOZ مصري ، وهنا لامها خالها معنفا :

• " عرفتي أن اسمه طه ، لماذا هذه التسمية السخيفة ..؟"

وتعجب الجميع من غيرة والدهم على ابن أخيه ، وحبه له حتى أنه لا يقبـــل المـــزاح بـــه ، أو السخرية منه ، بينما أظهرت سعاد تعجبها من أن المظروف ليس عليه اسم خالها ، ولا العنـــوان ، فأوضح لها خالها أن الاسم كتب بالأحرف الأولي فقط ، M.A.ZAK والعنوان ليس له داع ، فـهو يعرف أن الخطاب سوف يصل إلى العنوان بوصول سعاد إليهم ، والأجهزة للمستشفى التي أعدها الحاج محمد ليعملوا فيها جميعا ، هي والدكتور طه والدكتورة منى والدكتورة منـــال والدكتـــورة مهجة إن شاء الله ، وعن مكان المستشفى ، فإنه المبنى الملاصق للجامع الذي بناه جدهم الدكتـــور

عبد المؤمن ، ووسعه هو وألحق به عيادة مجانية ، ومكتبة وصالة اجتماعيات سوف تفتتح بفـــرح سعاد ومنى ومنال قريبا إن شاء الله .

وتعجبت سعاد ، من موضوع زواجها هذا ، فقال لها خالها مبتسما :

- "هو انت مش مصيرك تتجوزي ، والعريس عندي ، الدكتور طه طلب يدك مني في هــذا الخطاب ."

وسلمه لها ، وقرأت طلبه يدها من خالها ، وازداد عجبها أنه لم يفاتحها في هذا الأمر ، فسألها خالها رأيها ، فقالت :

- " لا .. الموضوع محتاج دراسة .. أنا كنت أتعامل معه على أنه الدكتور الأمريكي المتغطـــرس الذي يشرف على دراساتي ، خليني أنظر إليه باعتباره ابن خالي أولا ، ثم أنظر في مسألة الزواج دي .."

ثم أطرقت وقد استغرقت في تفكير عميق ، وتمتمت وهي تتذكر :

- " كنت أشعر بأن هناك من يرعاني من بعيد لبعيد ، مفيش مشكلة كانت تواجهني سواء كانت مع الجامعة ، أو غلاسات بعض الزملاء ، إلا وأجدها حلت بدون أي تدخل مني ، وكنـــت أشعر كما لو كان خالي يراقبني ويحرسني ويحميني ، فإذا تأخرت عن السكن ، أجد من ســأل عني دون أن يطلب مكالمتي ، وإذا قارب رصيدي بالبنك على النفاد ، أفاجأ في اليوم التـــالي مباشرة ، وقد أضيفت إليه مبالغ تكفي احتياجاتي وتزيد ، وإذا ألمت بي وعكة ، أجد ســـيارة قدمت لتقلني إلى الطبيب ، لقد كنت أشعر بشيء ما يشدني إليه بالرغم من كراهيـــتي لـــه ، وغضبي منه .."

وأطرقت مرة أخرى ..

- " إذا هو صاحب كل هذه المعجزات .."

وتعجب خالها قائلا :

- "أي معجزات يا بنتي ؟"

وسرحت بفكرها بعيدا وهي تتذكر :

• "لقد صادفتني مشاكل كثيرة ، وكنت أجد المنقذ في آخر لحظة ، عندما وصلت المطار ، وجدت سيارة في انتظاري يسوقها شاب مصري ، قال لي أنه أحد طلبة الدكتور طز .. آسفة .. أقصد الدكتور طه ، أوصلني بها إلى مساكن الجامعة وجنبني بذلك مشقة التفاهم مع سائق تاكسي ، حتى أن الشاب المصري الذي أوصلني كان يتعجب ، لماذا يطلب منه دكتور أمريكي أن يحضر طالبة مصرية من المطار ؟ وتصورت أن الطلبة المصريين نقلوا إلى أمريكا أساليبهم في التقرب من الأساتذة المشرفين على الدراسات بتقديم الخدمات ، حتى أن الشاب الذي التقطني من المطار ، هو الذي أطلعني على التسمية السخيفة التي كانوا ينعتونه بها ، وفي مساكن الجامعة لم يكن لي مكانا مع الطالبات ، وقرروا إقامتي في مساكن الطلبة مؤقتا ، وكانت الساعة منتصف الليل ، ولا يوجد مكان آخر أذهب إليه ، وقررت المبيت في بهو مساكن الطالبات ، وإنجليزيتي كانت ضعيفة ، ومشاكلي كثيرة ، وإذا بي أفاجأ بكل هذه المشاكل تحل دفعة واحدة ، وكأنما كان هو الذي مر من أمامي وسأل عن المشكلة ، وإذا به يأمر بإخلاء إحدى الغرف التي كانت مخصصة مخزنا في عنبر الطالبات ، ويتم تجهيزها فورا لمبيتي ، وفي اليوم التالي ، تم تجهيز غرفة مستقلة بحمام ، وكتب على بابها دكتورة سعاد الصقر ، فقد كانوا يظنونني طالبة جامعية ولست دراسات عليا ، لكن الصقر كتبت S وليست Z ، وفي اليوم التالي ، فوجئت بمن يصطحبني إلى رئيس قسم جراحة القلب حيث التخصص الذي اخترته ، وكأنما تحت ابتسامته التي تعبر عن الرضا ، أو أنني لم أفهم أنه يوجهها لي على أعرفه ، وذلك قبل أن يقرروه مشرفا على أبحاثي ، وليس مستبعدا أن يكون هو الذي سعى لهذا الترشيح دون أن أدري ، صحيح .. الدم عمره ما يبقى ميه .."

وكأنما لاقت هذه العبارة هوى في نفس الحاج ، فرددها مرات وهو ينظر إلى زوجته ، وهي تحاول أن تشيح بوجهها عنه ، لكنه كان كمن يتعمد أن يجعلها تراه وهو ينظر إليها ، وفجأة قالت له :

• " أنا ممكن أفرط في حقوق الناس كلها ، في حقوقي ، في حقوق بناتي ، إنما حقوقك انت لا وألف لا .. فلا ترغمني على قبول مجرد التفكير في عدم الذود عنها مادمت قادرة على ذلك ، فأرجوك يا حبيب الروح ، أن تعفيني مما يدور في خاطرك ، الفيلا .. لازم يتركوها ، وقبل يوم الخميس ، والأفندي ده لازم يعتذر لك ، واعتذار رسمي بخط اليد ، عن كل كلمة قالها في حقك ، أو كل تصرف فعله ضدك ، وأمام ابنه ومراته وبناته كمان ، ويا أنا يا هو .."

فنظر الرجل إلى منال ، وهز رأسه كأنما يعلن عجزه عن تغيير رأيها ، ومن الواضح أن البنت كانت كأمها ، فنظرت إلى أبيها بتحد ، وأعلنتها مدوية :

• " أنا صرفت نظر عن هذه الجوازة يا بابا .. ثم أنني لم أكن أفكر في الزواج أصلا ، لقد كان أمرا عارضا ، والحمد لله أنني عقلت قبل أن أقع فيها ، وأندم حيث لا ينفع الندم .."

ونظر إليها والدها معبرا عن استيائه مما قالت ، فهذا معناه أن كل المتزوجين مجانين ، فاحتضنته وهي تعتذر ، وأنها لم تكن تقصد ، وأنه لو كل الرجال مثله ، لما تعذبت النساء ، ولا يوجد مجال للمقارنة أصلا ، وظلت تردد هذه العبارات حتى أشعرها بهدوء نفسه ورضاه عنها ، والمسكينة لا تعرف أنه أراد أن يغير مجرى الحديث بنظرته المستاءة هذه ، لكنها ما زالت في شرودها وحزنها ، وهو أبدا لا يريدها إلا ضحوكة باسمة مشرقة كعادتها ، أخذ يلعن مدحت وابن مدحت مئات المرات في سره ، فهو لا يريد أن يشعر أحدا بمدى ضيقه مما حدث ، هو يستطيع أن يجتر غضبه بمعزل عن الجميع ، لأن العفو عند المقدرة هو الأساس الذي زرعه الإسلام في قلبه ، والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس هي أهم سماته إسلاميا أولا ، وتربية ونشأة ثانيا ، ويريد أن يعود بناته على ذلك ، بالرغم من معرفته بأن هذه الأمور لا وجود لها في مجتمعنا ، لكن الله قرر هذا وأمرنا به ، ومادام الأمر من الله ، فإن الطاعة واجبة ، ومادامت طاعة الله عبادة ، فإن الله ناصر من يعبده لوجهه حتى ولو كان العالم كله في ضلال . لكنه أخذ يفكر في شئ آخر يجذب به انتباهها ، وفي ذات الوقت يتعرف على حقيقة مشاعرها ، ففاجأها كما هي عادته :

• " لقد طلبك مني شاب أفضل ، وأجمل ، وأعقل ، وأميز ، وأثقف ، وحاجات كثيرة قوي ، إيه رأيك ؟"

وبسرعة فكرت الفتاة للهروب من هذا المأزق ، إن الرجل يحاول أن يعرف حقيقة مشاعر ابنته ، وهو وإن كان لا يكذب ، إلا أنه أراد أن يختبر بذلك الطلب مشاعرها ، حقيقة أن هذا الشاب طلبها منه ، لكنه رد عليه بسرعة بأنها مخطوبة لابن خالها ، ووالدتها هي التي ألحت إلى احتمال عدم إتمام الخطوبة لأسباب تعود للحاج نفسه ، لكن ما رأى العروسة ، أليس هذا هو الشرع ، وبعد فترة من التفكير الهادي ، صورتها منال باعتبارها لم تفهم قصد والدها ، قالت :

• " يا بابا يا حبيبي .. أنا لا أفكر في هذا الموضوع أصلا ، وحسام هذا كان شيئا عارضا والحمد لله أن الموضوع انتهى قبل أن تحدث أية خطوات إيجابية ، فلا داعي للتفكير في غيره قبل أن انتهي من دراستي .."

وقال الرجل بتريث :

• " وهي دراستك دي ، مش امتحاناها قربت وتخلصينا منها ، يبقى بقى الجواز لازم ، يعني إحنا مش حنخللكم ، لازم تتجوزوا علشان نفرح بأولادكم ، ونقدر نلاعبهم قبل ما نعجز .."

وضمت سعاد رأيها إلى رأى خالها ، فقد فهمت أن الرجل يلاعب ابنته ليعرف حقيقة مشاعرها ، فإن كان حسام ، يبقى لا أبوه ولا عمته لهم دخل بهذا الموضوع ، أما إذا كان الأمر غير ذلك ، فالعريس جاهز ، فقالت :

• " خالي عنده حق يا منال ، وأنا إن كنت تأخرت في الزواج حبتين ، لأن عريسي لم يكن في مصر ، وبالرغم من إننا كنا مع بعض في أمريكا ، لكن محدش فينا كان عارف إن الثاني نصيبه ، فإذا كان موضوع حسام انتهى كلية من قلبك ، فلا أقل من أن تفكري في العريس الجديد ، أنا شفته وهو نازل من هنا ، والحقيقة إنه شاب زى القمر ولا يوجد فيه شئ يعيبه ، يعني ياريت تفكري في الموضوع بجدية أكبر .."

فردت عليها منال بعصبية واضحة :

• " اتجوزيه ما دام عاجبك .. أنا لن أتزوج .."

وكان هذا إعلانا صريحا بأنها مازالت تحب حسام ، فلو كانت قد تخلصت من حبه ، لكان الرد شيئا آخرا ، على الأقل تعطي نفسها فرصة لتعيد التفكير في العريس الجديد ، وتبدي رأيها ، حتى ولو كان بالرفض ، لكن الرفض الفوري ، لابد وأنه يخفي أمرا آخر في نفسها ، ووجدت سعاد أن الأمر يحتاج إلى علاج نفسي ، فلو أن منال تحب حسام بهذه الصورة ، ومع معارضة والده ، ورفض والدها زواجها منه ، ما لم يعتذر والده لخالها اعتذارا رسميا ومكتوبا ، فإن منال لابد وأن تنسى حسام ، ومادام هناك عريس آخر موجود ، ولا يوجد ما يمنع جوازها منه سوى حبها لحسام ، فلا بد وأن تنسى حسام ، والامتحانات على الأبواب ، وقد ضاع وقت ليس بالقليل في معالجة موضوع منى ، والأمور متشابكة بصورة تعجز المرء عن التفكير ، ولا بد لها من أن

تساعد خالها ، وأي مساعدة تكون ما لم تساعده في حل مشاكل بناته ، على الأقل هـن في سـن متقارب ، والمشاعر تكاد تكون واحدة ، فليس أمامها إلا أن تخرج هؤلاء البنات من هـذا الجـو الخانق ، ثم أنها لم تأخذ على زوجة خالها كل هذا الحزن ، لكنها تلمست لها العذر ، فهي محقـة في عدائها لأخيها ، لقد اصبح عداءا ظاهرا وواضحا للجميع ، فقد أصبحت لا تريـد أن تسـمع سيرتهم ، ولا تريد أن ترى أحدا منهم ، ولا تريد لابنتها هذا الحب ، وقد تعهدت على نفسـها أن تقطع صلتها بمنال إذا تزوجت حسام ، وحاولت سعاد أن تريها أن ما فعله مدحت معها عندمـا تزوجت خالها ، ليس ببعيد ، لكن السيدة الفاضلة أوضحت الصورة لسعاد ، قالت :

• " مدحت كان رافضا ما قبله أبي ، لكن منال تريد ما رفضته أنا .."

وحاجتها سعاد :

• " لكن خالي موافق .."

وقالت السيدة برجاحة عقل :

• " أو ظننتي أن خالك كان يساعد أخي علشان سواد عينيه ، إنه يساعده من أجل خاطري أنا ، يعني لو لم يكن مدحت أخي كان خالك ساعده كل هذه المساعدات ..!"

وحاجتها سعاد مرة أخرى :

• " وهل شوق كانت أختك ؟ حتى يساعدها خالي تلك المساعدات التي مازالت السيدة تذكرها له بكل الخير وبكل الاعتراف بالجميل ، حتى ليظنها الجاهل محبة منها له ."

واحتارت السيدة جميلة ، بماذا تقنع فتاة أمريكا هذه ، قالت لها :

• " لقد وضحت الصورة أمامك ، مازالت تعترف بهذا الجميل حتى الآن ، لكن أخي لعنـة الله عليه ، لا يعترف بالجميل ، هل يظن هذا السكير ، أن الحاج مكلف برعايته ورعاية عائلته لأنه أخي ، هل يظن هذا التلفان ، أن الحاج كتب عليه أن يكون في خدمة جميـع آل الأنـاضولي علشان خاطر عيوني .."

وقاطعتها سعاد :

• " وأنا على يقين من أن خالي لا يفعل ما يفعله إلا من أجل خاطر هذه العيون الـتي أذابتـه في حبك ، متعك الله بهما ، روقيها حبتين يا حاجة جميلة ، ولا تقطفي فرحة البنية بأول خفقة قلب لها .."

وردت عليها السيدة جميلة ، وقد ابتسمت لما قالته سعاد ، فقد أسعدتها بالكلمات الجميلة الـتي عبرت بها عن حبها لها ولخالها ولبنات خالها :

• " انت مش حتبطلي شقاوتك دي ، شوفي يا سعاد ، إذا لم يعتذر هذا التلفان ناكر الجميـل ، لزوجي أمام الجميع ، أنا وبناتي ، وحسام وأختيه وأمه ، فلن أقبل بزواج منال من حسام ، حتى ولو انطبقت السماء على الأرض .."

وقالت سعاد وكأنها مغلوبة على أمرها :

• " كنت أظن أن عائلتنا فقط هي الصعيدية .."

وقهقهت الحاجة جميلة ، حتى لكأن قهقهتها جمعت العائلة حولهما :

• " جزاك الله خيرا يا سعاد ، لقد قالها خالك لي كثيرا ، ربما للعشرة أثرها ، فأنـا لا أفكـر إلا بفكره ، ولا أتحدث إلا بلسانه ، ولا تحلو لي الحياة إلا به ، فهل تستكثرين على عقلي أن يكون في مثل صلابة عقله .."

واستغلتها سعاد فرصة ، والسيدة لأول مرة تضحك منذ هذا الحادث الشنيع ، وقالت :

• " آه يا خالي ، تتهمك بأن عقلك صلب ، شفت بقى .."

فضحك الرجل وهو يحتضن زوجته ، وقال :

• " إيه رأيكم يا بنات نروح العزبة بتاعتنا .. مش برضه كلهم بيقولوا عزبة ، اللي عنده كـام فدان بيسميهم عزبة ، واحنا والحمد لله خير ربنا كثير قوي .."

وقاطعته بناته :

• " ياريت يا بابا ، إحنا عمرنا ما شفنا الأرض بتاعتنا ، نفسنا نمضي أسبوع أو أكثر هناك .."

بينما قالت مهجة :

- " نفسي أركب الحصان ، وأحلب الجاموسة ، وألعب مع الخرفان والمعيز ، وأجمـــع البيـــض ، وأجري كده وسط الزرع ، وأتمرمغ فيه ، وأتقلب ، وأشبع من الخضرة وجمالها .."

ومنال صامته ، لم تتحدث ، ولم تشترك في أي من المناقشات الدائرة ، لكن أباها يعرف ماذا تحب ، فقال :

- " أما منال ، فلها عندي مفاجأة لن تخطر لها على بال ، طبعا انت نفسك تنزلي المية ، أنا يا ستي عامل لكم حمام سباحة خصوصي ، يعني لا أحد يراكم ، ولا ترون أحدا ، تشبعي فيها هوايتك التي انقطعت عنها منذ أن بلغ عمرك العاشرة ، وسوف أرتب الأمر بمجرد سفرنا .."

وتعللت منال بالمذاكرة والامتحانات ، لكن والدها أعلن أهن في إجازة المذاكـــرة ، والمذاكـــرة ستكون هناك ، وهضت سعاد سريعا ترتب ملابسها وما تحتاجه للبقاء هناك مدة ، ربما تطول عـــن تلك التي سيقضيها خالها وعائلته ، فهي لم تر والدها واخوها وأخواها منذ أن عادت إلى مصـــر ، وسوف تقضي معهم وقتا قد يطول حتى بداية الامتحانات في كلية الطب ، لذلك كانت ســـعيدة بقرار خالها ، بالرغم من أنها تعلم أن قراره هذا من أجلها ، فقد ألحت في أكثر من مناسبة أنها تريد أن ترى اسرها ، لكن خالها كان يرجئ الأمر ، فإن مشاكله تأتي متتالية ، لم ينتهوا من موضوع مني ، حتى ظهر لهم موضوع منال ، وما بين الاثنتين ، سفر إلى الإسكندرية لإنها ء إجراءات الســـيارة أولا ، ثم إنهاء إجراءات معدات المستشفى ، يعني تعب دائم ، ونهاية الأسبوع باكر ، والســـفر إلى الأراضي الزراعية خير ما يمكن أن يفعلوه .

اقتربوا من العزبة ، فظهرت الخضرة أمامهم من كل جانب ، وووصلوا إلى الأعناب التي تتـــدلى بالعناقيد كأنها جواهر تنعكس عليها أشعة الشمس عند الشروق فتنعكس على نثرات الندى الــتي تكسو حباتها فتتلألأ كأنها جواهر مختلفة الألوان ، والتفاح كأنه نقط يغلب عليهااللون الأحمـــر في مساحة الخضرة تنادي محبي الجمال ، وتتحدى أي فنان أن يضاهي قدرة الخلاق ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، لم يكن قد انعقد له لونه الأخير أحمر أم أصفر ، لكن تراصه في أســـبطته يتـــدلى كأنـــه الثريا ، أو رجمة نجوم تتهادى فوق البشر ، وباقي الأشجار ، كل تستعرض ما حباها الله بها من إنتاج وجمال ، لا يفهم لغتها إلا من يسر الله له فهمها ، ولا يكون ذلك إلا لذاكري فضلـــه ، شاكري نعمه .

بعد السلامات الحارة والقبلات والأحضان التي يلتقي بها الأحباب ، ذهبت مهجة مع قريباتهـــا اللاتي تقربنها سنا إلى حيث الدجاج ، كانت أمنيتها أن ترى أين يضع الدجاج بيضه ، هي لم تـــر ذلك إلا في الأفلام القديمة ، أما الأفلام الحديثة فإنها قلما تعرض المزارع إلا من خلال جرائم ، أو تصرفات جشع غير مقبول ، ربما لأن أصحاب هذه المزارع يخافون عليها الحسد ، أو أن إظـــهار هذه المزارع في وسائل الإعلام ، تعتبر نوعا من الدعاية ، لابد وأن تكون بمقابل ، أو أن ذلـــك سيفتح شهية رجال الضرائب عليهم ، فيلتهمون ما يلتهمونه هم من الناس الغلابة في مصر ، ومـــا أكثرهم ، على كل فقد ذهلت مهجة ، لم تكن تتصور أن حظائر الدجاج بهذه الضخامـــة وهـــذا الترتيب ، فالدجاج يضع بيضه ، حيث يتم التقاطه في مكان يبعد عشرات الأمتار ، ويوضـــع في أطباقه الكرتون ، ثم في صناديق كرتون ، وفي سيارات نقل ، إلى المدينة للبيع عند التجار ، حـــتى لكأن ما توقعته متعة وتسلية ، لم تجد لنفسها مكانا فيه ، فأرادت أن تجرب حظـــها مـــع حلـــب الجاموسة ، وسارت تتهادى مع قريباتها وهن يغنين أغنية طيب الذكر الفنان سيد درويش " طلعت ياما أحلى نورها شمس الشموسة ، يا الله بنا نملأ ونحلب لبن الجاموسة " ، ففوجئـــت بـــأن هـــذه التسمية لا وجود لها ، يوجد بقر بأسماء أجنبية ، ينطقها أي من العاملين في عنبر المواشي ، جهلـــة كانوا أو متعلمين ، وأن حلب الأبقار يتم وفقا لنظام دقيق يحكمه الحاسب الآلي ، وتدخل الأبقـــار واحدة تلو الأخرى وفقا لترتيب ونظام ، فيضع العامل المدرب الحلابات ، وتقف البقرة حتى يتـــم خلع الحلابات منها ، فتخرج لتأتي غيرها وهكذا ، وقسط اللبن الذي تعودت على رؤيته في الأفلام القديمة ، ما عاد له وجود ، وتذكرت أنهم لا يرون الحليب الآن إلا في الأسواق العامـــة أو عنـــد

البقالين ، في علب كرتون أو في الأكياس التي يعبئها البقال من إناء كبير ، قد يكون مبردا وصحيا ، وقد لا يكون ، فضاعت كل أحلامها ولم يبقى منها إلا الخضرة التي أرادت أن تتقلب عليها كما تراهم في الأفلام الهندية ، التي يعجب المرء بها ، ويتعجب من أمرهم ، خضرة تظهرها أفلامهم كما لو كانت البلاد كلها خضرة ، بينما المجاعات تعم أكثر قراها ، فلم تجد المسكينة إلا أشجارا للفاكهة ، وخطوطا للزراعات وقد وضعت أنابيب المياه للري بالتنقيط أسفلها ، ولم يسعفها إلا عشرات الأفدنة التي زرعت أنواعا من الخضرة لتغذية الحيوانات ، فأرادت أن تلقي بنفسها فيها ، فوجدت رشاشات المياه وقد غطتها ، فما بقي لها إلا أن تلعب الألعاب التي يلعبونها هناك ، وأدخلت هي عليهن بعضا من ألعاب مدرستها ، ووجدت الألعاب الرياضية مثل طاولة اليد والكرة الطائرة وغيرها . فقد حرص الحاج على تزويد المنطقة بكل الوسائل اللازمة لبناء الجسم والعقل ، فغالبية الموجودين هم أهله ، اخوته وأخواته وعماته وأرامل أعمامه ، وبعض أهل بلدته ممن توسطوا عنده للعمل ، وآخرين وجد أن أفضل وسيلة لمساعدتهم أن يعملوا في فلاحة الأرض ، فهو لا يساعد قادر على العمل ، ولكن يعمل جهده أن يلحقه بعمل مناسب يدر دخلا مناسبا له ولأسرته ، وحتى يحين ذلك ، تكون المساعدة واجبة . لكن الأب الحريص على سعادة بناته ، سألها نظرتها الحزينة ، ولما عرف السبب ، أخذها سريعا إلى الفيلا التي بناها لهم ، وأحاطها بحديقة وارفة الظلال ، تملأها الخضرة من كل مكان ، وقال لها :

- " ها هي الخضرة التي ترغبينها ، تمتعي ما شاء لك التمتع ، أما عن الجاموسة ، فقد حرصت على تربية مجموعة من الماعز ، معظمها حلوب ، وسوف تعلمك رتيبة كيف تحلبينها ، وستكون لك ، ملكك ، أطعميها من يدك ، وراعيها بنفسك ، وكذلك لدينا دجاجنا الخاص الذي يبيض لاستهلاكنا ، اذهبي واجمعي البيض ما شاء لك ذلك ، ولا تحزني يا حبيبتي ، ما رأيك ..؟"

فاحتضنته وأخذت في تقبيله شاكرة له حبه لها ، أما الدكتورة سعاد فقد توجهت من فورها إلى والدها واخوتها وأخواتها والخالات والأخوال وأولادهن وبناتهن جميعا ، احتضنتهم وأعطتهم الهدايا التي أحضرتها لهم معها ، وأخذت تحكي وتقص وهن يقصصن ، ظنا منها أن الكلام معهن له نهاية ، لكنها كانت سعيدة بهذه الدردشة التي أعادت لها ما نسيته من عادات ، جعلتها تحيط بكل شئ منذ أن تركتهم ، حتى عادت إليهم ، ثم توجهت مباشرة إلى العيادة الطبية ، لتتأكد من الرعاية الطبية لجميع الموجودين في المزرعة ، وأخذت معها منى ومنال ، ورتبت كشفا عاما للجميع بداية من

اليوم التالي ، وهكذا لم تجد منى أو منال وقتا للتفكير في الحب أو الزواج ، إلا عندما تنتهي وردية الدكتورة سعاد ، وتنتهي وردية المذاكرة .

كان الحاج محمد يغيب عن العائلة قليلا ، لينهي بعض الأمور الهامة ، ويعود سريعا ليرى ويسعد بالفرحة في أعين الجميع ، إلا منال ، كانت فرحتها دائما يكسوها حزن غير واضح ، أو لعلها تستكثر على نفسها أن تفرح بما تراه عيناها ، بينما ما في قلبها شجن عميق ، فيداعبها الرجل بأن يحاول مسابقتها مع الباقين ، أو يلفت نظرها إلى أمر من الأمور الذي يعرف أنه يعجبها ، ثم نادى البنات إلى حمام السباحة :

- " هيا أيتها البنات إلى حمام السباحة ، لقد تم إصلاحه ، وأصبح الآن في قمة استعداده لاستقبالكن .. "

وهناك فقط ، نسيت منال حزنها ، وكأنما من قال أن ثلاث يذهبن الحزن لم يكذب ، فقد تفنن الحاج محمد في وضع حمام السباحة ، بحيث تحيطه الخضرة من كل مكان ، فلا يستطيع متلصص أن يخترق جدارها ، ويرى ما وراءها ، وزيادة في الحيطة ، فقد تحوطه بستائر من قماش الخيام ، شدت من أعلى ومن أسفل ، فلا يسهل تحريكها ، وفي هذا الحصن ، نزلت الفتيات يتقاذفن المياه ، ويسبحن ، وكانت منال من المتسابقات الماهرات ، لذلك كان الأمر بالنسبة لها تمرينا جميلا واستعادة لما نسيته من أمور السباحة ، فأخذت الحمام جيئة وذهابا ، ثم شاركت الباقيات في لهوهن ، ثم نظمت لهن مسابقات في السباحة والقفز من السلم المتحرك والغطس ، جميع أنواع رياضة الماء ، تمرن وتسابق ، حتى حان موعد الغداء ، وحدِّث عن الشهية حيث كانت على استعداد لالتهام كل ما على المائدة من أصناف الطعام ، من خيرات الله التي جاد بها على هؤلاء الناس من أرضهم ، تلك الأرض التي أخذت من التعب والعرق والجهد ، أضعاف ما يمكن أن يقال أو يكتب ، حتى كتب الله لها النجاح ، وأصبح العطاء أكثر كثيرا مما بذل من جهد ، وأصبح العائد ، أكثر كثيرا مما دفع من أموال ، بدأت منذ أكثر من عشرين سنة ، وما زالت تعطي بدون كلل ، فقط الرعاية الدائمة والاهتمام المتواصل .

وسعد الأب أيما سعادة ، عندما رأى منال وهي تتخاطف الطعام مع أخواتها بسعادة وابتسام ، وكأنهن يتعمدن ذلك ليضحكن ، فقد أصبح الضحك هو الهدف ، ولماذا لا ، فإنه ينشط كل العضلات ، وقبل ذلك كله ، فإنه يغسل الهموم ، فلماذا لا يضحكن ، ولعل مع كثرة الخضرة ،

يكثر الأكسجين الهام للإنسان ، إذ كلما قلت نسبة الأكسجين في الجو ، أصاب الناس نوع من الاكتئاب وعدم التحمل وسرعة الإرهاق ، وهذا ما حدث مع زحف العمران على الأراضي الزراعية في كثير من مدن مصر ، فضاقت المساحات الخضراء ، وضاقت الأرزاق ، ومن ثم ضاقت الأخلاق .

وانضم إليهن جميع أفراد عائلة الصقر ، وتعرفت الفتيات على جميع أولاد وبنات عمومتهن وعماقمن ، فقد فصل بينهم زمن طويل ، منذ أن باع الحاج الأرض والفيلا والجناح ، واشترى بالثمن تلك الأرض إضافة إلى الأرض التي كان قد اشتراها أباه عندما قتل جده ، إنها عائلة كبيرة ، لا تحاول أن تعدهم حتى لا تحسدهم ، كلهم في ملابس العمل ، وما أن انتهى الطعام ، حتى أوى كل منهم إلى غرفته يذاكر ، فما كان من بنات الحاج محمد إلا أن دخلن هن أيضا إلى غرفهن للمذاكرة . كان درسا عمليا لبنات الحاج محمد ، أن أولاد وبنات العمومة في جهد دائم ، تماما مثل أبوهن في صغره هو واخوته وأخواته ، دراسة وعمل ، في بناء البيت أولا ، وتربية وتدريب الكلاب ، والتدريس لأبناء وبنات الأثرياء ، وباقي الاخوة والأخوات في زراعة الأرض ، وحلب الجاموس ، ورعاية الدواجن ، وهو معهم ، جهد دائم ، وحياة جميلة ، لا وقت لحب أو كراهية ، ولا شئ سوى الدراسة والعمل والرياضة ، والنجاح هو الهدف ، النجاح في كل شئ ، في الدراسة ، وفي أي عمل يقوم به أي منهم ، حتى الرياضة ، لم يكن يزاولها أحدهم ، إلا ويحرز فيها نتائج مبهرة ، قد تصل إلى البطولات ، وعلى سبيل المثال ، لقد كان طه بطلا في الملاكمة ، ولعل هذا من الأسباب الهامة التي عجلت له بالحصول على الجنسية الأمريكية ، فقد التحق بالفريق في الجامعة ، وأحرز بطولات غير عادية ، حتى أن الجامعات كلها كانت تتمناه عضوا اهما
أما عن عمل السيدات ، فقد كان من الممنوعات أيام والده ، وسيظل كذلك من بعد والده ، إلا في الحدود ، تدريس للفتيات ، أو تطبيب للنساء وفقط ، أما أن تجالس غرباء ، موظفين كانوا أو غير ذلك ، فالمثل الذي يقول " أحر الرجال بعد النساء عنهم ، وأحر النساء بعد الرجال عنهم " وثيقة من الوثائق التي لا ينتهي لها موعد ، لا بالقرن العشرين أو الواحد والعشرين ، أو حتى القرن المليون ، ويكفي ما نراه دوما من جرائم تنقلها لنا وسائل الإعلام المرئي والمسموع والمقروء ، حقيقة أنه ولله الحمد ، نصيبنا من هذه الجرائم مهما بلغ ، فلن يكون في مثل نسبته في الدول المتقدمة ، متقدمة في كل شئ ، إلا في الجوانب الإنسانية ، ويتفنن ذوي النفوس الضعيفة في زيادة جرعات الفساد في وسائلهم التي تبث لنا عبر اللعنة الجديدة التي أسموها أقمارا . كلنا

يعرف القمـــر الذي خلقه الله ، يأتي إلينا بالضياء ، لكن أقمارهم لا تأتي إلا بالفساد في كل شئ ، فهي إما للتجسس ، فتأتي بالخراب في الحروب ، أو غير الحروب ، وإما للإعلام والتسلية ، فتـــأتي بالفساد في الأخلاق ، لكن لا يمكننا تعميم الفساد على هذه الوسائل الحديثة ، فـــإن في بعضـــها الكثير من المصالح والعلم والاتصالات ، والله من وراء القصد .

وتصادف وجود السيدة شوق وابنها إسماعيل وخلف ، كانوا يتسوقون البطاطس في المنطقـــة ، وكم كانت سعادتهم عندما قابلوا الحاج وعائلته ، وكانت فرصة جيدة أن يتعامل إسماعيل مع منال وجها لوجه ، لعبا سويا تنس طاولة ، وتسابقا جريا مع باقي الشباب والفتيات ، حتى أن الســـيدة شوق والسيدة جميلة شاركتا في هذه السباقات ، ولكن بحسب قدراتهما ، أما الحاج بسم الله مـــا شاء الله ، فقد أثبت أن الدهن في العتاقي ، تسابق وسبق ، وكانت السخرية من الشباب الذين لم يتمكنوا من اللحاق بالرجل الكهل ، لكنه تفاخر عليهم بفحولته ، فهو لم يصل بعد إلى الكهولـــة المبطلة للأنشطة الرياضية ، هو رياضي أصلا ، وهوايته الركض والمشي ، ولم ينته من هذه الرياضة حتى تلك اللحظة ، وبدأ إسماعيل ينجذب نحو منال ، وبدأت منال تتقبل إسماعيل ، فقد كان سريع البديهة ، كثير القفشات ، لديه كم من النكت الخفيفة المهذبة ، ربما لو استمر يومين كاملين لمـــا انتهت ، ثم عرج على حكاياته في فرنسا ، وكم كان مبهرا ، لم يترك شاردة ولا واردة لم يتحـــدث عنها ، كان يريدها أن تتحدث بانطلاقته ، لكنه عجز تماما ، فاكتفى بأنهـــا شـــاركت بالابتســـام الـــذي كان يعلو صوته أحيانا ، وعندما حاجته في أمور الدين ، خجل من نفسه ، فقد كان صفر اليدين ، لكنه أقسم أنه يصلي ويصوم ، ولم يترك فرضا من الفروض منذ أن بلغ السادسة ، عندما تعهده الحاج بالتنشئة الدينية تساعده في ذلك والدته ، أما عن الصدقات ، فحدث ، فقد تلقن أول درس في الإيثار من عمه الحاج محمد ، ذلك الرجل الذي آثرهما على عائلته ، فخصهما بالرعايـــة والاهتمام عندما لم يجدا ذلك من أقرب المقربين ، فكيف له أن يرى مســـكينا أو بائســـا دون أن يعطف عليه أو يعطيه مما أفاء الله عليه ، كان مقبولا بدرجة فوق العادة ، لم تجد أحدا من العائلـــة لم يتمنى لها أن تتزوجه ، وهي تسمع ، وعقلها يتقبل ، لكن ماذا تفعل مع قلبها ، لا تســـتطيع أن تتحكم فيه ، فما زال ذلك المتأنق في بدلة الشرطة ، ينفـــث ســـيجارته الأجنبيـــة بشـــيء مـــن الأرستقراطية ، ويتحدث بلغة كثيرا ما يصعب عليهم فهمها ، لأن فيها من مصطلحات القـــانون والتعامل مع المجرمين أكثر مما فيها من كلام البشر ، لكنها لغة تعشقها ، قد يكون إسماعيل أكـــثر وسامة منه ، لكنه عندها لا يتفوق أحد على حسام في شئ ، فهو الأوسم ، وهو الأفضل ، وكانت

سعاد تلاحظ شرودها بين الحين والحين ، فتحاول أن تشعرها بوجودها معهم قائلة " نحن هنـــا .." فتبتسم ابتسامة خفيفة ، وتعود ثانية إلى شرودها ، وحاول إسماعيل أن يخرجها من هذا الشـــرود ، لكنها كانت تعلله بقرب الامتحانات ، وأن الصيدلة تحتاج إلى حفظ ، وهي تخشى أن تنسى مــــا سبق أن درسته ، فلا بد وأن تردده بين الحين والحين ، كان تبريرا مقبولا إلى حد ما ، لكن مــــن جرب الحب وعانى صبابته ، لا يخفى عليه مثل هذه الأمور ، كان يرقبها ، وكأنه يلاحقها بعينيــه ، لا أمل إلا حسام ، لا إسماعيل ولا غيره ، وأيقن في نفسه أن يحاول للأزمة أن تمر ، وعندما يحيـث الحيث ، لا يصح إلا الصحيح ، وحسام وإسماعيل بالنسبة له لا فرق بينهما ، لكن حســـام يعـــني بالنسبة له عائلة والدها ، وهو يريد لهذه العائلة أن تندمج ، وما حدث يُعتبر درســـا للجميـــع ، فالعطاء له حدود ، والمنع لا يكون بالتجريح ، والكبر مرفوض كلية حتى لو كان من أعلى خلـــق الله مهما كانت مكانته .

وتذكر الرجل طه ، ذلك القادم من أمريكا ، إنه في انتظار برقيته أو تليفونه ، وما أن نادت عليه زوجة أخيه زليخه ، والدة طه ، حتى أسرع إليها ملبيا ، قالت له أنه قادم خلال أســـبوع ، يالهـــا مـــن مفاجأة سعيدة ، أحد ثماره التي غرسها مبكرا وأعطت ثمارها مبكرا ، عائد إلى أرض الوطن .

- " هيا أيتها البنات ، هيا يا جميلة ، طه قادم .."

كان يقولها وهو يطير من السعادة والفرح ، ويرددها وكأن الجـــدران تســـتجيب لســـعادته ، وخرجن جميعهن ، واصطحب أخاه وزوجته زليخه أيضاً ، وكان وداعا مؤثرا حقا ، فالأيام القليلة التي قضينها هناك ، لن تُنْسى أبدا ، والوجوه التي تعرفن بها من أقاربهن ، وجوها طيبة جميلة رقيقة ، كلها عذوبة ونقاء ، بعيدين عن تلوث البيئة ، وتلوث الأخلاق ، كلهم عائلة واحـــدة ، حـــتى أولئك الذين قدموا من خارج العائلة ، أصبحوا منهم ، أمر أيهم يهم الجميع ، حتى الشيخ الضرير الذي كان يؤم المصلين في المسجد ، زوجه الحاج إلى رتيبة والدة خلف ، فقد كـــانت الســـيدة وحيدة ، خاصة بعد أن ازداد انشغال السيدة شوق ، وسفر إسماعيل للدراسة بفرنســـا . وأولاد الاخوة والأخوات ، كل يعرف عروسه ، هكذا قدر الله أن الخيارات كانت تتم ، والتوفيق كـــان يحدث ، ولا بوليس ولا محاكم ولا خصومات ، مهما بلغت الأمور ، فإن الحل موجود ، إما بمـــا يقضي به الحاج ، وهو يتحمل التكاليف دائما ، وإما مجلس من الكبار ، والحكم يســـري علـــى الجميع ، ببساطة ما يحدث في أحكام مجالس العرب ، والمدارس موجودة على بعـــد أمتـــار مـــن

المنطقة ، يحملهم باص أو أكثر كل إلى مدرسته ، ويعود في مواعيد محددة ، والجامعات كذلك ، كل شئ له حسابه وحدوده ، لم يترك الحاج شيئا دون أن يخطط له وينفذه .

وعادوا .. من هدوء الجنة إلى أبواق وصراخ المدينة ،ومن الهواء النقي العليل إلى الدخان من السيارات ومداخن المصانع وحريق النفايات ، ومن الخضرة على مدى أبعد كثيرا من حدود البصر إلى أعمدة من الخرسانة المزخرفة التي تسد عين الشمس ، عادوا من المساحات الواسعة بلا بشر إلى زحمة المدينة ، وزحمة العمل ، وفي الطريق كان يقص على بناته وزوجته التي تعرف كل ما يقول ، فقد كانت معه في كل الخطوات ، من هو الدكتور طه ، ماذا كانت درجاته العلمية ، وماذا كانت بطولاته الرياضية ، وماذا كانت عبادته وصلاته وصيامه ، وماذا كانت أخلاقه وعلاقاته ، وماذا كانت طاعته لوالديه وله ، وماذا كان عطفه على اخوته وأخواته ، وأبناء أعمامه وعماته ، كأن الدكتور طه هذا أسطورة من الأساطير التي لم يخلق الله له مثيلا ، لكن الرجل كان صادقا في كل ما يقول ، فما اشتكى منه أحد ، وما عانى منه أحد ، ولا طلب أحد منه شيئا وورده مخذولا ، ولا وجد بائسا إلا وحاول أن يسعده ، ولا بخل بما معه من مال على فقير ، وإن كان معه طعام ، يتقاسمه ، كان كريما فيما يجب أن يكون فيه الكرم وزيادة ، لم يهتم بالتمحيص فيمن يستحق إلا عندما اكتشف أن بعض الذين يملكون ، يتحايلون عليه باصطناع الفقر والحاجة ، فأوقفهم عند حدهم ، ولم يتعلم الملاكمة ، إلا عندما وجد البعض يضايقون ابنة عمته سعاد ، ولما حاول الدفاع عنها ، أصابته بعض الإصابات التي كان من الممكن أن تكون قاتله ، لولا ما تعلمه من فنون التحطيب ، وكيف يتفادى الضربات المفاجئة ، وبعد تعلمه الملاكمة ، ما كان يستطيع أي متطفل أن يقترب من أي من أخواته أو بنات عمومته ، حتى لكأن من كان يفكر في الاقتراب منهن ، يذكره من يذكره بمن هو قريبهن ، كان رمزا يرعب كل من تسول له نفسه أن يقدم على ما كان يعتبره الشباب في تلك الأيام موضة ، موضة أن يغازل الشاب جارته أو زميلته ، وشطارة من يستطيع أن يوقع في شراكه أكبر عدد ممكن من الفتيات ، ولم يقتصر الأمر على الشباب الذي كان يتباهى بما يفعله ، بل إن بعض الفتيات كن كذلك ، لكنهن قليلات ، فصدق الرسول صلى الله عليه وسلم " الخير في وفي أمتي إلى يوم الساعة " ، غيرهن كثيرات من بيوت تعرف العفة وتعرف الأخلاق .

إذا طه كان يحب سعاد منذ الطفولة ، لكن كيف لم تعرفه سعاد في أمريكا ، هل الفارق بينـــهما بهذا البعد ، لقد ترك مصرا عندما كانت سعاد في بداية المرحلة الثانوية ، وما غاب عنـــها ســـوي سنوات قليلة ، هل هذه المدة كفيلة بأن تنسيها شكله ، أو لعل المقدمة التي تطوع بها الشاب الذي أوصلها من المطار إلى الجامعة في أمريكا ، ما كانت لتجعلها تفكر بأنه من الممكن أن تكون هـــذه صفات ابن خالها بأي صورة من الصور ، فأين هو ابن خالها بكل ما سبق من صفات مـــع هـــذا الأمريكي المتغطرس ، لذلك لم يذهب تفكيرها للتمعن فيما إذا كان هو ابـــن خالهـــا طـــه أم لا ، بالجنسية الأمريكية التي اكتسبها ، ومصريته التي أخفاها ، ثم أنها كانت تعرف أنه في جامعة أخرى غير هذه الجامعة في ولاية أخرى غير هذه الولاية ، ولم تكن تعرف أنه نقل حديثا إلى هذه الجامعة ، وما كان من الممكن أن تقف أمامه لتصوره صورة تنطبع في ذاكرتها ، لكي تطابق بينها وبين صورة طه منذ أكثر من عشر سنوات ، وما كانت لتسأل عن مكانه أو أين هو ، فقد كان الاتفاق مـــع العم على عدم ذكر من يكون ، ربما لأنه كان يتوقع أن تعرفه دون أن يقدم لها نفسه ، لكنـــها لم تتعرف عليه ، فاستمر في معاملته لها كأي طالبة ، لكنه لم يقصر معها منذ اللحظة التي وضعت فيها أولى خطواتها في أمريكا . لكن .. هل كانت سعاد تحبه منذ الطفولة ؟ ربما .. ولكن مع البعـــد ، وطول المدة ومراحل النضج ، والاهتمام بالدراسة ، ضاع كل ما يمكن أن تفكر فيه حبا كـــان أو لهوا ، الدراسة أهم ، والتفوق أكثر أهمية ، وتلك تحديات لا تترك للفتاة وقتا للحب .

لم تنس سعاد أن تحضر معها جميع الصور التي يظهر فيها الدكتور طه ، أعطتها لها والدته زوجـــة خالها ، وهي قريبتهم أيضا ، ساعدت في تربيتها ، والاهتمام بها ، فقد تم الاتفاق على زواجها مـــن طه منذ الصغر ، ووالدها قبل وفاته هو الذي قرأ الفاتحة مع أخوالها ، كانت تقول لها كلما رأتها في ذهاب أو إياب "يا مرات ابني" وعندما رأتها أخذتها بالأحضان ، وهي ما زالـــت تـــردد " أهـــلا بالعزيزة الغالية مرات الغالي " كذلك فعل خالها ، والد طه ، ولم يبخلا عليها بشيء ، كل طلباتهـــا مجابة ، وفي طريقهم إلى القاهرة ، أصرت سعاد على أن يكونا ووالدتها معها في السيارة ، وجعلتهما يقصان عليها المزيد من الحكايات عن طه ، فهي تريد أن تعرف عنه كل شئ ، وهما لم يبخلا عليها ، قالا لها كل ما تريد أن تعرفه عنه ، منذ أن سافر إلى أمريكا وحتى تلك اللحظـــة ، وزادا علـــى ذلك بأن سلماها الخطابات التي كان يرسلها لهما ، والتي لا يخلو خطاب منهم دون ذكر أخبارهـــا في أمريكا ، وشوقه لها الذي لا يستطيع أن يبثه إياها لاعتبارات العنصرية الموجودة بالجامعة ، فـــهو يخشى أن يعزى تميزها الذي يخططه لها إلى قرابته بها ، فضلا عن أنه لا يريـــد أن يســـتغلها أحـــد

خصومه من ذوي الميول العنصرية في أمور لا يدريها ، أما والده ، فقد كان لها والدا بعد أن انتقل أبوها إلى رحمة الله ، ويصر على ترديد عبارة "زوجة ابني" في كلامه معها ، وكأنما ليركز هذه الكنية في عقلها ، فتتقبلها ولا تقبل بغيرها ، وتعجبت سعاد ، الجميع يصرون على أنها زوجة طه ، الأخوال والخالات وباقي الأهل جميعا ، حتى لكأنها بدأت ترفض أسلوب الأمر الواقع الذي يحاولون فرضه عليها ، وكأنما هي مؤامرة ، لكن عقلها يرفض أن تتم الزيجات بهذا الأسلوب ، هي تريد أن تشعر به أولا ، ثم تتقبله ، ثم تحبه ، أو تترك الحب لما بعد الزواج ، لكن المهم أن تتقبله ، ومادام قلبها لا يشغله أحد ، ومادام طه مناسبا من جميع الوجوه ، فهو إلى حد كبير مقبول ، بقي أن تشعر به ، وهذا لا يتم إلا بترع الأفكار البغيضة التي ركزتها فيها معاملته القاسية لهم في أمريكا ، لكنها أعادت شريط الذكريات ، وتبينت أنه كان يميزها في المعاملة ، فلم يحدث أن ثار في وجهها مثلما هو مع الطلبة ، لكن هل كان يثور مع الطالبات ؟ وتبينت أنه كثيرا ما ثار في وجه طالبات من بنات العم سام ، وخاصة هؤلاء اللاتي كن يحاولن إثارة مشاعره ، وتأكد لها أنه كان لا يتقبل مثل هذه التصرفات ، وتساءلت .. ربما هو يثور عليهن في حضورها ، فماذا قبل سفرها ؟ بل وماذا في غير حضورها ؟ هل كان يتقبل منهن مثل هذه التصرفات ؟ وتذكرت أنها سألت إحدى بنات العم سام عن سبب إحدى ثوراته ، فأسهبت الفتاة في وصف مشاعرها نحوه ، وتغزلت فيه ما شاء لها من كلمات غزل كأنها الشعر ، وكأنما معاملته الجافة معها هي كما المثل المصري "ضرب الحبيب زى أكل الزبيب" وعن لها أن تسأل عن معاملته عموما للفتيات ، حتى تيقنت من أن تلك هي طبيعته ، حتى لكأن إحدى المصريات قالت لها :

- " ربما كان عدوا للمرأة ، فهو لا يقبل الحديث معهن إلا في الطب ، ولا يقبل حتى مجرد كلمات المجاملة العابرة من أي فتاة .."

لقد كانت تظن أن معاملته القاسية كانت قاصرة على الفتيات الشرقيات فقط باعتباره عنصري متعصب ، لكنها تأكدت من أنه لم يكن يفكر إلا فيها ، وتعجبت ، هل ذلك امتثالا لأوامر والديه ، أم أنها تلك العادات المتأصلة فيه ، عادات رجال وسيدات زمان ، وربما كثير من الأهل والأصدقاء حتى الآن ، ما أن يرى الرجل فتاة ناضجة جميلة حتى يطلبها لابنه حتى ولو لم يكن في سن الزواج ، وبالنسبة للعائلات في الريف فإن الأمر يختلف عنه في المدن ، فالفتاة بمجرد ولادتها تخطب لطفل ربما يكبرها بسنوات أو أيام لا تفرق ، الطيبة التي يتمتع بها أهل الريف شئ آخر ،

وهل طه من أهل الريف ، بعد هذا العمر الذي قضاه في أمريكا ؟ هذا هو السؤال الذي ظل يشغل طبيبة القرن العشرين ، التي حصلت على الدكتوراه من أمريكا .

لم يكن خبر حضور الدكتور طه إلى القاهرة أمرا عاديا ، فقد تناقلته جميع وسائل الصحافة ووكالات الأنباء ، مع نبذة عن نشأته وحياته ودراساته وأبحاثه وأعماله ، وأشهر عملياته الجراحية التي كان لنجاحها الفضل في إنقاذ الكثيرين من الموت المحقق ، والأساتذة الذين تتلمذوا على يديه ، وبرنامج عمله في القاهرة ، والعمليات التي سيتولى الإشراف عليها ، والأساتذة من كليات الطب الذين سيتعاونون معه في جراحة هذه العمليات . وكم كان عجب العائلة من وجود اسم الدكتورة سعاد علي رأس فريق الأساتذة الذين سيعملون معه ، وكانت سعاد كلما قرأت الخبر تردد المثل الشعبي الذي يقول "صحيح الدم عمره ما يبقى ميه ".

ودخل خالها منشرح الصدر ، مناديا البنات والزوجة ، وأخذهم جميعا في صدره ، وقد كان يسعهم جميعا كما هو قلبه ، فقد كان طويلا ، عريض المنكبين ، من يراه بملابسه الصعيدية لا يمكن أن يتصوره إلا عمدة ، أو شيخ بلد ، رجل مهم من رجال الصعيد ، أما الهندسة ، فما كانت تظهر إلا مع البنطلون الجينز وبرنيطة السلامة وحذاء كما أحذية الرياضة ، ونشاط ما بعده نشاط ، صعودا وهبوطا على سلالم المباني أو سقالاتها ، يدا بيد مع الجميع ، وفي كل مكان .

• " بعد غد مساء إن شاء الله يحضر الدكتور طه .."

قالها والسعادة تكاد تحمله معها على جناح من الشوق الذي اختزنه لابن أخيه على مدى السنوات الطويلة التي قضاها في أمريكا ، دراسة ثم عملا ، كان الدكتور طه شديد التعلق بعائلته وأسرته وعمه على وجه الخصوص ، فما انقطع عن الكتابة له ، ولا طالت مكالماته الهاتفية عنه . أيام الدراسة ، كانت محاولاته كلها لتخفيض نفقاته ، حتى استطاع الحصول على مساعدة من الجامعة لتفوقه ، ومن ستر الله سبحانه وتعالى ، أن أزمة شركات توظيف الأموال حدثت ، بعدما التحق بالعمل جراحا ثم كبيرا للجراحين ثم أستاذ كرسي ، في ذات الجامعة التي كان يدرس فيها ، ولأخلاقه المتميزة ، وشهامته التلقائية ، فهو لا ينتظر حتى يدعوه الآخرون لمساعدتهم ، بل يبادر هو بالمساعدة حتى ولو لم يطلبها منه أحد ، أرسل إلى عمه لكي يرسل سعاد إلى أمريكا ، ورتب لها القبول ، وتحمل الجزء الأكبر من نفقاتها ، بل كان يرجو عمه أن لا يرسل شيئا ، فدخله يكفيهما وزيادة ، لكن عمه الذي يعرف الأصول ، استمر في إرسال المبالغ التي حددها لسعاد ، حتى لا

يثقل عليه ، وكان طه يعلم هذا ، لكنه أبدا لم يتركها هناك تعاني قلة ذات اليد ، فهو دائم السؤال عن أحوالها ، والتعرف على ظروفها ، ولما فتح الله عليه من واسع رزقه ورحمتـــــه ، لم يتــأخر في شـــراء سيارة لها بمجرد حصولها على الدكتوراه ، والحقيقة أنه وضع السيارة في طريقـها ، وأودع المبالغ المناسبة لسعرها وجمركها في حسابها ، واتفق مع مدير البنك أن يبرر لها هذه المبالغ باعتبارها فوائض بنكية لأرصدتها الدائنة ، أو جوائز البنك يوزعها على العملاء الجيدين الذين لا يصـــدرون شيكات لا تغطيها أرصدتهم ، أو أي شئ من هذا القبيل ، حتى لا ترفض قبولها ، فهو يعلم أنهـــا عزيزة النفس ، لا تقبل نقودا إلا من خالها محمد وفقط ، وليس من أي مخلوق .

كان شديد التدين ، حريصا على مصالح الآخرين ، يعطف على الفقراء ، ولم لا ، وقـــد كـــان هـــو أحدهم ، ولولا وقوف عمه إلى جانبهم ، لما وصل إلى ما وصل إليه الآن . فوالده تـــدرج في التعليم العادي ، ولم يكن في مثل تفوق عمه ، فعمل موظفا شأنه في ذلك شأن بـــاقي خلـــق الله ، ومرتبه لا يكاد يكفيه ، وكان عمه الحاج محمد متحملا لمسؤوليات عائلته ، ثم بعد أن بـدع الأرض والفيلا والجناح ، كان نصيب والده من أراضي الإصلاح عدة أفدنه ، تحتاج إلى مال للاستـصلاح ، ليس لوالده القدرة عليه ، ولولا أموال عمه ، لما أفلحت هذه الأرض ، وأصبحت تعطـــي الآن عائدا مناسبا ، وأراضي الاستصلاح بعيدة عن النيل العظيم بما كان يجلبه للفلاح المصري من طمي حجزه السد العالي حتى تساوت تقريبا أراضي الاستصلاح مع أراضي الـــوادي نتيجـة لحجـز الطمـــي الذي كان الله سبحانه يرسله للفلاح المصري ليخصبها ، دون ما مشقة أو تعب ، وحـتى السماد الطبيعي الذي كان مستخدما ، هو نتاج الماشية ، التي كانت تتغذى على فـــائض إنتـــاج الأرض ، وتسمح له بحلب اللبن الذي يبيعه أو يصنع منه القشدة والزبد والخيرات التي كان يشتهر بها الريف المصري ، أما عن تربية الدواجن والحيوانات الصغيرة الأخرى ، فما كان يخلو منها بيت ، في القرية المصرية ، وربما في المدينة أيضا ، وكان الفلاح سيد أرضه ، حتى مصروفاته اليوميـــة ، كانوا يتعاملون فيها مع البقال أو محل القماش أو غيره ، على المحصول ، وكان المحصـــول مـــهما كانت مساحة الأرض يكفي ويفيض ، وكان المرابي يعطي السلف على المحصول ، وما كان يمنـــع الماء ، أو يقلع الزرع لمن لا يدفع ، بل ينتظر الحصاد ، ثم له شأن مع المتقاعسين عمدا عن الســداد ، وربما ليس جميعهم ، وكان .. وكان .. ولا ندري ، ماذا حدث ، هل للمدنية ودخول الكهرباء للريف والتليفزيون هذا الأثر المدمر ؟ فما عاد الفلاح ينهض في الصباح الباكر ليؤدي فريضة الله ، ويذهب إلى حقله يفلح ويزرع ويروي ويحصد ، والمرأة في البيت تحلب وتطهو وتـــربي الأولاد

وقتم بالحيوانات وتبيع الإنتاج من بيض أو لبن ، وكان الكل يعاون ويتعاون ، حتى الحيوانـــات ، كانت تعلم أن الفلاح وزوجته وأولاده يوفرون لهم الطعام بحب واهتمام ، فكانت ترد لهم هـــذا الصنيع بالسماح لهم بأخذ ما تستطيع إعطاءه ، من لبن يتغذون عليه ويبيعون ما يفيـض ، أو روث يستخدمونه سمادا ، أو نتاج يربونه حتى يكبر ثم يبيعونه أو يبقونه ،كل ذلك بحب ورضاء ، لم يفكر الفلاح في شراء البهيمة لكي تنتج له كذا عجل يبيع الواحد بكذا ويشتري قصرا .. كما فعلـت صاحبة البيض ، فقد كان مثلا يضرب للجميع ، ربما ساقه لنا أجدادنا القدماء حتى لا يكون الطمع هو المحرك الأساسي لأنشطة البشر ، فكان الخير من الله رضاء بالرزق الذي كتبه لنا ، وليس طمعا في المزيد من غير عمل أو جهد أو صبر ، ونسي الناس الله ، فأنساهم أنفسهم ، نســوا أن الأرض يرثها عباده الصالحون ، وليس عباده الناقمون الحاقدون ، ولا عباده الهباشون الهلابون ، مبتكـرو مبدأ " فتح عينك تأكل ملبن ، واديها مية تديك طراوة ".

أخذ الرجل يقص على أولاده من هو الدكتور طه ، لولا مساعداته .. لما بنيـت المستشـفى ، فقـد قدم الحاج محمد الأرض ، وتولى الدكتور طه معظم نفقات البناء والتجهيز ، ولولاه .. لما تمكن الرجل من استكمال المستوصف الخيري الذي أوصاه والده بإلحاقـه بالمسـجد ، يخصـص لأصحاب الدخول المتدنية ، وكذلك الفقراء والمساكين من أهل المنطقة والمناطق المجاورة ، وكـان دخله من شركات توظيف الأموال كبيرا بدرجة تكفي كل هذا الإنفاق وزيـادة ، فقـد كـان الرجـل خيرا بطبيعته ، نشأ على حب الخير ، وكأنما كان في حليب أمه التي كانت لا تبخل على محتاج ، حتى ولو كان بهم خصاصة ، وورثه عن أبيه ، الذي كان لا يبخل بعلم أو فقه أو جـهد ، يوم كان لا يملك سوى العلم والفقه والجهد ، أما وقد من الله عليهم برزق وفير من الأرض الـتي ارتفعت قيمتها لتحويلها من أراضي زراعية إلى أراضي بناء ، وبغض النظر عن رأيه في مثل هـذه التصرفات ، التي تجعل البعض لا يهتم بالثروة الحقيقية للإنسان ، ويسعى وراء العرض الزائـل ، والنتيجة ، أن تحولنا من دولة زراعية .. إلى ماذا ؟ فلا نحن دولة صناعية ، ولا دولة تجارية ، ربمـا نصبح يوما ما دولة خدمات .. للسياح ، ويا ليتنا فالحين في هذا أيضا ، فالأخطاء كثيرة .

وزاد شوق الجميع لرؤية الدكتور طه ، الأسطورة الذي ظهر فجأة في حياتهم ، أين كان الدكتور طه عندما رأت البنات أباهن يوما ما وقد وضع يده على رأسه وزوجته الحبيبة تهون عليه المصاب ، يوم حدث ما حدث لشركات توظيف الأموال ووجد الرجل نفسه من دخل بعشـرات الآلاف إلى

لا شئ ، ولولا ستر الله سبحانه وتعالى ، أن جاء ذلك اليوم وكانت آخر دفعات تكـــاليف بنـــاء العمارة قد سدد ، وكان قد وعد كل من أولاد اخوته وأخواته بشقة في العمارة ، وما كان لــه أن ينكث عهده ، وما بقي للتصرف قليل ، فكر في البيع ، لكنه خشي أن يتملك من يملك المـــال ، وقد لا يملك مقومات أخرى أهم من المال ، فلجأ للتأجير ، حتى يكون هناك موردا دائماً بعيدا عن فوائد البنوك التي لا يطمئن قلبه إلى شرعيتها ، خاصة وأن أباه أفتى بحرمتها ، وما أفتى بـــه أبـــوه دستور لا يمسه مهما كانت المغريات ، لكن المثل الذي يقول إتق شر من أحسنت إليه ، كان حقا ، فقد قصده الكثيرون من ذوي الحاجات ، ثم تبين أنهم من ذوي النفوس الضعيفة ، فمنهم من ادعى حصوله منهم على خلو يعاقب عليه القانون ، ومنهم من يتعمد عدم دفع الأجرة بدعوى أنه فقـــد عمله ، أو لحاجات فرضتها عليه ظروف عائليه ، ويتبين عدم صدق هذه الحجج ، وكأنما استكثروا عليه دخله ، وهو يرفع يديه إلي الله ويدعوه المغفرة والستر . وأين كان الدكتور طه عندما كـــلنت البنات لا يسمعن إلا كلمة ربنا يبعت ، وطلباتهن في تزايد ، ويخجلن أن يثقلن على أبيهن بهـــا ، ويتحملن نظرات الاستهزاء من الملابس أو الأحذية التي لا تكاد تتغير طوال العام ، أو التقصـــير في شراء الكتب والمذكرات ، أو عدم الاشتراك معهن في دروس التقوية المنزلية ، أو عدم الاشتراك في الرحلات وحفلات الترفيه .. أو حتى الأنشطة المدرسية ، أشياء كثيرة كانت تحتاج لهذا الساحر القادم من أمريكا ، ليغير حياتهن من بؤس وشقاء ، إلى حياة رغدة فيها من الكماليات أكثر مما كن يحلمن ، ومن وسع ، سيارة آخر موديل ، وسائق .. إلى آخر هذه الأمور ، حيـــث مـــا زالـــت البنـــات يشعرن أنهن في حلم .

قالت له زوجته :

• " الدكتور طه لازم ينزل في مكان يليق به ، ولا شئ يليق به غير الفيلا .."

وتساءلت سعاد :

• " أي فيلا ياطنط .."

فقالت منال :

• " فيلا بابا جدو .. خالي لازم يخليها .."

وتعجب الرجل من كراهية منال لخالها ، هو لا يحب الفرقة بين الأهل ، فصلة الرحم من الوصايا الهامة في القرآن والسنة ، وزوجته تحمل عليهم بقسوة ، وحاول الرجل بكل ما يملـــــك ، لكـــن الزوجة قالت :

- " لقد أفسدته والدتي بإخفاء أفعاله السيئة عن أبي ، ولو أنني أعرف أبي جيدا ، فحتى بعـــد أن تكشفت له تلك الأفعال التي زادت بعد وفاة والدتي ، لم يتخذ معه إجراءا حاسما ، وبعد رحيل والدي .. وربما قبل ذلك بكثير ، وجد زوج أخت يغدق عليه بالعطايا والهبات التي يستخدمها في ما لا ينفع بل يضر ، رغم كراهيته له وعدم احترامه ، خلي أولاده يفوقوه .."

والعجيب في الأمر .. أنها قامت من فورها إلى التليفون ، وهي تتوعّد هذا الجحود ، وما أن همت بالحديث ، حتى دق جرس الباب ، ودخل كمالي بواب الفيلا ليعطيها خطاب سلمه له حســـــام ، ففتحت الخطاب لتجد بداخله مفاتيح الفيلا ، وورقه كتبت عليها جميع عبارات الشكر ، والأسف والاعتذار ، والتوقيع عائلة مدحت الأناضولي ، وبعد أن أنهت السيدة قراءة الورقـــــة ، أعطتـــها لزوجها وهي تقول :

- " يعني مش مدحت الأناضولي .. لكن عائلته ، أرجوك يا حاج أوقف عطاياك .."

فقال الرجل بهدوء :

- " يعني لما ربنا يفرجها علينا نضيقها علي الناس ، ودول مش أي ناس .. دول ذوي قربى .. ده حتى ما يرضيش ربنا .."

فقالت نورهان :

- " الضروريات فقط يا حاج .. مش عمال على بطال .. ده إنت كنت بتحرمنا وتديهم .."

ورد عليها بهدوء :

- " والسكن ده مش من الضروريات ..؟ "

فقالت بشيء من التهكم :

- " سكن ... وليس فيلا يا حاج !!"

ثم سألت البواب :

• " أين سكنوا ؟"

وقال البواب :

• " حسام بك استلم شقة في مدينة نصر تابعة للشغل بتاعه سكنوا فيها .."

وسألته السيدة :

• "نقلوا امتى ؟ "

• " لا دول احذوا شنطهم في عربية حسام بك من كام يوم ، بس انتم كنتم في العزبة ."

وأصدرت السيدة أوامرها إلى بناها والدكتورة سعاد للاستعداد للانتقال إلي الفيلا :

• " فالسيارة تحتاج إلى جراج مناسب في فيلا مناسبة ، والدكتور طه لابد له من مكان مناسب يرفع رأسه أمام الجميع ، ودي فيلا أبوكم يا بنات ، وفيلا خاله يا سعاد يا بنتي .. يعني مفيش حد حيبقشش عليكم .."

ونظرت البنات إلى بعضهن .. ثم نظرن إلى أبيهن الذي هز كتفيه وهو يقول :

• " كلام ماما يسري على الجميع .. وأنا أولكم .."

ودخل يجمع حاجياته ، فأسرعت السيدة الفاضلة ، تقبل يديه ورأسه وهمت أن تلقي بنفسها على قدميه ، كي يسامحها ولا يغضب منها أو عليها ، وأن ما فعلته هو درس لأخيها وعائلته ، حتى يعلم هؤلاء الجاحدون من هو الحاج محمد عبد المؤمن الصقر ومن هي عائلته ، كما أنه درس للبنات ، فيتعلمن كيف يدافعن عن ممتلكاتهن حتى ولو كانت في أيدي أقرب الناس إليهن .. ولما وجدت إعراضه بطريقته الخاصة عندما يعلن غضبه الصامت ، أضافت بأنه درس لعائلة أخيها أن يتعلموا الاعتماد على أنفسهم ، ولما كان إصراره على معاقبتها بالصمت ، قالت :

• " أليست هذه تعاليم الرسول الكريم .. أن تقاتل دون حقك .. وانت لم تفكر إلا في مقابلة السيئة بالحسنة ، بل وبالأحسن ، والسيئات مش عايزة تنتهي ، لا بد من وضع حد لكل ذلك .. ثم إن تعالي حاسبني .. لماذا لم يتنازل الزيتوني باشا عن الفيلا الخاصة به لزوج ابنته التلفان ، ولا حتى لأي واحد من أولاده أو بناته ، باعها وبنى عمارة تناطح السحاب ، حتى ما فكرش يحجز لحد منهم شقة ، أو حتى غرفة فوق السطوح ، وعايش حياته طولا وعرضا ولم يفكر في

ابنته ولا أولاد ابنته ، يعني إحنا اللي انكتب علينا الغلب يا ربي نتحرم من مالنا وهو أمام أعيننا .. ده حتى يبقي حرام ."

وانهارت في بكاء حار ، ولما كان الحاج ضعيفا جدا أمام البكاء ، خاصة الأطفال والنساء ، وهذه ليست أي نساء ، إنها حبيبة قلبه ، جميلته التي رباها على حبه ، وتربى هو على حنانها ، قرة عينه التي لا يقوى على إيلامها مهما كانت الأسباب ، احتضنها وقبلها وسامحها وأصر على أن يرى ابتسامتها .

١٩- الجمال الحزين

لم ينس إسماعيل ذلك اليوم الذي قضاه مع الحاج وعائلته في العزبة ، تلك الأرض التي نشأ عليها وترعرع بين أبناء وبنات اخوة وأخوات الحاج كلهم يعرفونه ويعرفهم ، فقد تربى معهم يدرسون ويلعبون معا ، لقد كان لاستقبالهم له وحفاوتهم به أثر كبير ، إذ أنهم عندما أقبل عليهم وعرفهم بنفسه تسارعوا إليه ، الشباب ومن هم أصغر منهم قليلا قابلوه بالأحضان ، والفتيات ومن هن أصغر منهن قليلا ابتسمن له يحيينه بإيماءة من رؤوسهن ، لقد تمتع في هذا اليوم متعة كأنها عيد بالنسبة له ، وهذا ما جعله يفكر جديا في الارتباط بمنال ، فقد أخذ يعيد حساباته ، ويحسب لها كل نقاط التقبل ، نسي مع حساباته هذه نقاط الضعف ، أو لعله قلل من شأنها ، فقد تركت فيه أثرا قويا ، قد يكون هناك بعض اختلاف في الشكل عن تلك التي رآها تزلف المصعد ، لكن الشكل ليس من الأمور الجوهرية التي تبنى عليها السعادة الزوجية ، لكن نقاط التميز عند منال أكثر من كثيرات من بنات حواء في كثير من النواحي ، فجمال ابتسامتها لم ير له مثيلا ، وسحر العيون يسلب القلوب ، لم ير شعرها ، آه إذا هذا هو الفرق ، من رآها كانت سافرة بدون حجاب ، لكن منال بحجاب ، بوده لو يعرف إن كانت منال بالحجاب دائما ، أم أنها لحظة أن رآها كانت بدونه ، وسأل والدته ، فقالت له :

- " إن الحاج لا يقبل من نساء عائلته إلا الحجاب ، فقد خرج إلى الحياة بأم تلبس شيئا ما يسمونه " تربيعة " على ما أظن ، فوقها حجاب أسود أعتقد أنهم كانوا يسمونه " طرحة " أو شئ من هذا القبيل .. لا تنس أنه هو الذي أعاد الحجاب إلي ، فكيف تتصور أنه يترك أهل بيته بدون حجاب ..؟ ثم أن الحجاب أمر من الله سبحانه وتعالى ، فهل تظن أن رجلا في تقوى الحاج لا يأمر أهله بالحجاب ؟ "

إذا هذا هو الفرق ، كانت الثانية بدون حجاب ، ومن الأفضل ؟ فتاة متدينة بالحجاب ، أم بدونه ، ثم ماذا يهمه من الثانية ، إنه لو رآها في الطريق لن يتعرف عليها ، فقد لمحها تزلف من باب المصعد ، وظنها ابنة الحاج محمد ، وعلى هذا عقد العزم على خطبتها ، حقيقة أن ما لمحه من وجهها لم ينمح من ذاكرته ، لكن ما له بها الآن ، هي سراب ، ومنال حقيقة ، هل يسعى وراء سراب ويترك الحقيقة ، بل الحقائق كلها ، فعائلة الحاج محمد لا يستطيع أن يقول أحد عنها إلا كل خير ، فيكفي ما يحمله هذا الرجل بين جنبيه من دوافع الخير ، وبدا له أن يقارن بينها وبين بنات أخواله

وخالاته في فرنسا ، الشعر الأصفر والعيون التي ترى فيها زرقة السماء وسحر البحر ، ولكنـــها إمــا ذابلة بدون حيوية ، أو أنها متفتحة بنهم للعلم أو غيره ، بياض جميل حقا ، لكنه كـــالثلج ، وهو يريد حرارة فتيات الشرق ونشاط بنات الغرب ، يريد نقاء النيل وعذوبة تغريد الطيور علـى أشجار الزيتون والتوت ، وهفيف الرياح تمايل النخيل كأنها راقصات من عهد الرشيد ، وشعر بأن شيئا ما يشده إلى جذوره ، ويريد لها أن تمتد وتتعمق في أرض أجداده آل زيدان ، هل لماء النيـــل هذا السحر الجميل ، أم أنها الجينات الوراثية للرجال ، تغلب دائما على الجينات الوراثية للنساء ، أم أن نقاء شعب مصر وطيبته وصلابته لهم من التأصيل ما يجعل "من لم يكن مصريا يود أن يكـون مصريا" ؟ هو لم ير أحدا من عائلة زيدان هذه منذ أن كان صغيرا ، فسأل والدته عن قطيعتـــهما بعائلة زيدان ، وقالت السيدة وقد أعادها هذا السؤال إلى ذكريات سنوات وسنوات :

- " لقد أتى بهم الحاج محمد إلينا عندما كان يستضيفنا في أرضه ، ناقش الأمر معي ووافقـــت ، فقد وجد أن الأواصر التي تربط عائلة الصقر بعائلة زيدان تفرض عليه ذلك ، وكان اللقـــاء قويا ومؤثرا ، وأبدوا الاستعداد لتقديم خدماتهم لنا بدون حدود ، إلا أنني لم أطلب منهم شـيئا سوى تسهيل عملي في تسويق الفاكهة ، وقد كان ، فأصدروا الأوامر للجميع بتسهيل التعامل معي ، وأصبحت بعد أن كنت أتحرج من ألاعيب أصحـــاب مـــزارع الفاكهـــة ، تحركـــهم أوامـــري فيعملون لي ألف حساب ، خاصة في ظل شراكتي مع الحاج محمد .."

وباغتها ابنها متسائلا :

- " ألم يقع في هواكي أحد شباب آل زيدان ، كما وقع والدي في حبك ، وكما جذب جـــدي حبه لجدتي ، والدتك ؟"

وابتسمت شوق ابتسامة خفيفة ، عبرت بها عن سعادتها بممازحة ابنها لها ، وتدفقت الذكريات :

- " لقد عرض كبار عائلة زيدان أن أختار من شبابها من أرضاه زوجا لي ، لكنني أعلنت التمسك بتربيتك ، أوضحوا لي أنك ابنهم أيضا ، فآثرت الصمت بدموع انسابت من عيني حزنا علـى زوجي ، وفهموا أنني لا أريد لابني أن يشاركه في حناني وحبي له زوجا لأم ، قد يحسن معاملته أو لا ، ولا أريده أن يجد غير والده في حياتي ، احترموا مشاعري وبعد ذلك احترموا عقلـي ، ولم يضغطوا علي بالرغم من تشدد بعض الطامعين ، لكن هؤلاء الطامعين أخرســوا أنفســهم بأنفسهم ، فعندما تصعدت الأمور بين أكثر من طامع ، تراشقوا فيما بينهم ، وكادت أن تصل

إلى درجة رفع السلاح ، وتبين لهم في النهاية أنه ربما حصافتي هي التي ألهمتني الرفض ، وإلا لتكررت واقعة قابيل وهابيل .."

وعلق إسماعيل تعليقا رقيقا :

- " لا أستطيع أن أقول إلا أن رجال عائلة زيدان عندهم نظر بالقوي ، فمن يراك ولا يحبك هو أعمى بلا شك ، لقد أخذت أقارن بين جمالك وأنا الابن وجمال من شاهدت من النساء ، سواء في فرنسا أو في مصر ، ولم أجد لك مثيلا ، فما بالك بقلوب الرجال الآخرين ، لابد وأن التقاتل بينهم عبارة تقل كثيرا عما كان يجب أن يفعلوه ، ويكفي أن جدي لم يقوى على مقاومة جمال والدتك ، الذي كان يقل عنك بكثير .."

ابتسمت شاكرة له مجاملته ، وقالت في انتشاء من عبارات ابنها ، فالأنثى أنثى ، ولو بلغت المشيب :

- " عندك حق ، فقد كنت جميلة بدرجة كبيرة ، وهذه نعمة أنعمها الله علي ، وكان يجب أن أحافظ عليها وأشكرها له ، فلا أتبرج وتكون نهايتي كما هي النهايات المحزنة للكثيرات من الجميلات اللاتي لم يشكرن الله على نعمة الجمال ، ولكن عائلة زيدان أبدوا تعجبا من زواجي رجلا يكبر أبي سنا ، فاختلت عليهم بحكمته ، ويتعجبون كيف بجمالي هذا الأخاذ لم يفتن بي شباب تلك الأيام أو أن أفتن أنا بأحدهم ، وهم على يقين أنه بإشارة من إصبعي سيأتي زاحفا ، وتعجبوا وأنا خريجة المدارس الفرنسية ، أنه لم يعجبني أحدا من زملاء الدراسة ، وأعجب بهذا العجوز ، وتصوروا أن حزني على والدي وظهوره خلال هذه الأزمة وتعاطفه معي ، جعلني أشعر به أبا أكثر منه زوجا ، فقد كنت أخطو خطواتي الأولى في السابعة عشر ، وكان هو يسرع الخطى نحو الأربعين تقريبا ، لم أجد من هو أكثر منه حكمة ، أو شبابا وحيوية ، وكان قاموسا في كل شئ ، يعطي بلا حدود ، بدأت العلاقة بالهرولة ، وأثناء الهرولة تبادلنا الكلمات ، صحح لي الكثير وأضاف إلى معلوماتي الأكثر ، كانت تعليقاته وقفشاته مما يسعد القلب ، قال لي بعد الزواج :

- " لقد كان قلبي يهفو مع هرولتك ، كانت لا تظهر منك إلا هامتك تعلو وتنخفض ، بشعر مسترسل يتطاير مع الهواء ، كأنك إحدى الحوريات في رسومات الفنانين ، وكلما ازداد تأملي لك يزداد تعلقي بك ، حتى لكأن الكفر كان قبرا عندما عدت ولم أجدك ، وعندما علمت

بما فعلته ابنة الجاويش ، تمنيت لو كسرت عنقها وقطعت لسانها وشتت كل من يعاونها ، وبحثت عنك في كل مكان ، وسألت كل من يعرفكم ، ولم يكن هناك أي تفسير ، لولا عودتك المفاجئة تماما كاختفائك المفاجئ .."

• " كانت كلماته لي كلها غزل ، حركاته كلها حب ، لا ينفك ينظر إلي وأنا جالسة أو واقفة ، في المطبخ أو في أي مكان ، كطفل تعلق بأمه فلا يفارقها ، فإذا ألقيت برأسي على صدره وكنت أحب ذلك ، وأعلم كم هو يحب ذلك أيضا ، فأي سعادة في الدنيا قد لا تداني سعادته بتلك اللحظات ، بلهفة الملهوف يتلقفها ، ويبدأ فورا في مداعبة خصلات شعري التي كان يصفها بأنها ذهبية ، ويدغدغ رأسي بأصابعه الحنونة ، ويلاعب بشرة وجهي ورقبتي بأنامله الرقيقة ، ولا ينفك يقبلني في كل مكان يجد لشفتيه سبيلا إليه ، وأنا هكذا في أحلام السعادة ، أتوه بين العبارات الجميلة التي تنساب من بين شفتيه وكأنها أشعارٌ ، وبين لمساته التي تمس المشاعر ، فأدفن رأسي في صدره طالبة المزيد ، وهو لا يبخل ، فقد كانت سعادته تزداد مع كل لحظة يشْعُر فيها بقربي منه ، وكنت آخذ رأسه بين يدي ، وأهدهده كطفل عذب البسمات رقيق المشاعر ، وأدغدغ له رأسه بأناملي ، وألاعب شعيرات رأسه وصدره بهمس شفتاي ، وألتقط القبلات بين الحين والحين كما لو كنت أقطف زهورا يانعة بفمي ، كانت علاقة حب جميلة أنهتها هذه الحيزبون بقسوتها معه ، لم يتحمل قلبه المسكين مشاجراتها فسكن ، أو ربما مات مسموما كما تقول مسعده جدة عبد الجليل ، ربما وضعوا له السم في قصر القاهرة ، ونقلوه إلى الكفر وهو يعاني سكرات الموت ، كنت صغيرة عديمة الحيلة ، واتهموني بقتله ، وأخرجوني من دار أبي ، ولم يمهلوني حتى أجمع حاجياتي ، ولاحقوني كما المجرمة حتى محطة القطار ، ولم يسمحوا لي بالتوقف مع مسعده وهي تعطيني ملاءات السرير التي لفوا فيها ما رغبوا في إعطائه لي من ملابسي وملابسك .."

ولم تستطع المسكينة أن تكمل ، فانهمرت في بكاء حار ، لم يجد معه محاولات ابنها التسرية عنها ، ولا ضمها إلى صدره وبثها حبه وحنانه ، ولا الأيمانات التي أقسمها للانتقام لها من كل من تسبب في مسحة حزن ألمت بها ، لكنها أكملت ، وكأنما تريد أن تحكي له قصة مقتل والده ، وفي نفس الوقت تشعره بمدى مرارتها لفقدها أباه ، وكم هو مقدار الغل الذي يشتعل في قلبها منذ أن تداركت أن أباه قتل وتريد أن تأخذ بثأره ، والثأر عند الصعيدي ، ليس دائما في شخص القاتل ،

وانما قد يكون في أعز من لدى القاتل ، ومن أعز من ابن ضرهما التي أضرهما ، فأصبح كل تفكيرها في كيف تدبر للانتقام من هذا العبد المنعم الذي انتزع منهما كل ممتلكاهما ينعم بها منذ أن طـردا وحتى هذه اللحظة . كفكفت دموعها بصعوبة ، وأكملت :

• " خطفه الموت في لحظة من لحظات النكد التي كانت جلنار تزفه بها كلما طلبته لأمر هام ، حتى أصبح اسمها يمثل بالنسبة لي النار بعد حذف النصف الأول منه ، لكن ما ذنب الرجل ، أنـا أرضعه الحنان ، وهي تسقيه الحميم ، يقبل من منا ؟ ويرفض من ؟ كانت لحظاته في القـاهرة عضات حيات ولسعات عقارب ، ونزلات برق وصواعق ، ويهرب بجلده إلى الكفر ، فقـد ثبت له أن الوحدة خير من بقائه إلى جانبها ، كان ذلك حتى قبل أن يتزوجني ، ولعل زواجـي منه ووجودي إلى جانبه ، هوّن عليه كثيرا من قسوة زواجه من جلنار ، لكن .. هـل تفـهم الزوجة أن هروب زوجها منها يكون دائما بسبب تصرفاهما السيئة ، إن الزوج يتمنى أن يـرى زوجته فيما يحب أن يراها فيه ، والرسول يدعو إلى ذلك ، فتعبير إن نظر إليها سرته ، ليس له تفسير إلا أن تتجمل المرأة كيف ما يريد لها زوجها التجمل ، وتبش في وجهه ، لا أن تعبـس ، لكن جلنار هذه لم تكن طبيعية ، كانت تريده عبدا لا زوجا ، تأمره فيطيع ، وتطلب فتجاب ، لا معارضة ولا مفاوضة ، وقد سهلت لها قرابتها للحاشية الملكية التمادي في ذلك .."

وتساءل إسماعيل :

• " ولماذا تزوجها .. وما سبب احتفاظه بها ..؟"

وأجابت الزوجة الحنون تدافع عن زوجها ، وتجد المبرر القوي للأب عند ابنه ، فلا يتصـور أن هذا كان عن ضعف منه ، أو أنه لم يكن يدانيها في قوهما أو صلابتها أو حتى مركزها :

• " أما لماذا تزوجها ؟ فقد قال لي أنه لا يعرف ، إذ أنه أفاق من إحدى جلسات سمره ، فوجـد نفسه متزوجا منها ، وسرد لي قصة ربما لا تصلح إلا لما نراه من أعمال فنية أو أدبية ، البدايـة كانت في أحد الاحتفالات التي كان يقيمها الملك لرجال الجيش حتى يكسب ولاءهم ، وكانت جلنار إحدى وصيفات الملكة ، رآها وهي تتباهى بأزياء تبرق ، وبجمال أكثر إبهارا ، تحقق لـه فيما بعد أنها المساحيق التي يزيدونها كثيرا فتعدل من حال المايلة ، كما يقول المثـل " لبـس البوصة تبقى عروسة " وكان هو في لحظات سكره وعربدته ، واقترح أحد زملاء السلاح رهانا لمن يستطيع أن يأسر قلب إحدى الوصيفات ، فالكل يعرف أهن بنات أكابر الحاشية الملكيـة ،

وفي الغالب قريبات للملك أو الملكة ، وأخذ هذا الخبيث يلح على والدك أن يشارك في هـذا الرهان ، بل لقد عرض في رهانه على والدك مساحة كبيرة من أراضي كفر السلحدار ، بما فيها القصر ، وقصر رهانه على جلنار بصفة خاصة ، خاصة وأن هذا الخبيث راقصها أكثر من مرة ، وكأنما كان يتحداه أن ينتزعها منه ، وأبوك رجل عسكري ، ويعتبر النكوص عن التحدي نوعا من الانهزامية وجبنا يلحق الخزي بصاحبه ، ولم يكن أبوك يعرف أن هذا الخبيث أحد أقاربها ، وأن هناك اتفاق بين والده ووالدها على زواجه منها ، وأنها تحبه وتفرض نفسها عليه ، وهو يريد أن يهرب من هذه الزيجه بأن يزوجها من أي شخص كان حتى لو تنازل له عن جميع أملاكه ، كان لا يهمه إلا أن يراها متزوجة حتى يتحرر من أن تكون قدره ، ذلك أنه كان يعرف عنها كل شئ ، كان يعرف أنها أقل جمالا مما قد تبدو ، وربما أكثر كثيرا مما قد يتصوره البعض ، كما أنها كانت أكبر سنا مما قد تبدو وربما أكثر كثيرا مما قد يتصوره البعض ، والأسوأ من هذا كله ، أنها كانت أسوأ تصرفا وأجش صوتا مما تحاول أن تبدو عليه ، ووجد في أبيك فرصة لا تعوض ، الشاب الأعزب دائما الذي لا يفكر في الزواج أبدا ، حديث الفتيات في كل مكان ، بطلعته البهية ووسامته التي تنطق بها تقاطيع وجهه ، وصرامته التي كانت كلها شهامةً وقوةً وجلداً تظهر مفاتن رجولته ، جميعهن يرغبنه زوجا ، فأي فتاة تلك التي تتزوج من رجل مثله ، لا يهاب شيئا ، مواقفه البطولية حديث الجميع ، ونزواته وسهراته وسكراته لا تخفى على أحد ، حتى لكأن المجتمع الحريمي في ذلك الوقت لا تخلو حواراته ونميمته من ذكر مغامراته وغرامياته ، حتى الملك نفسه ، كانت تصله أخباره أولا بأول ، فقد كان أحد منافسيه ، لكنه كان لا يتعدى على خصوصيات الملك ، احتراماً له أو خوفاً منه ، ولكنه في الغالب حبا منه لمليكه ، وكان الملك يقدر ذلك فيه كثيرا ، إنه منافس ولكنه شريف ، فكان يكتفي بأن يبعده عن القاهرة والإسكندرية ، لكنه كان يدعوه لجميع حفلاته ، ويمر به أثناء الرقص فيعن له أن يداعبه سائلا إياه عن آخر حكاياته ، ثم يذكر له رموزا منها حتى يشعره بأنه يعرف كل شئ عنه ، وكانت الملكة تعرف ذلك أيضا .."

وصدرت عن إسماعيل تساؤلات عجب ، دون تحكم منه في عباراتها :

- " ألم يجد غير هذا مجالا لفخره ، وإهدارا لشبابه ..؟"

وفهمت الزوجة المحبة ، أن ابنه يعلن اعتراضه على نزوات والده بأسلوب مـــهذب ، فطيبـــت خاطره قائلة :

- " لقد كان معظم رجالات هذا العصر كذلك ، فلا تنسَ أننا كنا تحــت احتلالــين ، تركــي وإنجليزي ، ولكي يحكم المستعمر قبضته على البلاد ، كان لابد لرجالاتها من الانصراف عـــن السياسة ، بالانغماس في المعاصي ، فكانت الفتيات تستورد من أوروبـــا بجمـــالهن المصطنـــع خصيصا لإشاعة الفاحشة بين رجال الجيش على وجه الخصوص ، وحفلات الملك كانت مليئة بهذه النوعية من النساء ، وكل رجال الجيش يعرفون ذلك ، لكنهم لا يستطيعون الاعتذار عنها ، لأن الاعتذار يفسر على أنه إهانة للملك ، وخروجا على طاعته ، قد يترتب عليه تصرفـــا وحشيا لا يرضاه أحد لنفسه ، مع وجود الحرس الحديدي والبوليس السياسي .."

ثم أكملت السيدة حكاية زوجها الراحل مع زوجته الأولى جلنار :

- " كان يقترب من قدره الذي يخشاه هو ، ويراهن بذلك على تعاسته الأبدية ، أغـــراه هـــذا الإبليس بالرهان أولا ، وساعده كثيرا لكي يقرر قبوله ، ومادام قد قبله ، فلا بد وأن يصـــر على الفوز به ، فهذه عادته ، الإصرار على الفوز في أي شئ ، كان من الخبث بحيث رصد لهذا الرهان أرضه في الكفر والقصر الذي فيها ، كان التحدي كبيرا وعنيفا ، شخص يراهن بمساحة كبيرة من الأرض وعليها قصر منيف ، وظن والدك أنه يستهزئ به وبقدراته ، أو لعله لا يعتقد بأنه يستطيع التأثير على هذه التي قد تبدو فاتنة ، وتردد أبوك بعض الشيء ، فإذا كان ابـــن الجاويش بهذه الثقة ، فهذا معناه أنه ضامنها في جيبه كما يقولون ، والصفقة أكثر من مغريـــة ، وما كان لأحد أن يضيعها ، لا السلحدار ولا غيره ، لكن الخبيث كان يعلم أن رجلا بثقـــل السلحدار لن ترفضه أية فتاة مهما بلغ حبها لأي رجل آخر ، فهو الرجولة والقوة والشـــهامة والثقة والنبل ، والكل يعرف عنه ذلك ، وزيادة في الإغراء ، كتب الخبيث ورقة يقـــر فيـــها بتنازله عن أرضه وقصره في الكفر باسم أبيك ، وسلمها لأحد زملائهم الذين يثقون به أمينـــا على تنفيذ العهود ، وتصور المسكين أن الأمر لا يعدو أن يكون مغامرة من مغامراته ، يستطيع العبث معها وقتا يحدده هو كما يفعل دائما ، وينتهي الأمر ، لكنه لم يكن يعرف أنه دخل عش زنابير لم يخلصه منه إلا الموت ، وعلى رأى المثل " ما يقع إلا الشاطر " فما أن قدمه لها قريبها ، حتى أسرعت الفكر بأن تستخدمه وسيلة هامة في الكيد لقريبها هذا الذي كانت تحبه ، والذي

أوصت به عند الملكة حتى أوصلته لما هو فيه من مكانة مرموقة لا تؤهله لها كفاءتـــه ، لكنـــها عندما ازداد اقترابها من أبيك ، وتأملت وسامة طلعته ، واستمتعت بحسن تصرفاتـــــه ، الـــتي قرنهـــا باحترام تفرضه تربية جيدة وأصل عريق ، كما أنه كان لا يبخل بالكلام المنمق الـــذي يأسر قلب أي امرأة ، فوجدته فرصة لا يجب أن تضيعها من يديها ، وفاز أبوك بالرهان فوزا لم ينساه حتى وفاته ، وكانت المكافأة التي فاز بها من هذا الرهان الملعون هي نفسها التي كـــانت سببا في هلاكه ، فقد اكتشفت أنه لا حديث في الحفل إلا عنه ، وعن صيده الجديد ، كانت له شهرة في جميع الأوساط ، حتى أن الملكة عندما رأته يراقصها ، قالت لها بهدوء :

- " لا تجعليه يفلت من يديك ، لقد أحسنت أخيرا الاختيار ، فلن تجدي من هو أفضل منه في هذا الحفل ، سوى زوجي الملك طبعا .. أما عن قريبك هذا السكير العربيد المقامر ، فلا يســـاوي شيئا إلى جانب هذا السلحدار ، ولعلك ترين كم هن اللواتي يحسدنك في الحفل ، و كم امرأة تتمناه لنفسها .."

- " وعملت بالنصيحة ، فوظفت كل إمكانياتها ، فجعلت من نفسها الهواء الـــــذي يتنســـمه ، والشمس التي تشرق عليه ، ما من مكان يذهب إليه إلا ويجدها ، حتى أماكن نزواته ، يجـــــد سيارتها في انتظاره آخر الليل لتصحبه بعد أن يصبح " طينة " إلى بيته ، وهناك تتـــولى خلـــع ملابسه ، وتدليك جسده لتعيد له فواقه ، ومعها خادماتها الأجنبيات اللاتي يتفنن في إنعاشه ، ثم يتركنه . لم يكن يعرف المسكين أي فخ نصب له ، كان يظنها لطيفـــة كريمـــة ، بـــدأت أولى توصياتها له عند الملكة ، بنقله إلى القاهرة ، ولقد علق الملك على ذلك ســـريعا ، بأنـــه إذا لم يتزوجها فسيعيده مرة أخرى إلى أبعد مكان في مصر ، وربما يرسله إلى السودان ، وأسرت إليه بما قاله الملك في شأنه ، وهي توصيه أن لا يخيب ظنها فيه ، وارتفع شأنه بأسرع مما كان يتصور ، وكانت تشعره دائما بأنه لولاها لما وصل لما هو فيه الآن ، وبدونها سوف ينتهي تماما ، لم يكن يبدي اهتماما بتهديداتها المبطنة هذه ، فهو يعرف من هو ، وكان لا يهتم بأي شئ ، ربمـــا ولا حتى الملك ، قالها لها في أكثر من مناسبة ، لكنها كانت دائما ما تؤكد عليه أن الملك شــــئ ، وكيد امرأة مثلها شئ آخر ، وإذا أراد أن يجرب حظه معها فليبدأ ، وأولها أنه لابد له مـــن أن يتزوجها ، وحاول أيها البطل أن تتملص ، فكانت تتفنن في زينتها ، حتى تبدو لـــــه في جمـــال فينوس ، ثم تغدق عليه من الدلال ما يجعله يسعد بقربها منه ، وبدا الأمر بالنسبة له كما هـــي

العادة التي تلازم الإنسان ، حتى أنه كان يفتقدها إن هي غابت عنه فترة من الزمن ولو قليلة ، يشعر في بادئ الأمر بسعادة أنه تخلص من ملاحقتها له ، لكنه بعد ذلك يشعر بفـــراغ كبـــير كانت هي تملأه بوجودها إلى جانبه واهتمامها به ، أو ربما كانت أحد مفاخره أن هنـــاك مـــن تلاحقه ، وهو يسوق الدلال ، لكنه عندما قرر أن ينسحب من الميدان بهدوء لم يســـتطع ، إذ كلما باعد لقاءاته بها ، لاحقته كظله ، سعى لكي ينقل إلى مكان يبعد عنها مئات الأميـــال ، لكنها في كل مرة كانت تعيده إلى القاهرة ، وتزيد من جرعات الجمال والحنان ، تحجج بأنه لا يملك قصرا كقصرها يصلح لإقامتها ملكة فيه ، فأهدته قصرها بيعا وشراء وسلمته الحجـــة ، لكنه رفضها ، فهو لا يأخذ شيئا إلا إذا دفع ثمنه ، فسألته عن رهان ابن الجاويش ، وكانت قد عرفت به ، فقال لها :

- " لقد تنازلت له عن جميع الديون التي كان قد اقترضها مني ليسدد بها ديون مقامراته الخاسرة ، ودفعت له الباقي بشيكات على البنك ، وما دفعته يفوق كثيرا ثمن أرضه وقصـــره حـــتى لا يتصور أنني لهاز فرص ، أو أنني أقبل بمكاسب تأتي بدون كد وتعب كما تعود هو على أمـــوال القمار ، وقد قاطعته بعد ذلك نهائيا ، فالشخص الذي يراهن على شرف أقاربه ، لا يستحق أن يصادق .. "

- " وبالرغم من قسوة كلماته ، وأن فيها ما فيها من تجريح بها وبعائلتها ، إلا أنها صممـــت أن تتزوجه إما رضاء وإما رغما عنه ، وبيتت له حتى أخذت منه الخمر مأخذها في إحدى نزواته ، وكانت في انتظاره كما هي العادة ، لكنها لم تأخذه إلى بيته ، والخادمات الأجنبيات يدلكنـــه حتى الفواق ، بل أخذته إلى قصرها الذي أهدته إليه بيعا وشراء ورفضه ، فوجد المـــأذون في انتظارهما ، وشعر بجرعات حنالها في لحظات نشوة الخمر كأنها هدية من السماء ، فقال قبلـــت زواجها ، وهذه هي العبارة الوحيدة التي يذكر أنه قالها من كل ما حدث في تلك الليلة ، سعد في البداية بها ، فقد كانت لطيفة ودودة حنونة ، أشعرته بمعنى الاستقرار العاطفي ، ومعـــى أن يكون الرجل متزوجا بعد ضياع ما بعده ضياع ، لكن الطبع غلاب ، سلمته حجة قصرها بيعا وشراء حتى لا يشعر بأنه في بيت زوجته ، وأمهلته السداد وقتما يشاء ، وبالمبلغ الذي يريـــد ، فجاء من فوره بأحد المشترين لكي يثمن القصر ، وقبل بما عرضه عليها ثمنا لشـــرائه منـــها ، وشرع في السداد منذ اليوم الأول لزواجه منها ، وحرص على أن يكون السداد بشيكات على

البنك ، حتى لا تطعنه يوما بتفضلها به عليه ، رفضت في البداية فظنها معطاءة ، لكنه وجدهـا سجنا ذا سياج منيع ، غلقت دونه الأبواب والنوافذ ، لا سهرات ولا خروج من القصر بعـد العودة من العمل ، ولا خادمات أجنبيات أو حتى غير أجنبيات ، لا تريده أن يرى غيرها ، ولا يجالس أحدا سواها ، وهو رجل حر ، والحرية عنده ليست انتخابات وأحزاب ، ولكنـها إرادة ، يفعل ما يريد أن يفعله حتى ولو كان مخالفا للقانون أو الشرع ، يفعله وقتما يريـد وعليـه وحده تحمل العقاب من القانون ، أو الجزاء من الله سبحانه وتعالى ، المهم أن لا يجد من يحد من هذه الحرية بالمنع ، ووجدها متسلطة ، فما أن يتأخر عن موعد عودته من العمل ، حتى تمـلأ القاهرة بالمكالمات الهاتفية ، تسأل عنه في كل مكان تعتقد بوجوده فيه ، ثم تذهب لتأخذه غـير عابئة بما تسببه له من إحراج ، فكثيرا ما حدث أن فرضت عليه الخروج إليها من غداء زملاء ، أو اجتماع عمل ، بطريقة ما كان هو أو غيره ليقبلها ، كانت تنتظره بالخارج وترسـل إليـه السائق يستدعيه ، فإذا استمهلها ، لا تمهله ولكن تقتحم المكان ، وتكيل له بعضا من الكلمات التي تحمل عبارات التجريح بصوت منخفض أولا ، ثم يأخذ صوتها في الارتفاع ، وبكل اللغات حتى يفهمها كل من في المكان ، ولا يجد وسيلة لإسكاتها إلا حملها تحت ذراعه ردءا للفضيحة ، والإسراع بها إلى القصر ، وهددها أكثر من مرة إن هي كررت ذلك ، فسوف تكون طالقـا بالثلاثة ، فاستكانت ، ولكن كالأفعى عندما تدهن حتى تجد فرصتها فتخرج رأسها لتلـدغ ثم تختفي . بل وزاد بأن أهملها إهمالا ألجأها إلى الخمر ، فلم تعد تأبه بجمال مصطنع أو معسـول كلام ، أو مشاعر مزيفة ، فأصبحت قبيحة في كل شئ ، الشكل والفعل والكـلام والحنـان والمشاعر ، وما كان يجد إلا صديقه الجاويش هذا يلعنه ، وازداد سخطه عليه عندما اكتشـف أنه قريبها ، وعرف الفخ الذي نصبه له ، والذي كان يظنه هدية السماء ، حاول أن ينسـى حظه الملعون ويعود إلى عربدته ، لكنها أوصلته إلى درجة من السخط عليها ، حتى عم سـخطه بنات حواء كلهن ، فما عادت نفسه تهفو لأيهن ، كلما نظر إلى إحداهن ، عادت به ذاكرتـه سريعا إلى الحفرة التي سقط فيها ولم يستطع الخلاص منها ، ثم يجد أن الجمال الذي يشـده إلى أي منهن ، هو لمعان المعدن الذي أصابه الصدأ عندما يطلى ذهبا ، تراه من بعيد فيفتنك لمعانه ، وعندما تكتشف حقيقته تكون قد ابتعدت كثيرا فلا تستطيع العودة ، أيما سيدة جميلة تقبـل علاقة آثمة مع شاب عربيد ، فلا تزيد عن بقرة ، لا يهمها أي فحل يشـتهيها ، أو لعلـه لا يشتهيها ، لكنهن لا يلدن إلا النكد .."

وعلق إسماعيل سريعا :

• " لكنك يا أمي استثناء من كل شئ ، وفي كل شئ ، فأي ما رجل يراك ، لا يستطيع إلا أن يقبل التراب الذي تسيرين عليه ، مهما بلغ كرهه للنساء ، أو سخطه عليهن .."

فابتسمت السيدة من كبوة بؤس ، سعدت أن انتشلها ابنها منها ، وقالت له بدلال :

• " أما أنا ، فقد كنت الهمسات البرية البريئة التي تنسم معها رحيق الشباب وعطر السعادة وجمال الحياة ، ما كان ليقبل بغيري بديلا ، وما كان ليرضى بالبعد عني للحظة ، هددوه بكل ما يمكن لهم أن يهددوه به ، سحب مسدسه وأعلن الحرب عليهم ، فلم تجد سوى الخديعة ، تربصت به حتى تمكنت منه ، فزادت غلظته معها ، واتجه إلى الملعونة التي كان يظنها مخلصته منها ، فانفجر كبده ، وفي لحظات احتضاره لم يفتأ يردد اسمي ، فحملوه إلي الكفر وهو في النزع الأخير ، وأعدوا خطة لتجريده من كل أملاكه ، ما اشتراه من ابن الجاويش الكفر والقصر ، وما اشتراه منها ، وما أضافه إليهما ،.لكنه كان واعيا تماما لنفسه حتى لحظاته الأخيرة ، وقبل أن يموت بلحظات ، نادى على بصوت خافت ضعيف ، حاول أن يجذب انتباهي لما يريد أن يقوله ، لكنني كنت في حالة من الحزن والأسى ، سيطرا على جميع حواسي ، فألقيت رأسي على صدره ، علي أخفف بذلك من سكرات موته ، ولما لمح مسعده ، وهو يعرف من هي مسعدة بالنسبة لي ، أشار إليها بيد مهزوزة ، لا تحتمل الحركة ، فقدمت سريعا ملبية ، حرك يده بصعوبة وألقى مظروفا وأومأ لها أن تخفيه ولا تعطيه لأحد إلا لي ، وما أن التقطته ، ووضعته تحت ملابسها ، حتى استقرت أنفاسه ، وألقى برأسه بعد أن قبلني قبلة الوداع الأخيرة ، حتى لكأن آخر لحظات حياته انتهت مع تلك القبلة ، أما مسعده ، فإنها عندما تأكد لها أنه مفارق الحياة لا محالة ، حيث لمحت في عينية تلك النظرة المتحجرة كزجاج لامع ينظر ولا يرى ، حتى أسرعت تجمع كل ما هو ثمين وتضعه في صرة أخفتها بين طيات ثيابها ، ثم جمعت كل النقود ، ودستها في يدي ، وطلبت مني أن أخفيها ، وأخذت الحقيبة الصغيرة التي كانت تحتوي على مستندات ملكيتي لإرثي من أبي ، وقالت :

• " لن يتركوكي تخرجين بهذه الحقيبة أو بأي شئ غيرها ، سأحفر لها تحت الفرن ، فإذا تمكنت من العودة أخرجيها ، أما أنا فسأبقي عيني على الدار ، فإذا أقدموا على هدمها ، سارعت

بانتشالها من بين الأنقاض ، واجعلي ابنك إسماعيل يستوعب ذلك الدرس جيدا ، حتى لا ينسى ميراثه من والده وجده ."

• " وصدق حدس المرأة الغير متعلمة ، فما هي إلا لحظات لفظ المسكين بعدها أنفاسه مع قبلته الأخيرة لي ، وأبدت مسعده تعجبها من علامات ظهرت على وجهه ، وهمست في أذني بأن هذه الوفاة ليست طبيعية ، لم أكن أعرف أنه توفي ، فصرخت صرخة مدوية ، جعلتهم يسرعون إلى داري ، ثم بدءوا تنفيذ الفصل الثاني من مكيدتهم ، أولا وجهوا إلي الاتهام بأنني وضعت له سما في الطعام ، ثم عرضوا علي إما أن أخرج من الكفر كله ، ولا أعود إليه أبدا ، وأنسى أنني تزوجته أو أن لي طفلا منه ، وأنسى المطالبة بثروته لي أو لك ، وسيتولون هم أمر التسمم ، فيثبتون أنه انفجار في الكبد من كثرة معاقرة الخمر ، أو أنه تسمم كحولي أي شيء من هذا القبيل ، وإلا ستكون مطاردة لي من كل السلطات ، البوليس والجيش والشياطين الزرق ..!" .

وعلق إسماعيل سريعا :

• " ولكنك قلت انفجار كبدي ، هل كنت مقتنعة من أنه كذلك ..؟"

وفكرت السيدة قبل أن تجيب ابنها على هذا التساؤل :

• " أيهما أفضل من وجهة نظرك ، أنت يا من درست الدكتوراه ، أن تكون الوفاة نتيجة تسمم كحولي ، أو نتيجة انفجار كبدي ، أو أنها نتيجة دس السم له في طعام أو شراب ، ولا تنسى أنني لم أكن تجاوزت العشرين ، يعني كنت مازلت في سن الفتيات الصغيرات ، ووجدت أنه من الأفضل أن تكون الوفاة بسبب انفجار كبدي ، وبهذا تظل أنت رافعا رأسك في مستقبلك ، فانفجار الكبد له أسباب كثيرة من بينها إدمان الخمور ، وهذا ما كنت أردده لكل من يسأل عن سبب الوفاة ، منذ أن غادرت الدار في الكفر ، وإذا سألت أيا ممن يعرفوننا ، فسيقولون أنه توفي نتيجة انفجار كبدي ، ولن أغير ذلك الآن .."

وتساءل مرة أخرى :

• " وهل هذا ما سجلوه في تقرير الطبيب الشرعي قبل الدفن ؟"

وأجابت السيدة بعد تردد :

• " ربما ، فأنا لا أعرف ماذا فعلوا به بعد أن غادرت الكفر ، فقد ظلت مطاردتهم لي حتى وصلت القاهرة ، لكنني أوصيت مسعدة أن تراقب الأمور ، وسوف أحاول الاتصال بها ، ولكني لم أكن في وقت ولا نفسية ولم يكن لدي المال الذي أستطيع الاتصال بها ، ثم أين سأتصل بها ، هم ليس لديهم هاتف ، وأنا ممنوعة من الاقتراب من الكفر ، فكما سمعت من خلف ، أن الحراسة على الدار والقصر بالكفر ، ظلت مشددة حتى لحظة وصولنا وتسوية الأمر مع عبد المنعم .."

وعلق إسماعيل سريعا :

• " تقصدين أخي عبد المنعم .."

وزأرت فيه صارخة :

• " لا تقل أخي .. الباشا لم يكن له أولادا غيرك ، ذلك أنه لم يتزوج سوى جلنار ، وبحسب ما رأيتها ، فقد كانت في سن لا يسمح لها بأن يكون لديها أولادا ، ربما قبل ذلك بكثير ، أما عبد المنعم هذا ، فإنه حكاية كبيرة ، لا أدري ماذا أقول عنه ، فقد كنت دائما ما أسأله عن أحواله مع جلنار ، فيجيب إجابات مقتضبة ، ربما لأنه كان يكره أن يسمع اسمها ، لكنني في إحدى المناسبات سألته كم ولدا عنده ؟ وكانت إجابته عجيبة جدا ، قال أنه ليس عنده أولاد ولا بنات ، وأنه ينتظر الخلف الصالح من محبوبته التي ملأت حياته بهجة ، التي هي أنا ، وعندما سألته عن عبد المنعم ، أجاب بأنه ابن أمه ، حتى لكأنه لم يقل ابن جلنار ، فقد كان رحمه الله دقيقا في اختيار الكلمات التي تدل على المعاني ، دون تجريح لأحد ، لكنني لمحت بين أوراقه وصية بكل أملاكه لي ولك ، ولم أسأله عنها ، وأدعو الله أن لا تكون جلنار قد استولت على هذه الورقة ضمن ما استولت عليه من الدار عندما أجبرتني على الخروج منها ، أو أن تكون مسعدة قد ألهمها الله ، فجمعتها مع ما جمعت من مستندات وأوراق الباشا .."

وتعجب إسماعيل :

• " وأين كانت عائلة زيدان ؟ كيف يتركونك مع هذه المتوحشة دون أن يحركوا ساكنا ؟"

وأجابت السيدة بهدوء ، حتى تنقل هدوءها لابنها :

• " أو تظنني لم أهددها بعائلة زيدان ، لكنها لم تهتز بل زادت ، فتوعدت كـــل مـــن يفكـــر في مساعدتي بكل ما يخطر على البال من أنواع البطش ، وحذرتني أن الضربة التالية ســـتكون في ابني ، والثالثة ستكون نسفي ، ولم يكن الوقت في ذلك الحين مناسبا ، فقد كان رجال الملـــك يخشون الاضطرابات ، وأية وشاية من أي شخص ضد أي شخص أو أي شئ ، كانت تقـــابل بكل الشدة والحزم ، وربما التصفية الجسدية ، ثم أنني لم أقص هذه القصة إلا على الحاج محمـد فقط ، وبالتفاصيل التي حكيتها لك الآن ، وعندما عرف من تكون جلنار ، ومدى قرابتـــها للملك ، أيدني في عدم اللجوء إلى عائلة زيدان أو غيرهم ، ويعني بعبارة غيرهم هذه الســـفارة الفرنسية ، فقد حرصت والدتي على تسجيل اسمي في السفارة عندما ولدت ، واستخرجت لي شهادة ميلاد فرنسية ، هذا بالرغم من أن أبي سجلني في سجل المواليد المصري ، يعني أنا عندي جنسية فرنسية أيضا ، وقال الحاج بحكمته أنني لو لجأت إلى عائلة زيدان ربما تصبـــح حربـا شعواء ، لن يعرف فيها المنتصر من المهزوم ، أما عن اللجوء إلى السفارة الفرنسية ، فربما تنفـذ تهديداتها بقتلك ثم قتلي ، ثم أوضح لي أنني مادمت لا أرغـــــب في تدخلهم في حياتنا فمن الأفضل أن أبعدهم عن مشاكلنا ، وأنه ليس أمامي إلا أن أنشئك نشأة تفضل نشأة عبد المنعـم ابنها ، ثم وبعد أن تصل إلى السن والقدرة التي تمكنك من الوقوف في وجـــه العـــالم كلـــه ، وتستطيع أن تطالب بحقوقك ، هنا فقط يمكننا أن نفعل المستحيل ، وأولها استرداد إرثي من أبي ، ثم بعد ذلك إثبات حقوقنا في تركة الباشا واستردادها .."

فبادر إسماعيل بالسؤال :

• " وفيم الانتظار إذا ؟ تقولين أن الوالد ترك وصية لنا بكل أملاكه ، لابد وأن نبحث عنـــها ، ونسأل المحامي الذي كان يتولى أمور الوالد القانونية ، فلا بد وأنه تاركا عنده نسخة منها .."

وتذكرت شوق أن مسعده بعد أن أفاقت قليلا من مرضها بعد العلاج الذي وفره لها الأطبـــاء الذين أحضرهم إسماعيل لها ، همست لها لكي تبقي وتخلي الغرفة إلا منهما ، وفعلت ما طلبتـــه ، فألقت مسعده بنفسها من السرير ، وأخذت تنبش الأرض بأظافرها ، ثم أخرجت لهـــا صرتـــين ، إحداهما بها مجوهراتها وأشيائها الثمينة ، والأخرى بها المظروف الذي حرص الباشا على أن تخفيـــه وكل المستندات والأوراق التي وجدتها في الدار ، فقد كانت تصرفات الباشا توحي بالويل والثبور وعظائم الأمور بعد موته ، وبفطرتها وجدت أنه من الحكمة الاحتياط ، فبينما السيدة في حزنهـــا

وألمها على الباشا زوجها ، قامت مسعدة بالبحث في الدار عن كل شئ لــه قيمــة ، أمــوال أو مجوهرات أو أوراق ، تجمعها وتخفيها تحت طيات ملابسها ، كانت تخشى أن يقوموا بطرد السـيدة من الدار بعد موت الباشا ، أما عن الصندوق الذي كانت تحتفظ به شوق في غرفة نومها تحـت السرير ، فقد قامت مسعده بدفنه تحت " الكانون " في الحديقة خلف المطبخ مباشرة ، وجـاهدت أن تعمق الحفرة ما استطاعت وسمح لها الوقت حتى لا يصل إليه أحد ، وأخـبرت شـوق عـن المكـان الذي أخفته فيه ، وهي تعطيها صرة ملابسها وملابس ابنها ، وكانت دائما ما تسأل عـن أي ترميمات أو هدم في دار الست شوق ؟ وعندما رأتها ، حاولت جهدها لتسلمها الصرتـين ، وهي تحمد الله أنها استطاعت أن تفي لها بما في ذمتها ، وطلبت منها أن تخفيهما ، فقد ضاع منـها الزمـن ، وهي مازالت تتصور أن الأحوال هي الأحوال ، وأن جلنار مازالت تكيد لشوق وابنـها ، واعتذرت لها عن الظروف التي لم تمكنها من تسليمها هذه الأشياء قبل سفرها من الكفر ، فقـد كانوا يراقبون السيدة شوق بدقة متناهية ، أبصرتهم يرصدون كل تحركـات شـوق بنظـارات مكـبرة من قصر الباشا ، أما مسعدة فقد كانت لها حرية الحركة ، وشعرت بأن في الأمر شـيئا ، وعندما أخرجوا السيدة شوق من البيت ، كانوا من القسوة حتى أنهم لم يمهلوها الاسـتراحة في أي مكان ، من البيت إلى محطة القطار ، ومعها أكثر من مرافق ، حتى أوصلوها إلى شقة والدتهـا في جاردن سيتي ، لم يسمحوا لها حتى بوداعه الوداع الأخير ، ولا حتى بالتعبير عن حزنها عليـه بمـا يطفئ حرقة الفراق ، وأصدروا إليها الأوامر بـأن لا تفكر بالعودة إلى الكفر ، فهناك من المراقبين من يعرفون كيف يتعاملون معها ، ومنعوها من أن تفكر في الاستعانة بأحد ، فهي بذلك ستتسـبب في إضرار نفسها وابنها وإضرار من يساعدونهما .

ونهضت شوق سريعا وأحضرت صرة الأوراق التي أعطتها لها مسعدة ، وفتحتـها ، وأول مـا وقـع عليه بصرها ، كان ذلك المظروف الذي حرص الباشا وهو في الترع الأخير أن يعطيه لشوق ، ولما لم تكن في حالة تسمح لها بالانتباه لمثل هذه الأمور ، ألقاه لمسعدة ، وهو يـهمس بضـرورة تسليمه لشوق ، ولا أحد غير شوق . فضت المظروف سريعا ، وإذا بها تفاجأ بأن الباشا قد سـجل كل أملاكه باسمها هي وابنها ، ولا ثالث لهما ، والتسجيل موثق وعليه توقيع شهود ، لم يتعرفـوا على أحد منهم سوى لبيب عبد الباقي ، والوظيفة طالب بكلية الحقوق ، فمن غيره ، لابد وأنـه المتر لبيب ربيب الباشا وخادمه الخصوصي سابقا ، والوثيقة لا ينقصها إلا التنفيذ ، وتبـاحثت في الأمر مع ابنها ، كيف لهم استعادة الأملاك المسجلة تسجيلا رسميا باسمهما ممن قاموا بالاسـتيلاء

عليها بدون وجه حق ، وكان لا بد لهم أن يتعرفوا على حقيقة ما فعلته جلنار ، حتى يتمتع عبد المنعم أو أي شخص آخر بهذه الأملاك ، فقفز إلى ذاكرتها اسم لبيب أحد شهود الوثيقة المسجلة بأملاك الباشا لها ولابنها ، ذلك الصبي الذي جاء إلى الباشا بجلباب ممزق ، وادعى أنه يتيم ، ويريد عملا عنده ، حتى ولو خدام زريبة ، فتعهده الباشا ، وجعله خادمه الخاص ، ولما وجد لديه استعدادا للدراسة ساعده حتى أوصله لما هو فيه الآن ، فنادت خلفا وطلبت منه الاتصال بالمتر لبيب واستدعاءه ، كما كلفته بالبحث عن كل ما يخص الباشا من ممتلكات ، في الكفر أو في القاهرة ، أو في أي مكان آخر ، حتى ولو كان في اسطانبول بلد أجداده ، لكن إسماعيل كان ما يزال يبحث في الأوراق ، فوجد قسيمة طلاق الباشا من جلنار ، ولما أطلع والدته عليها ، ووجدت أن التاريخ قبل مصرعه بيومين فقط ، لم تتعجب من سرعة قيامها بقتله ، وما قامت به من تشريد لها ولابنها ، لكن إسماعيل كان ما يزال في بحثه بين الأوراق ، ليجد وثيقة البيع التي تثبت أن الباشا اشتري أراضي الكفر وما عليها من منشآت ، سواء كانت قصرا أو حظائر للمواشي أو الدواجن من المدعو محمد الجاويش ، بيعا وشراء ، والسداد تم منه مبلغا نقدا ، والباقي بشيكات على حساب الباشا بالبنك ، وقد سجلت أرقام الشيكات وتاريخ كل منها ومبلغه واسم البنك في وثيقة التسجيل . وكذلك عثر على وثيقة تسجيل قصر القاهرة ، بيعا وشراء من جلنار ، وأيضا سجل في ورقة مرفقة بالوثيقة أرقام الشيكات وتواريخها ومبلغ كل منها واسم البنك وفاء لكامل ثمن قصر القاهرة ، ووجد جميع مستندات شراء أرض عمارة الدقي ، ومصروفات البناء ، واسم المهندس والمقاولين ، وكل ما يخص تلك العمارة من مستندات ، وكذلك عقود إيجار السكان حتى قبل وفاته بأيام ، وبتوقيعه باعتباره المالك ، وكذلك الأمر بالنسبة لسندات الملكية لجميع ممتلكات الباشا ، حتى أرقام حساباته بالبنوك ، والمبالغ المحتفظ بها كودائع أو خلافه ، ولم يبق أمامهما إلا أن يجمعا كل المستندات التي تعيد الحال كما كان عليه ، ثم الطعن أمام المحاكم بكل ما يكون مخالفا لهذه الحقائق . لكن شوق مازالت تفكر في اسم عبد المنعم السلحدار ، وهل هو ابن الباشا ، أم ابن جلنار وسجلته باسم الباشا ، أم أنه غير مسجل باسمه وانما اشتهر به فقط ؟ ولماذا سجل الباشا كل أملاكه لها ولابنهما إسماعيل فقط ، كان لا بد لها أن تحصل على الدليل الذي يثبت عدم بنوة عبد المنعم له ، وفكرت أن تلجأ إلى باقي اخوة عبد المنعم ، أخيه وأخته وربما هناك آخرين ، وفكرت أن خير سبيل إلى ذلك هو أن توثق العلاقات مع أسرة السلحدار ، ربما تتمكن من معرفة السر ، وكذلك لابد وأن توثق العلاقة بأسرة عبد المنعم ، فقد تتمكن من التوصل إلى

معلومات تؤيد أو تنفي ، إذ ربما يكون الباشا رغبة منه في الكيد لجلنار ، حرم عبد المنعم من أملاكه بالرغم من أنه ابنه ، باعتباره ابن جلنار ، وهي لديها من الأملاك ما يزيد على ضعف أملاكه ، بمعنى أن عبد المنعم ليس في حاجة إلى أملاك الباشا وتكفيه أملاك أمه ، لكن إسماعيل عثر على ورقة ، تبين أنها شهادة ميلاد قديمة ، يتبين مما حدث لها أنها ربما كانت قد ألقيت بعد تمزيقها ، ثم تم انتشالها ومعالجتها لكي تبقى سليمة ، ودقق إسماعيل النظر في اسم المولود ، فوجدها باسم عبد المنعم ، ولكن الوالد ليس محمد إبراهيم السلحدار ، وانما محمد حسن الجاويش ، وكذلك اسم الوالدة كان اسما آخرا غير جلنار ، وتساءلا ، هل جلنار لها اسم آخر ، أم أن عبد المنعم هذا غير عبد المنعم السلحدار ، وإن كان ، فلماذا توجد هذه الشهادة ضمن أوراق الباشا ، إن وجودها ليس له سوى معنى واحدا ، وهو أن عبد المنعم ليس ابنه بالمرة ، وحتى لا تتلاعب جلنار بوسائلها الملتوية ، قام بتسجيل أملاكه باسم شوق وإسماعيل ، واحتفظ بشهادة ميلاد عبد المنعم قبل أن تتلاعب جلنار وتسجله باسم الباشا ، حتى تستطيع شوق أن تثبت عدم استحقاقه لمشاركتهم في الميراث ، وبالقطع هو ليس ابنا لجلنار ، لأن اسم جلنار المسجل في وثيقة قصر القاهرة ، يختلف تماما عن الاسم المسجل في شهادة ميلاد عبد المنعم الجاويش ، بمعنى أن جلنار هو اسمها الرسمي ، وهذا معناه أحد أمرين ، إما أن عبد المنعم السلحدار غير عبد المنعم الجاويش ، أو أن تكون جلنار زورت في شهادة ميلاد عبد المنعم الجاويش ليصبح عبد المنعم السلحدار ، وبالتالي يعامل معاملة ابنه في ميراثه منه .

وكان لابد من قراءة باقي المستندات ، وجدا الوصية التي أوصى فيها الباشا بكل ممتلكاته لزوجته شوق وابنه إسماعيل ، ثم فوجئا بوثيقة تثبت اعترافه بأن عبد المنعم ليس ابنا له ، وأنه ليس له أولاد سوى إسماعيل ، وقد وثقها في الشهر العقاري ، وعليها شهادة شهود من بينهم لبيب عبد الباقي أيضا ، ولعله لم يكن واثقا من قدرة شوق على مواجهة جلنار وعصابتها ، فتفقد بذلك ميراثها وابنها منه ، وهذا يعني أن الرجل لم يكن يثق في جلنار ، وكان يشعر بأنها تدبر شيئا في الخفاء ، فوضع كل التحسبات لهذه الظروف .

أرسلت خلفا ، فهو تلميذها النجيب ، وقد وجهته لدراسة الحقوق حتى يصلح في مثل هذه المهمات ، فجاءها بمعلومات خطيرة ، إن اخوة عبد المنعم ليسا سلحدار ، وانما هما باسم محمد حسن الجاويش ، واسم الوالدة هو ذاته الاسم المدون في شهادة عبد المنعم الجاويش ، وجاءها

بنسخ من شهادات الميلاد هذه ، كما جاءها بشهادة ميلاد عبد المنعم السلحدار من الكفر ، الأب محمد إبراهيم السلحدار ، والأم جلنار اوزال أغا ، لكن هناك فرق بين تاريخ ميــلاده بالشــهادة القديمة عنه بالشهادة الأخرى يزيد على خمسة أعوام ، هناك شئ غير مفهوم ، وتساءلت إن كــان المتر لبيب قد شهد على وثيقة نقل ملكية أملاكه لشوق وإسماعيل ، وكذلك على شهادة منه بأنــه ليس له أولاد غير إسماعيل ، فلا بد وأنه يعرف تفاصيل ما فعلت جلنــار في التركــة ، ولامــت إسماعيل أنه عامله بقسوة ليلة اتفاقه مع عبد المنعم على إرجاع الدار والأرض ، وتحديد موعد عند المحامي سعد الله ، كان يجب أن يشعر لبيبا بأنهم سيوكلونه في هذه القضية ، فمن لا تحتاج لوجهــه اليوم ، قد تحتاج غدا لقفاه ، ومن هو المتر لبيب ؟ إنه ربيب الباشا ، كان كاتبا عنده في العزبــة ، وشجعه على الدراسة حتى حصل على شهادة الحقوق ومارس مهنة المحاماة ، فلابــد وأن يحفــظ للباشا فضله هذا ، ويخدمه في تمكين ابنه وزوجته من الحصول على أملاكه التي شهد بنفسه علــى الوثائق التي تثبت أنه لا ثالث لهما في هذه الممتلكات والأموال .

كانت شوق بالنسبة للمتر لبيب أحد نجوم السماء البراقة التي لا يمكنه النظر إليها ، فقد كــان الباشا يود لو يضعها بين أضلعه ، ويقفل عليها هذا القفص ، فلا يراها أحد ، ولا ترى أحــدا ، وكانت أمنية المتر لبيب أن يراها ، فما بالك أن يلمسها ، لذلك ما أن رآها في الدار ذلك اليوم ، حتى أقبل عليها يقبل يديها بلهفة من وجد كنزا ، فقد كانت عالية جدا ، وأمنية عزيــزة علــى جميــع العاملين عند الباشا أن يشاهدوها فقط ، مجرد مشاهدة ، فما سمعوه عن جمالها كان يفــوق كل وصف ، لذلك لم يصدق نفسه عندما لقف يديها بين يديه ، فــانحنى يقبلــها علــى طريقــة أرستقراطية الأجانب ، بنفس طريقة إسماعيل عند سلامه على ميشو هانم ، كانوا لا يطلقون عليــها إلا الست الخواجاية ، والخواجات في مصر ، كانوا سادة ، وكانوا ربما أكثر من السادة ، فمــا أن اتصل به خلف يدعوه لزيارتها في قصر جدها لأمها ، حتى لبى سريعا ، فما كان له أن يتأخر ، كله رزق ، طلب يعنى عمل يعني رزق ، ثم مع من يتعامل ، مع الخواجاية التي تنصف ولم تخذل ، فكــم من محتاج أنصفته أكثر مما كان ينصفه الباشا ، بسخاء ونفس كريمة ، ولن تبخل عليه ، فقط يظهر أمامها بمظهره المسكين أيام أن كان يعمل كاتبا في عزبة الباشا ، أعطته الأوراق وقالت له :

وانتظرت لترى تأثير هذه المفاجأة عليه ، فإن كان شريكا لعبد المنعم وجلنار فيما فعلاه ، فسوف يظهر عليه الارتباك ، وهنا تستطيع أن تتعامل معه باعتباره شريكا لهما في هذه المؤامرات الدنيئة ، وأن تربية الباشا له واهتمامه به ، لم يفلحا ، لأنه خسيس ، وهي لا ترغب في التعامل مع هذه النوعية من البشر . وصدق حدسها ، فقد تصبب العرق منه ، وظهر تردده في الكلام ولعثمته ، فقالت له بشيء من الهدوء :

- " لقد كنت أنوي توكيلك عنا في استرداد ما تم انتزاعه منا ، لكن من الواضح أنك متورط معهم في كل ما فعلوه ، وهذا ليس له سوى رد واحد فقط ، وهو ضرورة أن يترك عبد المنعم الأرض والقصر في الكفر ، والقصر والعمارة في القاهرة ، وكذلك باقي الأملاك والأموال التي استولى عليها ، وينقل الملكية لي ولابني ، وكذلك هذه المدعوة منى التي تمتلك شقة في العمارة ، وتنهي هذه المشكلة بدون أن تعرض ابني إسماعيل لأي مشاكل مع هذا المدعو عبد المنعم ، وكما ترى أن التسجيل تم قبل وفاته بأيام ، وربما كان هذا هو السبب الذي عجلت فيه جلنار بقتله .."

وسمع لبيب كلمة قتل هذه ، فازداد عرقه ، وتوقف فمه عن الكلام كلية ، وتحسست السيدة أن هذا الملعون ربما كان شريكا في عملية القتل ، وتعجبت من أحوال الناس ، كيف لربيب نعمة أن يقتل سيده ، كيف له أن يقطع عمر من تفضل عليه من فضل الله ، فأعاله وأعانه وساعده حتى وصل لما هو فيه الآن ، وتوعدته في نفسها ، أنه إن لم يقم بما كلفته به ، فسوف تذيقه من نفس الكأس الذي شربوا منه هي وابنها والباشا .

أخذ لبيب يعيد حساباته ، فقد كان عمله مع عبد المنعم وزوجته واخوته ، امتدادا لعمله مع جلنار ، لذلك فقد كانت معاملتهم له على أنه خادما وليس محاميا ، عاملوه بنفس الطريقة التي كانت جلنار تعامله بها ، أوامر تطاع ، فإذا قصر يبقى يا ويله ، وميشو هانم تجيد هذه اللعبة جيدا ، فهي ناعمة جدا مع الجميع إلا مع خدمها وحاشيتها ، لكنه يريد أن يكسب من الجانبين ، فلا بد وأن يتلاعب ببعض الدهاء ، فقال لها بعد أن استعاد رباطة جأشه ، وحاول أن يظهر بعضا من الثبات :

- " أنا في خدمة الباشا ومدام الباشا وابن الباشا ، فأنا لن أنسى أن الباشا هو السبب فيما أنا فيه الآن ، لقد آواني ، ورباني ، وعلمني ، وساعدني حتى التحقت بالجامعة وأصبحت المحامي لبيب

عبد الباقي ، لكن كيف نبدأ في هذه الإجراءات ؟ هل سنلغي اتفاق إسماعيل بك مع أخيه عبد المنعم ..؟ "

وهنا ثارت عليه السيدة شوق ، بنفس الطريقة التي كان الباشا يتعامل بها معه عندما يثور ، حتى تذكره من تكون ومن يكون ، ثم قالت :

- " قلت لك أن الباشا سجل كل شئ قبل وفاته باسمي أنا وإسماعيل ، عبد المنعم هذا ليس له وجود في حياة الباشا أو في تركته ، هل فهمت ..؟ يعني لا يوجد مبرر لاتفاقات أو خلافه يا متر ، وانما يوجد نقل ملكية ، وبدون إزعاج ولا شوشرة ، أعتقد أن الأمر مفهوم بهذه الطريقة ، إذا تمكنت من القيام بهذا العمل بدون أن تثير مشاكل ، كان بها ، وإلا .. فعندي بدل المحامي ألف ، وكلهم من الكبار جدا ، وفي هذه الحالة ، وأنا أعلم جيدا أنك متواطئ مع جلنار وابنها في كل شئ ، سيصيبك ما يصيبهم وربما أكثر ، لأنك محامي كبير ، وتعرف القانون جيدا ، وليس لك أن تخطئ أو تخالف القانون ، فإن كان في الأمر تزوير .. أو مغالطة .. أو غش ،كل شئ يمكن أن نكشفه ، ولن أرحمك ، ولا تظن أنني لجأت إليك لأنني عاجزة ، ولكن حتى لا تتغير صورتي عند من كان يعمل عند زوجي ، وأحذرك من أي تلاعب .. مفهوم ؟"

ثم نهضت منهية بذلك اللقاء معه ، وأخذت منه الأوراق ، ونادت على الخادمة الأجنبية ، وأشارت إليها ، فإذا بها تقف قبالته ، ناظرة إلى الباب الخارجي للقصر ، ولم يكن أمامه إلا أن يخرج ، لكنه تلكأ ، فقد تأكد له أن معاداتها ليست في صالحه ، فنظر إلى السيدة شوق باستعطاف ، أن تسمح له أن يصلح أخطاءه التي ارتكبها في حقها وحق إسماعيل ؛ وقص عليها القصة من بدايتها ، وكأنما هو بذلك يظهر حسن نيته :

- " لم يكن الباشا رحمه الله يثق في أحد غيري ، وقد كانت مدام جلنار كذلك ، فما أن توفي ، حتى قاموا باستدعائي ، وبعد وفاته وإخراجك من الدار قمنا بأخذ بصمته على مستندات البيع لابنها عبد المنعم ، وبعلاقاتي بالكتبة في الشهر العقاري ، تمت أعمال التسجيل .."

وقاطعته السيدة شوق :

- " قلت ابنها عبد المنعم .. من أين لها بهذا الابن .. إنها لم تكن قادرة على الإنجاب ، فقد تجاوز سنها تلك الفترة ، فمن قال لك أنه ابنها .. ثم أن السفير وأخته لا يشتركا معه في

الأب ولا من الأم ، فكيف يكونا شقيقيه ؟ حذرتك أن تكذب أو تستخدم أساليبك وألاعيبك ، أم أنك لا تعرف القراءة ، ألم تقرأ الشهادة التي وقعت أنت عليها شاهدا ، بأن الباشا ليس له أولادا سوى ابنه إسماعيل ؟"

وتعمدت التصمت لترصد رد فعله ، وقد بدت العصبية في تصرفاتها ، ثم أكملت :

- " قلت لك أنني لست في حاجة إلى خدماتك ، ولكني أردت أن أسدي لك جميلا ، بأن تعيد الأمور إلى ما كان يجب أن تكون عليه ، فلماذا أقدمت على هذا التصرف الأحمق ، الذي سينتهي بك إلى السجن بتهمة التزوير أولا .. وربما بتهم أخرى ."

وبدأ المتر لبيب يرتجف ، لقد كانت في حاجة لمعرفة كيف تم التزوير ، وقد عرفت ، بصمة الباشا على العقود والسجلات بعد وفاته ، وعندما يحضر خلف من الكفر ستعرف المزيد . فطردته وهي تتوعده ، إذا لم يقم بإصلاح الأمر ، أو سرب أية معلومات إلى عبد المنعم وزوجته ، فسوف تنتقم منه شر انتقام . وكانت تنتظر نكوصه ، إذ أنه عندما هم بدق الجرس وجد الباب يفتح ، ووجدها في انتظاره ، والأوراق أمامها مشرعة ، احترم ذكاءها ، وفهم أنه لا مجال أمامه إلا الاعتراف بقدرتها على أشياء كثيرة ، قالت :

- " هل تعرف أنني من عائلة زيدان ..؟"

وتلعثم المسكين ، فالمعلومات التي لديه من أفلام كثيرة صورت في سوق الخضار ، يعرف جيدا أن عائلة زيدان هم ملوك سوق الخضار والفاكهة ،فأين يمكنه أن يهرب منهم ، إذا هي تذكره بمن تكون ، وهذا تهديد مبطن ، فإن كانت جلنار استعانت في العهد السابق بحاشية الملك في فرض نفوذها وتسوية كل ما تريد ، فقد ولى هذا العهد ، أما عائلة زيدان فباقية ما بقي رجالها ، عائلة زيدان ليس لها علاقة بعهود تذهب أو تأتي ، فأين المفر ، وحتى عبد المنعم أو اخوته ، فليس لهم الأهمية الكبيرة التي لعائلة زيدان ، إن الامتناع عن تزويد سوق الخضار والفاكهة يوم واحد ، كفيل بأن يؤدي إلى مجاعة في القاهرة ، التي أصبحت هي مصر تقريبا ، إذ يتركز فيها أكثر من ثلث عدد السكان ، هذا بخلاف السياح والسفارات والمقيمين العرب والخليجيين ، وغيرهم كثيرين ، مسكينة القاهرة العظيمة ، التي تحمل كل هؤلاء ، دون أن يكون لها مصدرها الطبيعي والدائم من الأمن الغذائي ، زمان كان لها هذا المصدر ، فحتى قصور الملك في القاهرة ، كانت حدائق فواكه ، وتحيطها الحقول من كل جانب ، لكن اللوم على مخططي هذه الأيام ، إنهم لا

يهتمون إلا بالشكل الجمالي ، والإسكان ، وطز في الطعام . دارت بمخيلته هذه الصورة بسرعة ، فاعتدل في جلسته ، وقال :

- " ليس أمامي إلا قطع أوراق السجل الذي سجلت فيه عقود البيع من الباشا للمدعو عبد المنعم .."

لم تسأله كيف ، ولكنها ذكرته بالملفات التي يحتفظون فيها بنسخ عن هذه العقود ، وأنه إذا أراد أن يكذب ، فلابد وأن يكون الكذب متناسق ، الأوراق والمستندات وكل شئ ، في الشهر العقاري أو عندهم ، يعني إلغاء كل ما قاموا به بالنسبة لجميع الأملاك ، أما الأموال التي كانت في البنوك ، أو التي استولت عليها جلنار باسمها أو باسم عبد المنعم ، فهي تعرف جيدا كيف ستعيدها مع أرباحها ، وكذلك مقابل استغلالهم للممتلكات منذ وفاة الباشا وحتى عودتها إليهما ، لقد دبروا قتله مسموما ، وهذه قضية أخرى عليها أن تجمع أدلتها ، وأعادت عليه أنها ليست في حاجة إلى خدماته ، وأنها تستطيع أن تفعل كل شئ طلبته منه ، لكن الثمن الذي سيدفعه ، سيكون غاليا جدا .

حمد الله أنه لم يشارك مشاركة فعلية في عملية القتل هذه ، لكنه هو الذي أرسل خادمه لشراء السم ، وبدا له أن يسأل أحد زملائه المحامين ، هل يمكنه أن ينكر علمه فيم سيستخدمونه ؟ وماذا يقول إذا سئل ؟ إنه يعرف أنه لابد وأن يقول الحق ، فهناك قسم ، وهو محامي لا يريد أن يخسر اسمه وسمعته لإخفاء معالم جريمة ، ولكن ماذا لو سئل عن سكوته ؟ وهل هناك قانون يعاقب من يقصر في الإبلاغ عن الشك في وفاة ؟ أو الإدلاء بمعلومات عن ارتكاب جريمة قد يكون الأمر غير ذلك ، فيصبح هو المتهم بإقلاق السلطات والبلاغ الكاذب ، وأمور كثيرة لابد وأن يكون حصيفا فيها ، لم تغمض له عين في تلك الليلة ، ولأول مرة يتعهد بالقيام بعمل دون أن يسأل عن الأتعاب ، بل إن أمر الأتعاب أصبح لا يهمه بقدر اهتمامه بأن يخرج من هذه الورطة دون مسؤولية تلوث اسمه ، وربما تزج به في السجن ، إن لم يكن الإعدام .

لديه أكثر من وكيل محامي ، وكلهم طوع بنانه ، ومستعدون لعمل المستحيل ، كلف كل منهم بمهمة ، وجاءوه آخر اليوم بحصادهم ، أحدهم أحضر سجل الشهر العقاري من الكفر ، وضعه داخل أحد ملفات القضايا وخرج به دون أن يشعر به أحد ، والثاني فعل نفس الشيء بسجل القاهرة ، وثالث بحث ونقب حتى توصل إلى غرفة الملفات ، وببضع جنيهات لعامل البوفيه استطاع

الوصول إلى ملفات التسجيل العقاري لتلك السنة كلها ، يبحث كيف يشاء ، ولكنه لم يستطع أن يأخذ أي من المستندات أو السجلات ، رغم أن المتر لبيب يدفع بدون حساب ، فتجمعت لديه كل المعلومات ، ولم يبق سوى ما يحتفظ به عبد المنعم في قصر الباشا بالقاهرة . وسجل كل المعلومات التي توصل إليها ، وذهب إليها كالعائد من حرب شرسة منتصرا ، وذكر لها المستندات التي مع عبد المنعم ، فسألته :

• " كيف يمكن مباغتتهم بنفس الطريقة التي باغتوني بها ..؟"

شرح لها القانون ، إنهم مغتصبون ، ولها الحق في اللجوء إلى القضاء لإثبات ذلك ، فقالت :

• " قانون يعني دعاوى وقضايا وجلسات وتأجيل .. وتسويف .. وهذه تأخذ سنين .. وأنا في عجلة من أمري ، أريد أن أكيل لهذا العبد المنعم بنفس المكيال الذي كالته لنا جلنار .."

ثم استدركت ..

• " ألم أقل لك ، لقد تبين أن الهانم تبنت أبناء قريبها حبيب قلبها الذي كانت تريد الزواج به قبل الباشا ، فقد أفلس وانتحر في إحدى موائد القمار ، ولما كانت تكرهني وتكره الباشا وتكره ابني إسماعيل ، فقد دبرت كل شئ لتحويل ثروة الباشا إلى عبد المنعم بعد أن سجلت عبد المنعم نفسه باسمها باعتبارها أمه والباشا باعتباره الأب ، وأنت تعلم أن تسجيل المواليد زمان ، كان يتم بالإبلاغ عنهم لمكتب الصحة ، ولا توجد وسيلة للتحقق مما إذا كان فلان هذا ابن أبيه المثبت في شهادة الميلاد ، أم أنه ابن أحد آخر غيره ، ولذلك كان التسجيل يتم بمجرد أي إخطار من أي صاحب مصلحة ، وهكذا سجل عبد المنعم باسم الباشا ، لكنه لا سلحدار ، ولا يمت للباشا بصلة ."

مط شفتيه من خطط جلنار الجهنمية ، مدعيا البراءة ، فنظرت إليه نظرة أرعبته ، فاعترف باشتراكه في هذا ، فقد قام بتسجيله في مكتب صحة الكفر بنفسه ، وقد كان عمرة آنذاك أكثر من خمس أعوام ، فطلبت شهادة ميلاده التي سجله فيها ابنا للباشا ، فهز رأسه بالإيجاب كتلميذ بليد في امتحان صعب ، فقالت :

• " إذا أنت تملك هذه الشهادة ، لماذا يا شاطر لم تحضرها معك ، وكذلك الشهادات التي تثبت أن جلنار لم تكن قادرة على الإنجاب منذ ما قبل زواجها من الباشا ، وإذا لم تكن عندك هذه

المستندات ، فعليك إحضارها أو إحضار ما يثبتها ، مفهوم ، باكر قبل المغرب ، تكون كل هذه المستندات عندي ، وكذلك مستندات الملكية التي لدى عبد المنعم .."

كانت صارمة بأكثر مما تكون الصرامة ، ولا يدري ماذا يفعل ، لقد استفاد من هذه الجرائم أرضا زراعية تصل مساحتها إلى خمسين فدانا ويزيد ، وكان نصيبه مجموعة من الأسهم والسندات التي باعها في البورصة ، ومن ثمنها إضافة إلى نصيبه من الأموال النقدية التي كانت بالبنوك ، أقام صرحا أطلق عليه اسم عمارة لبيب ، وبذلك زرع لنفسه مكانة في منطقته ، ما كانت تداينها مكانة عبد المنعم السلحدار نفسه ، ذلك أن عقد الفقر والمسكنة والخنوع وقلة الحيلة ، كلها بلورها في المنظرة على خلق الله ، وليزرع لنفسه مكانة في بلدته ، استقدم للعمل عنده في الأرض أهله أولا حتى يكونوا عينه على باقي المزارعين الغلابة من بلدياته ، رأوه كبيرا فهابوه ، وسمعوا عن ما يحدث لكل من يخالفه فخافوه ، وعلموا بألاعيبه التي يستخدم فيها القانون ومعارفه في النيابة أو أقسام البوليس ، وبمساعدة من عائلة عبد المنعم وأقربائه ، فعملوا له ألف حساب ، وكذلك كان الأمر مع سكان عمارته ، كانت له أساليبه التي يستخدمها بذكاء ودهاء وكلها قانونية ، فمن يخالفه أو يحاول اللف والدوران معه ، يجد أثاث بيته في الشارع ، يباع بالمزاد العلني ، وبسرعة ومباغتة لا يستطيع معها المغلوب على أمره فعل شئ .

كل هذا سيضيع يا لبيب لو ضاع عبد المنعم ، وليس أمامه سوى التسويف بالأسلوب الذي تعوده وعمل به لأكثر من عشرين سنة ، حتى أصبح بحق ملك ضياع الحقوق باستخدام أساليب التسويف واللف والدوران حول القانون والعدالة ، ومن تكون هذه الخوجاية حتى تقف أمامه أو تتحداه ؟ إن له معها مشوار طال أو قصر فلن تحصل على شئ .

● " وتبقى تقابلني لو طالت مليم " .

كانت الفيلا في حالة من الإهمال والفوضى والقذارة بشكل يدعو للدهشة ، لم تصدق الحاجة جميلة ، أن هذه هي الفيلا التي كانت تعيش فيها منذ أكثر من عشرين سنة ، كيف استطاع ساكنوها أن يتحملوا هذا الإهمال وهذه الفوضى ، وكانت الفتيات وسعاد معهن قد جابوا الفيلا غرفة غرفة وركن ركن ، ووجدوا أنها فوق ما كان يمكن خيالهن المتواضع أن يتصور من الاتساع وفخامة التصميم والبناء ، واختارت كل منهن غرفتها ، أما غرفة الحاج والجميلة ، فقد كانت محددة من تلقاء نفسها ، فهي الغرفة الرئيسية بحمامها المستقل ، واختارت سعاد غرفة طه بالطابق الأرضي ، بجوار غرفة المكتب مباشرة ، حتى لا يزعجهن ، ولا يزعجنه .

واشتركت الحاجة وبناتها وكذلك سعاد ومبروكة وزوجة البواب وبناته في أعمال نظافة مجهدة ، حتى أن الحاج عندما عاد من صلاة الظهر بالجامع المجاور ، وجد الفيلا وقد بدت في حلة جديدة من النظافة ، ولكنها تحتاج إلي إعادة صبغ في الداخل ومن الخارج ، والباركيه في حاجة إلى كشط وتلميع ، والأثاث .. الأثاث كله بالرغم من فخامته ، لكنه قديم وبه من العيوب والكسور ما يجعله كله في حاجة إلى تبديل ، لم يحدث عليه أي تعديل أو تبديل منذ أن غادر الباشا الفيلا ، وربما قبل ذلك بكثير منذ قانون الإصلاح الزراعي ، حتى لكأن هناك من الأرجل المكسورة ما تم استعاضتها بقوالب من الطوب الأحمر ، أو تم إصلاحها بشكل غير مهني ، والوقت لا يسمح ، وطه قادم ، فما العمل ..؟ وأفضي الحاج إلى زوجته بما يجول بخاطره ، من أن الفيلا لم يحدث عليها أي تعديل منذ أن دخلها لأول مرة ، وأنه من الأفضل العودة إلى شقتهم فهي أولى بهم ، لكن السيدة أوضحت له بشيء من الأسف ، أنه حتى شقتهم في حاجة إلى تبديل وتعديل ودهان وتغيير أثاث ، أي أن كل ما تحتاجه الفيلا ، تحتاجه الشقة أيضا وأضافت :

- " أظنه من الأفضل أن يأتي زملاء الدكتور ، أو ضيوفه ، أو وسائل الإعلام ، لزيارته في الفيلا ، بدلا من شقة في الطابق الثالث عشر ، وإذا كانت كل من الفيلا والشقة تحتاجان إلى تغيير شامل ، يبقى التغيير في الفيلا أنسب .."

هو لا يستطيع محاجاتها ، فهي قوية الحجة ، والكلام منطقي ، وقبل أن يبادر بأي شئ ، أكملت :

• " ثم إن اللي انت خايف عليهم ، دبروا أمورهم كويس قوي ، يعني مـا تشـيلش همـهم .. وبعدين انت قدها وقدود ورجل المهمات الصعبة ، اللي خلاك تبني عمارة من كام دور في سنة وكام يوم ، مش حتقدر تقلب الفيلا دي كلها في يوم والا يومين .. وربنا يساعدك .."

ولم يجد الحاج بدا من الرضوخ ، فقال :

• " بس الكل لازم يساعد .."

فنظرت إليه ولسان حالها يقول له ، " وهل وجدت منا تقصير " ، فقام الحاج من فوره بالاتصال بمكاتب الديكور ، لكنه وجد أن الوقت الذي حدده أنشطهم لإنهاء الأعمال لا يقل عن شهر ، ولم يجد إلا أن يقوم هو وعائلته بكل العمل ، لكنه رجل ديموقراطي ، فإشراك العائلة في هـذا الأمـر يحتاج إلى موافقتهم ، فسألهم بصوت عال :

• " هل لديكن استعداداً للعمل الجاد والمضني ؟"

وتعجب الحاج من الإجابة الجماعية بالإيجاب التي صدرت عن البنات وكذلك زوجتـه ، فقـام بالاتصال بمكاتب كشط وتلميع الباركيه ، مشترطا البدء في العمل إعتبارا من مساء اليوم ، وقـام بالاتصال بمقاول الدهان الذي يتعامل معه ، وطلب منه ضرورة البدء في دهان الأسقف إعتباراً من تلك اللحظة ، على أن يكثف العمل بأكثر من عامل حتى يمكن الانتهاء من العمل قبل صباح الغد ، وكذلك الانتهاء من دهان الواجهة قبل مساء الغد ، علي أن يستكمل باقي الدهانات الخارجيـة خلال أسبوع على الأكثر ، وسارع بالاتصال بالكهربائي محددا له يوم واحد للانتهاء من أعمـال الإنارة وتقوية الشبكة بما يسمح بتشغيل أجهزة التكييف ، وحدد مكافآت لمن يلتزم بإنهاء الأعمال في الوقت المحدد وبالكفاءة اللازمة ، كما حدد غرامات رادعة للمقصر سواء في الوقت أو الكفاءة ، وأصدر أوامره باستدعاء عم محمدين وأولاده لمساعدة بواب الفيلا كمالي وأولاده و بالاشـتراك مع السائق محروس في نقل الأثاث وتخزينه في السرداب ، بينما مبروكة وزوجة البـواب وبناتـه عليهن إعادة النظافة ، والتركيز على الحمامات والمطابخ بعد الانتهاء من اصلاح السباكة ، الـتي بدأ فيها العمال فوراً ، وأمر كمالي بإحضار البستاني ومعه من يلزم للانتهاء من إعـداد الحديقـة قبـل غروب الشمس ، وأخذ بناته وزوجته وسعاد في السيارة وتوجه مـن فـوره إلى محـلات الديكور ومحلات الأثاث والستائر ، حيث قامت البنات باختيار ورق الحائط ومستلزمات الديكور والأثاث المناسب لغرفهن ، بينما تولت الحاجة اختيار المناسب للبهو وغرفتها ، وهمـت باختيـار

المناسب لغرفة الدكتور طه ، إلا أن سعاد كانت قد سبقتها ، فتهامست البنتـــان ، بينمـــا شـــعر الحـــاج بالسعادة أن سعاد بدأت تهتم بأمور طه ، وتبادل مع زوجته نظرات الرضا .

وعاد الجميع ليفاجأوا بالانتهاء من دهان أسقف الطابق السفلي من الفيلا ، وأصبح المجال أمامهم للانتهاء من لصق ورق الجدران للطابق الأرضي ، الحاج يقيس ويقطع ، والوالدة تضع الغـــراء ، والبنات وسعاد يلصقن ، استأثر البهو بالأولية ، وبمجرد الانتهاء من تغطية الجدران وصل عمـــال الباركيه ، وبدأوا بالكشط والتلميع بينما صعد فريق العمل إلى الطابق العلوي ، حيث انتـــهت دهانات أسقفه في وقت قياسي ، وقبل أن تقارب الساعة منتصف الليل ، كان الفريق قد أنهى لصق ورق الجدران ، بينما أنهى رجال الباركيه كشط الأرضية والتلميع ، وظهرت الفيلا من الداخل في حالة أكثر من رائعة ، فصحبهم الحاج في السيارة إلى شقتهم القديمة .

وفي الصباح الباكر حضرت سيارات الأثاث حيث تم فرش الغرف والصالونات وفقا لما كـــانت تقترحه البنات أو الزوجة أو الدكتورة سعاد ، وقبل المغيب ، كان عمال الطلاء قد انتـــهوا مـــن الواجهة ، والبستاني أعد الحديقة كأحسن ما تكون تنسيقا وإزهارا ، والفيلا تتلألأ في أضواء غامرة ، والسباكة تم إصلاح المعطوب منها وما كان أكثره ، والغرف تم إعدادها ، وهدأت الحركـــة ، وركن الحاج إلي بعض الراحة ، أعفى إغفاءة طويلة أنسته موعد وصول الدكتور طـــه ، ومـــا أن دبت الحركة في المنزل ، حتى نهض منزعجا ، ومع تذكر الموعد ، ساعدته زوجته في ارتداء أحلـــى وأشيك حلله ، واصطحب باقي أفراد العائلة ، وذهبوا لإحضار الدكتور طه ، قاد هـــو الســـيارة وجلست زوجته ومهجة إلي جواره ، أما بناته والدكتورة سعاد فقد جلسوا في الكنبة الخلفيـــة ، وبدأتا الحديث مع الدكتورة سعاد عن عريسها القادم ، ولابد من أن تكون على استعداد نفســـي وعصبي حتى تسعد بهذا اللقاء .

لم تنته مراسم الاستقبال بسهولة ، فقد امتلأت الصالة برجال الصحافة والإعلام محليا وعالميـــا ، وكذلك عمداء وأساتذة كليات الطب والصيدلة والعلوم ، وكذلك حضر جمع غفير من المـــهتمين بالشؤون الطبية ، منهم من يعرفه حق المعرفة ، تقابلوا في مؤتمرات أو مقابلات أو عملوا معـــا في عمليات ، ومنهم من اكتشف أنه من تلاميذه وأنه كان يظنه أمريكي ، ليكتشف أن الخطاب الذي أرسله معه إلى عميد كليته أو إلى مدير المستشفى التي يعمل بها ، لم يكن إلا توصية منه كانت سببا أساسيا في تعينه ، ومنهم من عاتبه عتابا قاسيا على إخفاء مصريته ، إما بالمداعبة ، مذكـــرا إيـــاه

ببعض المواقف التي كان طلبته يعانون منها ، أو من قبيل التوبيخ ، عن كيف يتنازل عن جنسيته بهذه السهولة ، وكان رده مفحما :

- " هل هذا يغير من حقيقة كوني مصريا ؟ هل إذا تغيرت الجنسية في جواز السفر تتغير الشخصية ؟ لقد كان هذا لصالحي ولصالحكم ، فأنتم تعرفون الميول العنصرية في أمريكا ، وأثرها المدمر على طالبي العلم من أبناء العالم الثالث ونحن للأسف منهم ، زمان كانت العنصرية أبيض وأسود ، ولما انتهت إلى حد ما ، ظهرت العنصرية ضد الجنس الأصفر ، جنوب شرق آسيا وما بعدها ، ولا أدري في الحقيقة ، ماذا ستكون العنصرية القادمة التي سيبتدعونها ، ومن أعجب أمور العنصرية في أمريكا حقا ، تلك التي ضد الهنود الحمر ، الأصحاب الحقيقيين لأمريكا ، أمريكا قد تكون مباحة لجميع خلق الله يهاجرون إليها ويتمتعون بحقوق المواطنة فيها ، إلا أصحابها الحقيقيين ، تماما كما هي جارتنا المفروضة علينا ، ولو كان ساستنا وعلى رأسهم المنظمة التي هي غير منظمة ، حصيفين في استرداد الحق الفلسطيني ، لسألوا عن حق الفلسطينيين في التوزر أو الرئاسة في دولة كانوا يمثلون فيها الأغلبية ، وربما ما زالوا .."

ويقتنع السائلون ، ولا يطيلون ، أما وسائل الإعلام المحلية ، فقد استغلت هذا الحدث ، لكي تذكر بأبنائنا الذين أثبتوا وجودهم في العالم الغربي وأمريكا ، وها هو أحدهم يعود إلى بلده مظفرا ، بعد أن .. وأن .. وهكذا تتعدد المجاملات ، لكن ما أن تُطفأ الأضواء ، ويعود كل إلى مكانه ، حتى يصبح كلُّ شيء في خبر كان ، ولا يتجدد إلا إذا جد جديد يُذَكِّر بأبنائنا من العلماء ، هؤلاء النجوم الذين يثبتون وجودهم بجداره في العالم كله ، كما أثبتوه في مصر . استقل طه مكانه في السيارة إلى جانب عمه ، والدكتورة سعاد في الوسط ، وفي الخلف ، الحاجة جميلة وبناتها ، علق طه تعليقا جميلا عن بنات عمه القطاقيط ، فقد ترك الكبيرة منى في سن لا يجاوز السادسة ، وأصبحن الآن عرايس حلوين ، وليسوا حلوين وفقط ، ولكن حلوين جدا ، قالها بتعبير إنجليزي ، صدر عنه بعفوية مطلقة ، أما مهجة ، فقد تعلق بها واحتضنها ، وهو يشيد بها ، ذلك أنه لم يرها قبل سفره ، ثم عقب بعد ذلك في مقارنة بين الجمال المصري والجمال الغربي عموما بقوله :

- " من العجيب حقا أنك ترى فتيات الغرب من بعيد ، جميلات رشيقات ، ولكنهن لسن في جمال وطعامة بنات مصر ، فالسمار أولا ، هو طابعنا ، أما البياض والشقار ، فهو قد يكون دخيل علينا ، إما من الفرنسس أيام لويس وحرب الصليبيين ، وإما من الأتراك (ونظر إلى زوجة

عمه وهو يبتسم طلبا لمسامحته) أو غيرهم ، لكنك لو قارنت المصرية من أي لـــون ، سمــراء كانت أو شقراء ، بأي من بنات جنسها ، لوجدت لها طعما آخر ، جمالها من نـــوع خـــاص ، إختصها به الله ، ربما لمياه النيل العظيم هبة الله لمصر ، وربما للجو الجميل والأرض الطيبة ، هذا عن الجمال الرباني ، أما عن خفة الدم ، فحدث ولا حرج ، فقد كانت سعاد فاكهة من بـــين مجموعتها ، وبالرغم من أن قفشاتها كانت تعتبر من قبيل الممنوعات في محاضراتي ، لكنها كانت استثناء في كل شئ ، ولم أكن أضحك إلا بعد عودتي إلى شقتي ، وأتذكر كلماتها وتعليقاتهـــا ، وأظل أضحك مدة من الزمن من كل قلبي سعادة بها ، لكن هذا ليس جديدا عليها ، فطالمـــا كانت هي البسمة الجميلة التي نسعد بها في العائلة .."

ثم قهقه ، وهو ينظر إلى سعاد ويهمس :

• " شفتي بقي إنه مفيش في القلب غيرك انت يا جميل .."

وادعى عمه أنه لم يسمع ، بينما احمر وجه الفتاة ، وتلعثمت فما استطاعت أن تجاريه في الحوار ، فهو أستاذها الذي كان يرعبها ، وهو ابن خالها الذي خطبها ، وهو مازال بعد في اللحظات الأولى لحضوره في القاهرة ، فلتغفر له هفواته ، أو لعله يريد أن يبعد حاجز التوتر الذي يكون دائما بـــين العروسين ، ويضع قواعد لعلاقة حب جميلة ، تمهد لقبولها له عن اقتناع ، أو هو يشجعها لتقـــول رأيها بعيدا عن أية مؤثرات ، وقد صدق حدسه ، فقد تشجعت الدكتورة سعاد ، وأرادت أن تبدأ معه علاقة جديدة تختلف عن تلك التي كانت أيام الدراسة ، فبادرته :

• "الحمد لله على سلامتك يا ابن خالي .."

فنظر إليها بحنان ، وهو يحاول أن لا تثقل عليه بعباراتها ، فهو يعرفها جيدا ، لم يكن يأتيه التذمــر إلا منها ، حتى أن زميلاتها وزملاءها حذروها كثيرا من مداخلاتها التي كانت دائما تحرجه ، فيدعي عدم فهمه للسؤال حتى تعدل من الصياغة ، أو يرد بشيء هو يريد أن يقوله بعيدا عن تجريحـــها ، وهي لا تعرف أنه لا يريد أن يعاملها معاملة باقي الطلبة والطالبات ، فهي ابنة عمته أولا ، ثم هـــي الحبيبة التي اختارها قلبه ثانيا ، ثم هي الزوجة التي اختارها له والداه ، لكنها لم ترحمه ، كالتها لـــه عبارات كلها تأنيب ، فكم كانت تتمنى أن تكون قد عرفت بقرابته لها أيام الدراسة في أمريكـــا ، كان أراحها من الكثير من المشاكل التي لم تجد أحدا تسأله أو تستعين به ، ويكفي أن أول ســـؤال سألته لأحد أبناء العم سام ، تصور المتهور أنها معجبة به ، هي سمراء وهو أشقر ، وغالبا ما يكـــون

هناك جاذبية بين اللونين ، ثم أن سعاد تتمتع فوق هذا ، بالقبول في كل شئ ، فلاحظت أنه يريد أن يحتويها بكلمات الحب والغرام ، ويلف ذراعيه حولها ، وكأنما العلاقة بينهما منذ أمد بعيد ، فقامت بتخليص نفسها منه بسهولة ويسر وبقوة وسرعة باغتت بها المسكين ، ذلك أن العمل المضني في الحقل والبيت قبل السفر ، أكسباها من القوة ما تستطيع بها أن تدافع عن نفسها ، ووصلت الرسالة للشاب ، فانتابه الفزع ولاذ بالفرار ، دون أن يجيبها على أسئلتها ، فقررت بعدها أن لا تسأل إلا مصريا أو مصرية ، أو أن تستعين بالاستعلامات ، بعد أن عرفت أن كل شئ يمكن معرفته من خلال التليفون ، ثم فيما بعد بالاستعانة بالشبكة الدولية للمعلومات (الإنترنت) التي سهلت التعرف على كل ما يعن للمرء معرفته ، لو كانت تعرف بقرابته لها ، لكان ذلك مثار اعتزاز وقوة ومنعة ، تتفاخر به أمام الجميع ، هذا هو طه ابن عمتي الحاجة زليخة ، وابن عمي أيضا الحاج عبد الله الصقر ، فكل عائلة الصقر أقارب ، هي من عائلة الصقر وزوجها طه الصقر ، ووالدها صقر ، ووالدها صقر ، وكذلك الأمر بالنسبة للكثيرين من أقاربها في الأرض التي نشأت فيها ورعاها خالها محمد ، قالت له :

• " أكثر من ست سنين ، الوش في الوش والعين في العين ، ولا أعرفكش .."

فقال لها بشيء من الجدية :

• " وهي دي غلطتي ، إزاي انت يا متعلمة ، يا مثقفة ، تغفل عن فراستك أنني ابن خالك .."

ثم نظر إلى عمه لكي ينقذه ، فأومأ لها خالها أن تتذكر ما قاله لها ، وتكتفي بذلك ، وإذا بها تضفي على نبرتها أسلوب المفاكهة وهي تذكره بمواقفه المتعنتة معها ، والمفارقات وردود الفعل عندها وعند زملائها وزميلاتها ، حتى أنها لو كانت استخدمت فراستها وعلمت أنه ابن خالها ، لما كانت تستطيع أن تجاهر بذلك ، حتى لا يعاملها باقي الدارسين والدارسات معاملة تتناسب مع قرابتها له ، والجميع يضحكون ، ذلك أن الذكريات مهما بلغت شدة بؤسها ، تأتي بالابتسام كلما أعيد تذكرها ، فكانت تبتسم معهم ، لكنها في النهاية ذكرت مقدار البؤس الذي كانت تسببه هذه التصرفات لهم ، وكانت هذه رسالة له حتى لا يغالي في تصرفاته ، وذكرته بأنه طبيب ، وجراح ، ومن غير المعقول أن يتعامل بخشونة مع مريض سوف يشق له صدره ، فأجابها بما هو أكثر خشونة من كل ما سبق نسي معها قرابتها له ، ومشاعر الحب التي يكنها لها ، بل ونسي

أنها ربما تصبح زوجته ، أو هو يحاول أن يستميلها لتصبح زوجته ، فكل ذلك في جانب ، والأسلوب المهني في جانب آخر :

• " يا دكتورة ... أنتم سوف تواجهون حالات قد تكون من الصعوبة لدرجة أن الابتسامة لن تعرف طريقها إليكم ردحا من الزمن ، يعني لو تعاملتم بالرفق والليونة ، يبقي نقفل كليات الطب ونفتح حضانة .."

يا لصراحته الجارحة ، ألن يكف عن هذه العبارات التي كانت كفيلة بأن تدمع عيون الطلبة أكثر منها الطالبات ، متى يستطيع أن يراعي مشاعر الناس في إجاباته ، لينسى للحظات أنه يتعامل مع طلبه ، أم أنه مازال يراها أمامه طالبة ، لابد أن يتعلم كيف يتعامل مع البشر عامة ولا ينظر للجميع على أنهم طلبه ، هذه هي بعض مساوئ التدريس ، أن يظل المدرس مدرسا مع الجميع ، كانت إجابته كاتمة للصوت ، فما عاد لها أو لغيرها فرصة للنقاش أو الجدال ، ثم أضاف بأن ذكّرها بحالة المصابين في انفجار أوكلاهوما ، أو أشلاء أطفال مدرسة بحر البقر ، أو مشوهي حرب ٦٧ أو ٧٣ ، هل هذه الأشلاء تبعث علي الابتسام ، وإذا لم ينسَ الجراح أنه يتعامل مع إنسان ، لما قام بما يقوم به من نشر وبتر وشق الصدور التي تتنفس ، وأعضاء أخرى كثيرة لا يمكن أن تكون لها ذكرى جميلة تبعث على الابتسام ، ولكنها لا تأتي إلا بكوابيس ليلية تفزع الجراح ، وكأنها تذكره دائما بأن يكون على استعداد أن لا يخاف ، وسأل سؤلا اقشعرت له أبدان عمه وزوجته وبناته :

• " هل يستطيع أحدكم أن يحمل بين يديه يداً أو رجلاً مازالت الحياة تدب فيها فتجعلها تهتز ، أو كبد أو قلب إنسان حي ، ويا حبذا لو كان هذا القلب ينبض بالحياة ، ويطالب الجراح بأن يظل حيا ، بل ويصر على حقه في الحياة ، والوقت هو الحياة .. لا بل إن اللا وقت في هذه الحالة هو الحياة نفسها ، لرجل أو امرأة أو طفل صغير برئ ، من منكم يستطيع أن يلتقط أنفاسه في لحظة كهذه ، بل قولي لي من منكم يستطيع أن يطرف بعينيه ، حيث طرفة العين قد تعني الكثير ، لأنها ببساطة .. هي الحياة .."

وقبل أن يكمل ، قاطعته مهجة بصرخة خوف ، فقد أرعبها التصور ، وصمت .. وساد السيارة سكون موحش ، وبعد فترة صمت رهيبة ، استطاع هذا الجراح الماهر أن يلملم الجراح ، وإذا بالقهقهة تملأ الأرجاء ، وإذا بالوحش منذ دقائق ، يصبح حملا وديعا ، ينساب عذوبة ورقة ، وإذا بصورته تزداد بريقا ولمعانا ، حتى لكأنها تريده أن يتزوجها فورا ، فمن له هذه الصفات وتلك

المزايا ، من الغباء تركه يفلت من يديها ، وفوجئ بها تمسك يديه بين يديها ، وتضغط عليها ، وهي تقول :

• " وحشتني يا ولد الخال .."

وكانت مفاجأة للجميع أن الدكتورة سعاد تتحدث باللهجة الصعيدية الجميلة ، وضحك الجميع ، بينما أكد خالها ما كان يخامره من شعور المحبة التي بدأت تؤتي ثمارها ، فقال :

• " نقول على بركة الله ..!"

وأطرقت برأسها خجلا ، واحمر وجهها ، وتلعثمت في الكلام ، وإذا بولد الخال يتولى الإجابة عنها :

• " آه يا بوى .. خليص ، الرد وصل .."

فوجئ الدكتور طه بأن السيارة تنحرف بهم نحو فيلا جميلة ، فنظر إلى عمه الذي قال له بأنه سيقيم معهم في الفيلا حتى يتزوج ، ويستقل بشقته بالعمارة هو وسعاد ، وكانت المفاجأة التي ادخرها له عمه ، وجود والديه بالفيلا ، وتأسف له أنه لم يحضرهما إلى المطار لعدم وجود مكان بالسيارة ، ولأسباب أخرى هو يعرفها ، فحياة الريف تطغى على جميع تصرفاتهما ، وأولها الملابس ، لكن عليه هو تحويلهما إلى أهالي القاهرة ، فهما ما يزالان يعيشان أيام الحاج عبد المؤمن والحاجة كوثر جدته رحمهما الله ، وتعجب أن طه يتمتم بكلمات مسموعة :

• " ليتها دامت تلك الأيام ، أنت لا تعرف يا عمي كم كنا محظوظين بهذه العائلة وبهؤلاء البشر ، لن تجد في العالم أجمع هذه الأيام من هم أفضل ولا أطيب منهم ، ولا تسألني عن أمريكا لأنه لا وجه للمقارنة ، فالحياة هناك عمل ومصالح وفقط ، لا توجد للأمور الإنسانية ذلك الطعم الجميل الذي كنا نعيشه ، الجار للجار إذا جار ، والأخ للأخ والأخت والجميع لبعضهم ، إنني أسمع أن هذه الأمور في سبيلها إلى الانتهاء في مصر ، هل هذا حقيقي يا عمي ..؟"

وأطرق الرجل برأسه وهو يخرج الكلمات بصعوبة ، فهو لا يريد أن يصدم القادم حديثا من أمريكا بما حدث من تغيرات خلال السنوات الست عشر التي قضاها في الخارج :

• " البعض طبعا ، ولكن لا يمكن التعميم ، فلا تنسَ قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم "الخير في أمتي إلى قيام الساعة " وأمة محمد عليه السلام تترعرع عن حق وصدق في مصر ، مصر الأزهر ، مصر بلد الدين والعبادة ، فما من نبي أو رسول إلا وزار أو أقام في مصر ماعدا خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام ، ولا تنسى أن مصر هي البلد الوحيد في العالم التي احتفظت باسمها منذ أن خلقها الله حتى الآن ، وهذا تكريم آخر لمصر ولأهل مصر الذين أوصى بهم الرسول صلى الله عليه وسلم خيرا ، ولا تنسى أن الرسول جدته هاجر مصرية ، وزوجته ماري القبطية ، وهناك من الأمور التي تثبت أن الله سبحانه وتعالى حافظٌ لهذه البلد ، فلا تنسَ أن أول جفاف حدث في المنطقة كلها ، أرسل الله نبيا ليكون وزيرا لخزائن مصر ، فخطط ونفذ ووزع وحصد ووزع وخزن ، وانتهى الجفاف بدون خسائر في الأرواح والحمد لله ، ويكفي لطفه سبحانه في زلزال ٩٢ الذي لم يسفر عن خسائر تتناسب مع قوته ، فالحمد لله ، أو الفيضانات التي حدثت في الشتاء التالي ، وأيضا سلم الله ولطف ، وأشياء كثيرة ، لو حسبتها لوجدت أن لطف الله سبحانه بنا كبير ، ورحمته بنا أكبر ، وتعطفه علينا أكبر وأكبر ، فسبحان الله العظيم الأكبر .."

بالرغم من كل ما قاله الدكتور طه في تقديمه لعمه الحاج الباش مهندس محمد عبد المؤمن الصقـر لرجال الصحافة والإذاعة والتليفزيون ، إلا أنه لم يوفه حقه ، وقد ذكر ذلك أكثر من مرة ، ولعل الدموع التي كانت تترقرق في عينيه ، وهو يدلي بهذه الاعترافات ، تؤكد صدقه ، فهو أيضا يحاول أن يعبر عن رده للجميل لهذا الرجل ، الذي حافظ عليهم من الجوع ، فآواهم وعاملهم معاملـة بناته وربما أكثر ، وآثرهم على نفسه وعلى أسرته ، فهو الذي وسع في رقعة الأرض بما باعه مـن أرضه وأرض والده ، وكان أمينا حيث سجل لكل من عائلات أخواته واخوته حصصهم حسـب حقهم الشرعي ، وما كان مسجلا باسمه اشترى به أرضا أيضا إلى جانبهم ، وهو الذي أشرف على استصلاح هذه الأرض ورعاها سنوات ، حتى بدأت تعطي ناتجا يمكن الاعتماد عليه ، وهذا بعـد سنوات عجاف طالت بقدر الجهد والعرق والصبر والمثابرة التي بذلها الجميع ، والحاج محمد علـى رأس القائمة ، لم يكل ولم يتعب ، من الصباح الباكر في الأرض ، تاركا بيته وبناته وزوجته الـتي يحبها ، ويوم أن بدأت البشائر ، كانت سعادته تفوق سعادة الجميع ، احتضنهم كلهم ، وتعـالت صيحاته وكأنه طفل صغير نجح في الامتحان ، فالمشاكل الكثيرة التي صادفوها لا تصدق ، ومـهما بلغت الحسابات ، فلن تكون مثلما هي الحقائق ، لكن طوال هذه السنوات ، كـل مصروفـات عائلات أخواته واخوته من جيبه الخاص ، وتعليمهم وتربيتهم ورياضتهم ، كل شئ كان من مالـه الخاص ، حتى سفرهم إلى الخارج لاستكمال الدراسة ، فمهما فعل طه له ، ومهما قال عنه ، لـن يوفيه حقه ، قدمه على أنه صاحب الفضل عليه ، ولولاه لما تمكن من استكمال دراسته ، بل ربما لما تمكن من الدراسة أصلا ، وركزت الكاميرات على الرجل الذي كان في أبهة أحد نبلاء أوروبـا ، يتحرك برشاقة رياضي ، ويتحدث بأسلوب راق ، إجاباته على أسئلة المراسلين الأجـانب كلـها كانت بلكنة إنجليزية أو فرنسية لا تختلف عن لكنة أهل إنجلـترا أو فرنسـا ، حـتى أن بناتـه والدكتورة سعاد ، لم يصدقوا أنه بهذه الثقافة ولا بهذه الطلاقة ، وكأنه ليس من أهل الصعيد ، ولا من الجلنفات والعبارات العجيبة التي كان يطلقها عليه مدحت الأناضولي .

كانت شوق قد بدأت أول سطر في قصة الانتقام من الذين تسببوا في عذابها هي وابنها إسماعيل ، وهل تكون البداية إلا بعبد المنعم السلحدار ؟ فذهبا لزيارتهم ، وأثناء تواجدهما ، حضـر عـلاء سعيدا وهو يشير إلى التليفزيون ، فقد شاهد زوجته وعائلتها ، ويريد أن يشركهم معه سعادته بهم ، وشاهدوا الحاج محمد الصقر وبناته ، فدعت له شوق بكل الخير ، وهمت ميشو أن تفصح متباهية

عن العلاقة التي تربطهم بهم ، إلا أن عبد المنعم سعل سعالا عضالا ، وأومأ لها أثناءه أن لا تتكلم كثيرا ، ثم همس في أذنها بما يفيد عدم ارتياحه لتصرفاتهما فهو لا يعرف نواياهما ، وربما تكون شوق لم تنسَ ما فعلته جلنار معهم ، فقد كان من الفظاعة بالقدر الذي لا يمكن أن ينسى ، وأراد أن يظهر نفسه بمظهر الحمل الوديع ، فقال بأن ذلك حدث عندما كان صغيراً لا يدرك الأحداث ، ولا يمكنه درء الظلم عنهما ، ورجا زوجته أن لا تتبسط في الحديث ، ثم طلب منها أن تدعوهم على العشاء ، وتنهض لتعطي الأوامر بذلك ، حتى لا يتسرب إليهم الشك بسبب همسهما ، وأن ترسم ابتسامة عريضة تزيل بها أي أثر محتمل . لكن الحديث الهامس بين عبد المنعم وزوجته ، أشعر شوق بأن المدعو لبيب قد سرب لهما معلومات عن نواياها ، خاصة وأنها شعرت في مقابلة عبد المنعم لهما كمن يقوم بواجب يتمنى أن ينتهي بأسرع مما بدأ ، فأسرتها في نفسها ، وشعرت بشيء من راحة الضمير ، لأن هذا من شأنه أن يجعلها تعجل بتنفيذ خطتها ، ولكن لابد لها أن تشبك الجميع بعضهم البعض ، حتى يدلي كل بما عنده من معلومات لينجي نفسه ، وأيا كانت النتائج ، فسوف تنتهي حتما إلى استرجاعها لحقوقها وحقوق ابنها إسماعيل ، أما عما يصيب الآخرين من أضرار ، فإنها تتمنى أن تعصف بهم الأيام إلى أبعد ما يمكن أن يكون العصف ، حتى ولو أدى إلى إعدامهم جميعا ، وهنا بدأ تفكيرها للكيد بهم حتى يصلوا إلى حبل المشنقة .

أما حسام وأختاه اللذين فوجئوا بالحاج وعائلته على شاشة التليفزيون ، فقد أذهلهم الحاج محمد حيث ركزت الكاميرات عليه وهو يجيب على أسئلة الصحفيين بكل لغات العالم تقريبا ، وذلك نتيجة سفره إلى الكثير من الدول ، والعمل في الكثير منها أثناء دراسته الجامعية ، فلم يخلو الأمر من الإجابة بالألمانية على أسئلة الألمان ، وبالإيطالية على أسئلة الإيطاليين ، ربما لغات جنوب شرق آسيا واللغات الإفريقية والهندية فقط هي التي لا يعرفها ، ولقد مرت فترة بالمصريين ، كان التفاخر بتعرف لغة أجنبية واحدة ، فما بال من يعرف أكثر من لغة ، ويتقنها كأهلها ، وحجتنا دائما عدم استخدام اللغة ، فأين تراه يتمرن على استخدام كل تلك اللغات ، فنظروا إلي أبيهم وكذلك فعلت ألفت زوجته ، فوجدوه وقد تقوقع على نفسه ، يتذكر عندما أراد أن يحرجه ، فأحضر له لفيفا من أصدقائه ، فقاموا بهجائه بلغات أجنبية ، أدهشهم أنه أفحمهم برده عليهم بنفس اللغة ، وبلكنة أفضل ، وازداد تقوقعا على نفسه منذ أن طردهم هذا الرجل من منزله ، وطردتهم أخته من الفيلا التي آلت ملكيتها لزوجها ، ولسان حالهم يقول ، أيهما الجلنف ؟ هو أم هذا الصعيدي ؟ ومع وقف المعونات الضخمة التي كان الحاج يزودهم بها شهريا ، أصبحت الأحوال غير الأحوال ،

وأصبح امتناعه عن الخمر وعن سهراته الماجنه أمرا حتميا ، وليس أمامه سوى التليفزيون ، وحتى هذا كان من الواجب عليه أن يقلل من استهلاكه كثيرا توفيرا للكهرباء ، ولما وجد عيون أبنائه تصدمه بواقع مر ليس له سوى تفسير واحد ، ألا وهو أنه لم يكن صادقا معهم في أي شئ ، ولا حتى مع نفسه ، أشعل سيجاره ونفثها في الهواء وهو يقول :

- " طلع وألا نزل ، برضه صعيدي جلنف .."

فقال له حسام وهو يبتلع مرارة في نفسه :

- " يا والدي لهذا الرجل أفضال كثيرة جدا على أناس كثيرين ، وربما نكون أكثرهم استئثارا بهذه الأفضال ، فيا ليتك تكف عن نعته بهذه الصفات ، فلن يقلل من شأنه بغضك له ، فهو صاحب أفضال علينا ، فقل لي بربك ماذا فعلت أنت لنا ؟ "

وثار الرجل ، وهم أن يكرر عبارات الفخر التي ملها الجميع وأولهم زوجته وأهله ، لكنه ما استطاع أن يقولها ، وعزت عليه نفسه ، فحاول أن يفتعل توقف لسانه عن الكلام وجسده عن الحركة ، لكنه تذكر أن أخته كشفته لهم ، بل لقد أمرت الخادمة أن تعطيهم الدواء لاستعماله معه عند الضرورة . لقد أوصلت تصرفاته والحالة التي أصبحوا فيها زوجته إلى درجة لا يمكن تحملها ، فهي لم تتعود الحياة بدون خدم ، وترتب على تكبره بعدم الاعتذار للحاج أن طالبهم بالمبالغ التي كان يرسلها إليهم أو يصرفها عليهم ، ودخلهم الحالي أصبح ينحصر في راتب حسام فقط ، وهذا لا يكاد يكفي الضروريات ، ولا تدري كيف سيتمكنون من سداد هذه المبالغ .

وأصبح بحث صفية عن عمل أمر تقتضيه ضرورة الحياة ، أما نشوى فلم يبقَ لها إلا أن تركب وسائل النقل العادية ، وحسام قرر الامتناع عن تدخين السجاير المستوردة ، ثم الامتناع عن التدخين كلية ، وحيث أن الدخل لا يمكنه تحمل تكاليف تشغيل وصيانة السيارة ، فقد تقرر عدم استخدامها إلا في الأمور الضرورية فقط ، وقالت ألفت لزوجها :

- " لو أردت الفخر حقيقة ، والافتراء على خلق الله ، بل والتعالي عليهم ، فقل لي بربك ماذا فعلت أنت أو ماذا تفعل سوى ترديدك لتلك العبارات البالية التي اهترأت كالاسطوانة المشروخة ..؟"

ونفخت أوداجها ، وتقعرت في جلستها ، وضخمت من صوتها ورددت عبارته :

" أنا لو قعدت أشحت ، فأنا برضك مدحت بك الأناضولي .. "

ليتك تبحث لك عن عمل تزيد به الدخل ، وأنا ما عنديش مانع أكلم لك أحد اخوتي ليساعدك في ذلك .."

وقال لها بذات النفخة ، وبذات الطريقة التي قلدته بها ، فهي طبيعته وليست دخيلة عليه :

• " وألا حسام بك يتوسط لنا عند حما المستقبل ، الصعيدي الجلنف بتاعه .. يشوف لي شغلانه عنده ، والا يتصدق علينا من الزكاة .. ، خلاص ما هو بقى مثله الأعلى في كل حاجة .."

ونظر حسام إليه بشيء من السأم الذي حالما تحول إلى رثاء ، بينما تولت زوجته الرد عليه بعبارات تخلو تماما من كل مقومات اللباقة والاحترام ، لم يكن يتوقع الهجوم عليه بهذه القسوة ، مِن زوجته ، حبيبته التي فضلها علي جميع فتيات المنطقة ، فأعطاها قلبه ، وأعطاها اسمه ، وكان يظن أنه أسرها بالاستجابة لحبها له ، ولن تستطيع أن ترفع عينيها فيه طوال عمرها ، ونسي العبارة التي تقول " إذا دخل الفقر من الشباك خرج الحب من الباب " أي حب وأية رومانسية مع رغيف الخبز الذي يحتاج إلى عناء لكي تستطيع إحضاره ، حقيقة أن كشك الخبز لا يبعد كثيرا عن البيت ، ولكن هيهات لبنت الزيتوني باشا ، أن تقف في طابور طويل مع الخادمات والبوابين لكي تحصل على حصتها من الخبز البلدي الذي تدعمه الحكومة ، لأن إمكانياتهم لا تتحمل الخبز الفاخر الذي يباع بضعف أو ثلاثة أضعاف سعر خبز الحكومة ، وبالرغم من كل ما قد يقال عن عدم نقاوته أو وجود شوائب غير مرضية أو ربما غير صحية ، فيظل هو الأفضل في ظل الدخول التي لا تتناسب مع الأسعار العالمية لكل شئ ، أي حب يستمر مع حالة هانم ، كانت تأمر فتطاع ، ما عليها إلا أن تأمر كمالي ، فيأتي لها بلبن العصفور ، مادامت قادرة على الدفع ، لكنها مع جنيهات حسام ، أو ما يتبقى من جنيهاته بعد المصاريف الشخصية له ولأختيه ، الأمر يختلف ، وصلت من الحنق للدرجة التي لم تستطع أن تتحمل وجوده أمامها ، فكادت تأمره بالانصراف ، لولا بعض من خجل احمرت له وجنتاها ، فلم تشعر إلا بنظرات كأنها جمرات نار تصوبها إليه ، أعقبتها بنظرات كلها أسى ، ثم قالت :

• " الضرب في الميت حرام .."

و الفتاتان تتابعان الحديث ، ولا تدريان إلي أي صف تنضمان ، إلى صف حسام والوالدة ، أم إلى صف الوالد الذي غلب على أمره فأصبح لا يملك حتى حق الدفاع عن نفسه ، ولكن ماذا سيقول دفاعاً عن نفسه ، إنه إنسان مفلس من كل شئ ، ولا يملك سوى اسما ليست له قيمة مادية ، ولا حتى معنوية ، ففي السابق كانت الشركات تستعين بالأسماء الرنانه ، لتكسب ثقة المتعاملين ، ولتسهل أعمالها في الأجهزة المختلفة ، أما الآن ، فإن لكل زمان رجاله ، وهو ليس من رجال هذا الزمان ، انه من رجال ما يسمى بالعهد البائد ، وهذا هو الآن ، إنسان بائد . وشعر بأنه غير مرغوب في وجوده ، فحمل جسده المترهل على قدميه إلى غرفته ، وانزوى في ركن من السرير يبكي حاله ، فقد أصابته حالة من الكآبة ، هم أن يغلق باب الغرفة بالمفتاح ، لكنه خشي أن لا يهتم بأمره أحد إذا حدث له مكروه ، كما فكر مليا أين ستنام زوجته ، وكانت هذه هي المرة الأولي التي يفكر فيها في أحد غير نفسه ، وتراءت أمامه الأحداث ، وترددت العبارات التي قالها الابن ، أو الزوجة ، وتبين أن البنتين لم تشتركا في الحديث ، وساءل نفسه عن السبب ؟ ثم هز كتفيه تعبيرا عن غضب قاتل ، زوجته وابنه ، لا يرغبان في وجوده ، لا يرغبان في حياته ، فقد أصبح عبئا على العائلة كلها ، تكلفته هو منفردا ، تعادل تكلفتهم جميعا ، وآه وألف آه لو داهمه مرض .. مصيبة ما بعدها مصيبة . وأصبح كل ما يتمناه ألا يصاب بمرض ، تمنى الصحة لا لشيء إلا خوفا من أن يصبح عبئا على كاهل أسرته التي لا تريده ، وتذكر ما فعلته زوجته بأبيه الأناضولي باشا ، وقد كان باشا حقيقي وليس بك مزيف ، ما أن مرض بتصلب الشرايين ، وبدأت أعراضه في الظهور ، حتى بادرته بكل صفاقة أن يذهب إلى المستشفى ، أو أن يبحث له عن دار للمسنين ، فهي ليست على استعداد أن ينتهي المطاف ببنت الزيتوني باشا أن تصبح ممرضة لإنسان عليل ، وتحامل الرجل على نفسه ، وهو يرى ابنه واقفا إلى جانبها كأنه لم يرَ ولم يسمع ، وحملته قدماه إلى خارج الفيلا ، واستدعى له البواب سيارة أجرة ، أقلته إلى بيت ابنته ، لا .. إنه بيت زوج ابنته ، هذا الصعيدي الجلنف ، ولم يحرك مدحت ساكنا ، حتى ولو من باب المجاملة للرجل الذي يأويهم في بيته ، وينفق عليهم من ماله ، وبخل هذا الابن الجاحد أن يوصله بالسيارة التي يملكها أبوه المريض ، ولم يطالبه بها ، بل تركها له ينعم بها . وتنهد مدحت عن صرخة ألم ما كان ليشعر بها لولا أن رأى نفسه يتهادى إلى ذات المصير ، لكن أنى له بزوج ابنة كما هو الحاج محمد ، صعيدي أو حتى اللي يكونه ، بس يقبل به ، ويتحمله بكل ما فيه من عاهات وأمراض ، وهل

هو يعاني من عاهات أو أمراض ، ربما ليس الآن ، ولكنها حتما هي في طريقها إليه ، ووجد الدموع تنساب من عينيه دون أن يدري ، وانخرط في بكاء مر .

حسام هو رجل البيت الآن ، آواهم في الشقة التي كان يعدها بيتا للزوجية ، ولم يبخل على أسرته بشيء ، أحضر راتبه بالكامل ووضعه بين يدي والدته ، وأخذ مصروفا لنفسه مثلما هو مصروف أي من أختيه ، وقال لكل منهما أن تدبر كل احتياجاتها من هذا المصروف ، مصروفات الكلية والمواصلات والملابس والكوافير ، أو الأفضل أن تتحجبا ، فالحجاب لا يحتاج إلى كوافير ، ويداري أشياء كثيرة ، لا يمكن للعطار أن يصلحها ، ولا تحاولان التبذير ، لا تاكسي ولا عزايم للزميلات مثل أيام زمان ، فلن يوجد غير هذا المصروف ، يعني إذا انتهى ، فليس أمامهما إلا البقاء في البيت ، وعلى أمه أن تتدبر احتياجاتهم بما تبقى ، وما تبقى قليل جدا على إطعام عائلتها المكونة من خمسة أفراد ، ويا ويلها من زوجها وشراهته للطعام وللتدخين وللخمر ، ولكل شئ ، لكن لا .. عليه أن يعتاد الأحوال الجديدة ، البداية صعبة ، فماذا ستفعل ، هي لا تعرف الأسواق ، ولا تعرف كيف تشترى ، لكنهم يتحدثون عن المجمعات الاستهلاكية وأن بها كل الاحتياجات وبأسعار رخيصة ، عليها أن تتعود هذه الأمور ، ولا بد أنها ستتعرف بجارة من الجارات ، تعيش مع عائلتها بدخل مساو لدخل أسرتها وربما أقل ، فتعلمها كيف تدبر أمورها بالجنيهات القليلة التي تتبقى ، وجلست منذ البداية لتحسب ، وأخطأت في حساباتها فقد كانت بأسعار ما تشتريه بمعرفة كمالي أو أحد أبنائه ، من حي الفيلات الذي كانت تعيش فيه ، وهذا الحي كغيره من الأحياء الراقية ، له حساباته عند بائعي الفاكهة والخضار ، وعند البوابين والخدامين أيضا ، لكن ماذا لو قامت هي بالشراء بنفسها ، ومع ذلك فقد وجدت أن بند البروتين غالي ، ولا يمكن استخدامه إلا فيما ندر ، فدلتها إحدى الجارات على الباذنجان ، فكله فوائد ومن نعم الله أنه رخيص ، والبقوليات كلها بروتين ، ولذلك فأسعارها مرتفعة حبتين ، ولكنها ليست مثل اللحوم والدواجن والأسماك ، أما أسماك الجمعية المثلجة المستوردة من الكتلة الشرقية أو ما كانت تسمى بذلك حتى أوائل التسعينات ، فهي رخيصة ، وكذلك أسماك بحيرة ناصر ، فأسعارها معقولة ، وإذا ارتفعت أسعار الطماطم ، تستخدم الصلصة ، وإذا كانت الصلصة غالية ، يبقى بي في بي ، الحلول كلها موجودة ، فالإنسان المصري تعود على المنع ، المنع في كل شئ ، ومن كل شئ ، ولا بد له أن يتكيف مع هذا المنع ، حتى الحرية ، عندما منع من الحرية ، حولها إلى نكات مضحكة وتريقة ، وعندما شحت معه النقود حولها إلى قفشات تهتز لها البطون ضحكا ، فتكفيه شبعا ، ولا مانع من

أن يتعامل مع كل شئ ، وبأي شئ ، حتى تنصلح الأحوال ، أمله في المستقبل كبير، وأملـــه في الله أكبر . لكنه تبين لها أن راتب حسام يكاد يتبخر كلما ابتعدت عن أول الشهر ، فتبدأ في إعـــادة الحسابات ، ولا تفتأ تكلم نفسها ، ويا ويله من يحاول تهدئتها أو التخفيف من حـــدة الأمـــور ، فثورتها ليست كأي ثورة ، زمان كانت ثورتها بشيء من الأرستقراطية ، فالكلمـــات متقعـــرة ، والحديث مشفراً كأنه لغة أخرى غير ما يعرفها البشر من لغات ، أما الآن ، فلو جـــاز التعبـــير ، بدأت عباراتها تتسم ببعض السوقية ، من كثرة تعاملها في السوق وسماعها تعليقـــات البـــائعين ، وتوسلات الغلابة لهم ، وبتلقائية طبيعية بدأت تنقل هذه التعبيرات إلى البيت بنفس العصبية وبذات المعاني ، فما عاد عندها من الصبر ما يمهلها لتنميق حديث ، أو للبحث عن تعبيرات جميلة تهـــون بهـــا من المصاب ، أو لعله قلة ما يصل إلى المخ من بروتين يزيد الذكاء ، فكانت أكثر من ويـلات الزمان ، وأعيتها الحيل وهي تحاول أن تخرج نفسها وعائلتها من هذه المحنة ، خطر لها أن تتصـــل بأبيها عله يساعدهم ، فماذا سيفعل بكل هذه الأموال التي يكتنزها على قلبه وبينه وبين القبر أيام ، لكن عز عليها ذلك ، فقد سبق وأن لجأت إليه عندما حدثت مشكلة شركات توظيف الأمـــوال وأصيب حماها بأمراض كثيرة من بينها تصلب الشرايين ، فألقى باللائمة على زوجها الكســـول ، وأنه لم يكن يزوجها ليصرف على عائلتها ، لهذا رأت أن الحاج محمد ليس له مثيل في هذا الزمان ، إنه من العناصر التي اندثرت شأنها في ذلك شأن أشياء كثيرة اندثرت من حياتنا ، وعزت عليـــها نفسها أن تلجأ لأحد اخوتها أو أخواتها ، فقد كانت تشعرهم دائما بأنها أفضـــل حـــالا منـــهم ، فانكمشت هي الأخرى على أحد الكراسي في الصالة ، ووضعت رأسها على يديها وانخرطـــت في بكاء مر .

ودخلت نشوى غرفتها تستذكر دروسها ، فما عادت الدراسة الآن للعلم وفقط ، بل أصبحت ضرورة تحتمها الحياة ، فلا مال بدون عمل ، ولا عمل بدون شهادة ، ولا شهادة بدون دراســـة ، والأهم من كل ذلك الزواج ، والزوج لابد أن يكون من الذين يملكون ، وإلا انتقلت من بـــؤس بيت العائلة إلى بؤس بيت الزوجية ، وبؤس بيت الزوجية ربما يكون أقسى لأنه أدوم ، فمن أيـــن بالجنيهات القليلة التي يتقاضاها خريجي الجامعات المدنية أو حتى العسكرية أن تكفي قسط شـــقة تمليك أو إيجار ، حتى شقق الحكومة التي تبنيها للشباب غير القادر ، في الحقيقة هـــي تحتـــاج إلى شباب قادر ونص ، فهي دائما ما تدخل في دهاليز عجيبة الشكل ، فإما المحسوبية أو الوســـاطة ، وإما الرش ، وحدث عن الرش ولا تتوقف ، بداية من عامل البوفيه ، ونهاية ربما بمسئولين كبار قد

التكيف مع الأوضاع يضع الجميع في مواقف ليس أمامهم إلا تقبلها ، ومادام الكل على استعداد للدفع ، فهذا معناه أن الكل عنده فلوس ، ومادام عنده فلوس يبقى يدفع ، لكن كيف يكون الأمر مع من لا يملك النقود ؟ أمره إلى الله ، والإقامة مع العائلة ، عائلة الزوجة أو عائلة الزوج ، ويالها من إقامة ، الكل لا يتحمل الكل ، والكل يشكو من الكل ، والكل يحاول الاستفادة على حساب الكل ، أمور كثيرة تعرضها أفلام السينما ، والعجيب أن البعض يعلن رفضه إظهار هذه العيوب حتى لا ننشر غسيلنا ، وربما يكون من ألف ومن أخرج ، ومن مثل أيضا ، قاموا بهذا العمل حتى يعرف البشر أخطاءهم ، فيغيرون من أنفسهم ، عسى الله أن يغير ما بنا . وتوصلت إلى نتيجة ، فإما الزواج من رجل غني ، أو لا ، فقد ذاقت الفقر لأيام ، وعرفت لوعته ، إنها لوعات أقصى قسوة من كل ما يمكن أن يعرف من لوعات ، وأخذت تبحث في ذاكرتها عن شخص غني ممن تعرفهم ، يصلح أن يكون عريسا ، فلم تجد ، معظمهم أخذهم الغرور ، فما عادت للأمور الإنسانية عندهم قيمة ، بل والكثيرون منهم استعانوا بالسموم ، حتى يغيبوا عن وعي الحاضر ، فهم يريدون عالما خاصا بهم ، لا يرون فيه إلا أنفسهم وقد ملأت البهجة الزائفة وجدانهم ، ولا يفيقون على واقعهم المؤلم إلا بعد فوات الأوان ، وأخيرا تذكرت أن لديها زميل في الكلية تنطبق عليه المواصفات التي تريدها ، رجل هادئ الطبع ، مستقيم ليست له علاقات مع أحد ممن تعرف أنهم من ذوي النزعات والتطرف ، حاول كثيرا أن يحادثها لكنها كانت تتمنع عليه بشيء من الكبرياء والغطرسة ، لا بد لها أن تحاول استمالته ، بشرط أن لا تفقد ماء وجهها ، فهو يعرف أن جدها كان باشا ، ولها أخ ضابط بوليس ، ويسكنون فيلا في حي راق ، ذلك أنها لاحظته لأكثر من مرة وهو يتبع سيارة أخيها حسام خلسة أثناء عودتها معه من الجامعة ، ولكن ماذا سيفعل الآن بعد أن تغيرت الأحوال ، ولا ماذا يحدث لو طلبها من أبيها وتملص من واجباته كأب ، لقد سبق له أن تملص منها عندما كان الحاج محمد يعطي بسخاء ، فماذا بعد أن قطع الحاج محمد معوناته ، وهل سيتحمل راتب حسام المساهمة في الجهاز ونفقات العروس وحفلة العرس ، من أين له ، والمسكين قد امتنع حتى عن صداقاته السابقة ، فهو لا يستطيع أن يجاريهم في شئ ، كلهم أولاد ذوات ، الأموال عندهم ليس لها قيمة ، يتحدثون بالملايين ، والأراضي في كل مكان والعقارات التي تباع تمليك ، والسجاير الأجنبية الفاخرة والسيجار الهافانا والخمور على أنواعها ، من أين لهم بكل هذا ؟ هو لا يعرف ، ولا يريد أن يعرف ، المهم أنه منذ اللحظة التي امتنع فيها الحاج عن معوناته ، قطع صلته بهم ، وصار يقضي أمسياته في البيت ، ووضع كل همه في دراسته وبحثه ،

لعلها تنسيه مشاكله ، فماذا سيفعل حسام لها لو تقدم هذا الشاب لخطبتها ، أو لعله لن يتقدم بعد أن يعرف أنهم نقلوا من تلك الفيلا ، وأن المواصلات العادية أصبحت وسيلتها في الذهاب والعودة ، عزت عليها نفسها فألقت برأسها على المكتب وانخرطت في بكاء مر .

أما صفية ، وبعد التجارب العديدة التي حاولت فيها البحث عن عمل ، ووجدت أن الطمع فيها كأنثى ، أهم عند معظم أصحاب الأعمال من الشهادات العلمية أو الخبرة أو رتبة أخيها أو لقب جدها ، فلم تجد سوى الزواج وسيلة سريعة للهرب من هذا البؤس ، فأخذت التليفون ، وانزوت به في أحد أركان الصالون ، وطلبت الرجل الذي سبق أن طلبها للزواج ، واشترط عليه والدها أن وأن .. وحاولت معه من جديد ، وأفهمته بأنها على استعداد للزواج منه فورا ، حتى ولو لم توافق عائلتها كلها ، ولما كان رده عليها برفض هذا الأسلوب ، وأنه لم يكن يتوقع منها ذلك ، تساقطت سماعة التليفون من يدها ، وانخرطت في بكاء مر .

وخرج حسام بعد خطبته العصماء عن اقتصاديات المنزل هائما على وجهه ، وهو لا يدري إلي أين ، ولكن قدميه قادتاه إلى الفيلا التي كانوا يسكنونها ، والتي تسكنها حاليا حبيبة القلب ، ولا يدري كيف وصلها ؟ لكنه سار أمام الفيلا كالمتلصص ، وهو يحاول أن يختلس النظر عله يظفر بمشاهدتها ، وعندما لاحظ أن كمالي علي وشك أن يكتشف أمره ، أسرع بالابتعاد وهو يحاول إخفاء وجهه ، وحمد الله أن مرت أمامه إحدى سيارات الشرطة ، فاستأذن قائدها أن يوصله في طريقه ، وما أن استقر به الحال في غرفته ، حتى أطلق العنان لدموعه التي احتبسها ، وانخرط في بكاء مر .

أصبح بيت المبكى ، فلم يجتمع شملهم على العشاء ، وأي عشاء ؟ لم تبادر الأم إلى إحضار شئ ، وفي زخم الأحداث لم يفكر أحد في ذلك ، ونامت العائلة ليلتها دون عشاء ، وفي الصباح ، كانت الأعين منتفخة يشوبها احمرار البكاء ، واحمرار السهد ، ما عاد أحد يود الحديث مع الآخرين ، ولم يخرج الوالد من غرفته ، وانطلق جرس التليفون ، لم يفكر أحد في رفع السماعة ، حتى ولو من قبيل التعرف على المتكلم ، فقد وصل بهم اليأس لدرجة عدم الاستعداد للتعرف على أحد ، بل إنهم لا يريدون أن يراهم أحد في وضعهم الجديد ، لكن الهاتف ظل يرن ويرن ، حتى قام حسام بالرد عليه ، وإذا المتحدث صوت نسائي بلغة أجنبية تطلب السيد مدحت الأناضولي ، فاهتم حسام بالأمر ، وبدأ يستفسر عن السبب ، ومن المتحدث ؟ فقالت بلكنة تحتاج لجهد كي يفهمها ،

أن مستشفى زاكر الدولي تريده في وظيفة مدير إداري ، والمقابلة اليوم مع المدير العـــام الســـاعة التاسعة صباحا ، فحاول حسام تأخير الموعد إلى العاشرة ، وبعد فترة وجيزة ، ربما كانت لأخـــذ موافقة المسؤول ، أخبرته بتعديل الموعد إلى العاشرة صباحا ، وأعطته عنوان المستشفى .

وخرج حسام عن حزنه ، وأسرع وكأنه يطير إلى والده يهنئه على الوظيفة التي ساقها الله إليه في تلك الأيام العصيبة ، ونهض الرجل سريعا على غير عادته ، وقد خـــامره شـــعور قـــوي أدى إلى استعادته الثقة بنفسه ، فها هو مازالت له الأهمية التي يطلب من أجلها بالاسم من شركات دولية ، وعن له أن يتذكر ما لدية من مؤهلات علمية ، واستعرض بعضا من خبراته العملية ، وأكد علـــى تذكره للغات الأجنبية ، حتى يؤكد لنفسه أنه مؤهل للوظيفة التي عرضت عليه ، وتذكر أنه لـــولا إهماله وكسله وركونه على أموال والده أولا ، ثم ومن بعده أموال زوج أخته ، لاستطاع الالتحاق بالسلك الدبلوماسي ، ولأصبح الآن سفيرا ، وربما وزيرا مفوضا .. لكنه أخطأ في حق نفسه ، وفي حق عائلته .

استيقظت الزوجة ، وساعدت زوجها في ارتداء أحسن وأشيك ما لديه من حلـــل ، والتعطـــر بأفضل ما لديه مما تبقى من عطور ، وأمرت حسام بالذهاب فورا لتدبير أمر الإفطار ، والاتفاق مع البواب على الصعود إليهم لتلبية طلباتهم ، وليعيد الحياة للسيارة التي لم تستخدم منذ أن حضـــروا إلى هذه الشقة ، والأفضل أن يحاول غسلها وتشغيلها واصلاح ما قد يكون قد أصابها من عطل ، قبل أن يتأنق في بدلته الرسمية ، فهذه المهمة يفضل ذهابه مع الوالد بالبدلة الرسمية ، حتى يعـــرف أصحاب العمل أو المدير أيا كان ، من هو الرجل الذي سيعهدون إليه بالعمل لديهم ، وأفـــاقت الفتاتان على وقع الحركة الغير عادية ، وتساءلتا .. ولم تسعهما الفرحة ، عمل للوالد في شـــركة أجنبية ، يبقى مرتب كبير وربما بالعملة الأجنبية التي يتزايد سعرها يوما بعد يوم ، وبعدا للكآبـــة ، وبعدا لكل ما هو ممنوع الآن ، وبدأ النشاط يدب في البيت كما لو كانت عصا ســـحرية تحـــرك الجميع ، وكان هذا الخبر سببا مباشرا في رفع الكآبة عن أصحاب المنزل ، بعد ليلة كئيبة مرت بهم ، ولكن دائما عند الله منها المخرج .

بحركات أرستقراطية انحنى حسام لسعادة المدير الإداري وهو يفتح له باب السيارة ليركب ، والعجيب أن والده اتجه ليجلس على الكنبة الخلفية ، وكاد حسام أن يصمت ، لولا أنه كان يرتدي البذلة الرسمية ، ودار حديث باسم بين حسام ووالده ، ربما كانت هذه هي المرة الأولى التي يتجاذبان فيها الحديث ، فالمسافة بينهما كانت كبيرة جدا ، والده رجل ما زال يعيش عصرا انقرض ، وحسام يحاول أن يجذبه إلى واقع هذه الأيام ، وهيهات أن يتم اللقاء ، لكن ربما تكون الفرصة قد حانت لكي يحيط الابن أبيه بما جد في هذا الزمان من عجائب وغرائب لم تكن على أيامهم ، ولم يرغب الأب أن يعايشها كما ينبغي ، وبدأ الرجل يستمع إلى ابنه ، في البداية غلبت عليه طبيعته ، وبدا عليه الملل ، ولكن عندما استفاض حسام في توضيح الصورة بالشكل الذي لم يكن يتصوره الأب وأصبح في حالة تسمح له بتفهم الوضع . استفاض حسام في توضيح الأمر قائلا :

- " العمل يحتاج إلى صبر ، فالكثيرون من أصحاب الأعمال حاليا ، ليست لديهم الكفاءة الإدارية المناسبة ، رجل معه كام قرش ، آسف كام مليون ، من حلال من حرام غير مهم ، المهم أنه يريد أن يستثمر هذه الأموال ، وفي الغالب يريد أن يستفيد من كل جنيه ، ويجب أن يكون في مكانه ، فيرفض دراسات الجدوى ، لأنها تكلف كثيرا ، وفي غالب الأحيان تطلبها البنوك لعقد القروض ، وكل بنك يتعامل مع مكتب استشاري أو أكثر ودائما ما يشترط أن تكون الدراسة من هذه المكاتب ، والأتعاب غالية جدا ، قد تكون أكثر بكثير من الجهد الذي بذل فيها ، فهذه هي لغة العصر ، وفي غالب الأحيان ، لا تأتي النتائج بما توصلت إليه تلك الدراسات ، ربما لأن الدراسة أصلا لم تحظى بنصيب وافر من التحليل والبحث ، أو قد يأتي التنفيذ مخالفا للنتائج التي توصلت إليها الدراسات ، فقد تبنى الدراسة على أساس أسعار معينة ، وفجأة ترتفع هذه الأسعار ، ثم ترتفع ، وترتفع نتيجة الزيادة في أسعار المواد الخام أو الأراضي أو المحروقات ، أو نتيجة تعديل القوانين أو القرارات ، وعلى وجه الخصوص القرارات الخاصة بالجمارك ، وهذه كلها تؤدي إلى ارتفاع أسعار السلع ، فتخرج شريحة كبيرة من الأعداد التي اعتبرتهم الدراسة من المستهلكين ، ذلك أنهم أصبحوا دون مستوى القوة الشرائية المناسبة ، وكثيرا ما لا يعتمد المستثمرون على المحامين لتحرير العقود ، ذلك أن المحامين أتعابهم غالية ، وأن الكثير من العقود يباع جاهزا في السوق بمبالغ زهيدة ، ومن السهولة بمكان

أن يتم تعديل العقد وفقا لمتطلبات كل من الطرفين ، فما الداعي للمحامين ، حتى القضايا ، إنه يستطيع أن يتعامل معها بنفسه ، ومعه كاتب محامي متمرس يمكنه أن يعمل السحر ، وما يستعصي عليهما يبقى يوكل محامي ، ولا للمستشارين لتصميم النظم المالية والإدارية ، أي محاسب أو إداري قديم يمكنه تطبيق ما سبق له العمل به من نظم معروفة ومجربة مش نظام جديد لسه حيجربوه وقد ينجح وقد يفشل ، وقد يفكر أحدهم في الاستعانة بالمكاتب الاستشارية لوضع نظم مالية وإدارية ، لكنها في الغالب تركن على الرف ، لأن المحاسب القديم تعود على أسلوب معين ، ولن يأتيه عيل من بتوع اليومين دول يعرفه كيف يعمل ، فيركن النظام ، دون التفكير حتى في قراءته فقد يكون مفيدا . وفي بعض الأحيان يكون التفكير في المشاريع بأن يأتيه أحد الماهرين صناعيا أو تجاريا أو تسويقيا ، ويعمل له البحر طحينة على رأى المثل ، ويقع المسكين ضحية أمور كثيرة أهمها الجهل الإداري ، وإلى أن يفهم أصول العمل كما يجب ، يكون اتخرب بيته ، ومنهم من يبدأ على أساس سليم ، ولكن أرباحه يحققها من أمرين ، الأول عرق العاملين لديه ، فهو لا يدفع إلا كما تدفع الحكومة ، وهل ما تدفعه الحكومة يتناسب مع الحد الأدنى لمستوى المعيشة ؟ وينسى أن العامل لا يفرط في حقه ، فهو إن لم يحصل على حقه كاملا ، كبد صاحب العمل أضعاف ما كان من الممكن أن يحصل عليه ، لذلك أهم عنصر في العملية الإنتاجية سواء كانت صناعة أو تجارة أو زراعة ، عنصر العمل ، فبدونه لا يمكن إنجاز شئ ، وفترة الاختبار هامة جدا ، فإما أن يثبت العامل كفاءته في العمل والأخلاق ، وإلا فلا داعي لوجوده ، حتى يتعلم أن يكون مخلصا في عمله ، ويرضى بما وافق عليه من راتب ، وإذا لم يعجبه ، أو وجد عملا أفضل منه ، يبقى خير وبركة ، لكن يدمر ويخسر صاحب العمل ، دي تبقى كارثة .."

والوالد ينصت ، ربما ببعض التململ ، فهو إداري أكثر من ابنه ، لكن حسام يتحدث معه من واقع المحاضر التي تحرر في الأقسام ، والقضايا التي تنظر في المحاكم ، وهذه خلاصة لبعض المشاكل التي جمعها في بحثه ، وأوضح حسام لأبيه ذلك ، عارضا عليه المساعدة في أي مشكلة مع من يتصرف برعونة أو إهمال ، فقط يطلب بوليس النجدة ، وكل شئ سيتم تسويته ، وشكره والده ، وتعجب حسام ، الوالد يشكر ، ليته شكر الحاج محمد ، لكان جنبه كل ما يعانيه ، وما تعانيه العائلة كلها . وفوجئ حسام بوالده يسأله متعجبا :

• " أليس هذا هو الشارع الذي كان يقطنه زوج عمتك ؟ "

وأجابه حسام والدهشة تكاد تعقد لسانه أن والده بدأ يتفهم كيف يكون وصفه لصاحب الأفضال الكثيرة عليهم ، هل الدرس الذي لقنه له هذا الصعيدي الجلنف أتى بالنتيجة المرجوة ، أم أنه يتدرب على الدبلوماسية في التعامل ، وعدم استخدام عبارات العنطزة والنرجسية التي كان دائما يستخدمها ، فجعلت الجميع ينفضون من حوله ، حتى زوجته بدأت ترفع راية العصيان ، وها هو ابنه يلقنه دروسا في الإدارة وكيفية التعامل مع الناس . على كل ، فإنها بادرة خير ، ليته يظل على هذا الأسلوب في التعامل مع زوج عمته ، فلا يعيد تلك العبارات المهترئة التي أصبحت بلا معنى ، بعد أن تبين من هو ذلك الرجل ، ويكفيه أقاربه الذين يحصلون على الشهادات العلمية العالية جدا ، ومن دول أجنبية ، والعجيب أن الجميع يشيدون بكرمه وبفضله عليهم . وعندما وصلا إلى بوابة ما وصف له على أنه المستشفى ، سأل الحارس :

• " أهذه مستشفى زاكر الدولي ؟"

لعل الحارس لم يسمع سوى كلمة مستشفى ، فأجاب بالإيجاب ، إنها هي ، ولكن لا توجد لافته ، ولا ما يؤكد على أنها مستشفى ، ذلك أنها لم تفتتح بعد ، ورافق أباه إلى مكتب المدير العام ، وهو يوصيه أن لا ينفعل ، وأن يرسم ابتسامة الثقة على وجهه ، فهي تمتص الغضب ، وتعطي انطباعا جيدا لمن يحادثه ، وأن يتقبل كل شئ برحابة صدر ، وأن يتخذ من الصبر ذريعة للوصول إلى الهدف ، وأن آمال الأسرة كلها تنعقد على هذه الوظيفة حتى يمكنهم تخطي حاجز البؤس ، والرجل يستمع دون أن يبدي أي تذمر .

استقبلته سكرتيرة أجنبية ، أو هكذا بدا هم ، فهي لا تتحدث العربية بالرغم من أنها سمراء ، ولكنتها الإنجليزية تؤكد انتمائها إلى أي من دول أوربا أو أمريكا ، وبعد السؤال والجواب ، والاتصال بالمدير العام ، أُذن له بمقابلته ، وانتظر حسام في الخارج ، وهو على أحر من الجمر ، وبعد فترة لا تقل عن ساعة ، خرج الرجل ، وصحبته السكرتيرة إلى مكتبه ، وحسام يسير خلفهما ، ووالده في صمت عجيب ، لا يدرى حسام أين ذهبت فلسفته أو تذمره ، كان إنساناً آخراً غير الذي يعرفه ، وما أن جلس على مكتبه الفاخر جدا ، والذي الحق به مكتب آخر لسكرتيرة أو مدير مكتب ، وتركتهم سكرتيرة المدير العام ، وانفرد بابنه ، حتى أمره أن يغلق

الباب ، ثم أخذ يرقص ويقفز في غرفة مكتبه كطفل سعيد ، ويحتضن ابنه فرحا مزهوا ، والكلمات تخرج من فمه بصعوبة متقطعة ، ويفتح رئتيه لاستنشاق المزيد من الهواء ، ثم قال بسعادة :

• " آه .. لقد أفنيت أسعد أيام حياتي مدفونا أمام التليفزيون ، لو أني عرفت أهمية العمل ، لما استكنت لهذا الشعور البليد ، وداعا للبؤس ، أنت تتحدث الآن مع سعادة المدير الإداري للمستشفى ، لا تنسى هذا يا ولد .."

وشعر حسام أن والده ربما يكون قد نسي أشياءاً كثيرة ، أهمها أن يشكر الله سبحانه وتعالى ، وبدا له أن يذكره بذلك ، فاحتار في كيفية اختيار الكلمات المناسبة ، فلم يملك إلا أن قال :

• " سوف أصلي ركعتي شكر لله على هذا العطاء .."

وكما لو كانت الكلمات أصابت مقتلاً ، فشعر الرجل بالخجل من نفسه ، فما هذا الرزق الذي ساقه الله إليه إلا من نعمه سبحانه وتعالى ، فلا يجب أن يتعالى على الله ويغفل فضله ، ويجب أن يشكره ، فجلس بهدوء ووقار ، وطلب سكرتيرة المدير العام لتحضر له النظام الإداري ، ولا تنسى أن تحضر سجادةً للصلاة ، وكانت مفاجأة لحسام ، أن توضأ الرجل وصلى ركعتي شكر لله سبحانه وتعالى ، وقطرات دمع خفيفة استقرت عند أركان عينيه ، وجلس أمام مكتبه ، وقال لابنه بوقار قرنه بتواضع :

• "طمئن والدتك وأختيك ، وأرجو الله أن اصبح الزوج والأب الذي كنتم تتمنونه .."

استغرقه العمل ، فلم يتنبه كم هو الوقت الذي انقضى ، وانتفض عندما سمع صوتاً عبر الدكتافون يستحثه الإسراع في تدبير أمر الغداء للعاملين ، وعليه معرفة العدد من السكرتيرة ، وشعر بأنه اختبار حقيقي لقدراته ، كيف غاب عليه ذلك رغم وروده في النظام ، وبعد عمل الترتيبات مستعينا بالتجارب السابقه لهم ، تم الغداء بكفاءة ربما أفضل ، فقد كانت السكرتيرة الأمريكية تتصل بالفنادق ، أما مدحت ، فيا لطول ما تعامل مع مطاعم الدرجات كلها ، وبالتالي فهو يعرفهم ويعرفونه ، ولم يكن من الصعب أن يلبوا طلباته بأسرع ما يمكن ، وبتكلفة أقل كثيرا من الفنادق .

جلس يقدح زناد ذهنه في وضع خطوات التنفيذ العملي للنظم الإدارية واحتياجات المستشفى من عناصر العمل والاحتياجات الأخرى ، وانتهى إلى إعداد مجموعة أوراق عمل ضمنها مقترحاته التي

أوردها كمجموعة بدائل ، وأنهى تقريره بطلب رأى المدير العام ، ومن عجب أن المدير العــــام لم يقرأ شيئا ، بل زاد على ذلك بأن أعطاه حرية التصرف كاملة ، وأن كل ما يهمه هو أن يســـتوفي المستشفى جميع عناصر العمل اللازمة لتشغيله ونظافته وأمنه وتغذية المرضى والموظفـــين وتدبـــير الاحتياجات من المطبوعات والأدوات والمهمات المكتبية والأوراق وخلافه ، في موعد أقصاه شـــهر من تاريخه ، وله مطلق الحرية في عمل كل مايراه مناسبا لتحقيق هذا الهدف في الموعد المحدد بأحسن وأفضل وأسرع الطرق ، وأقلها تكلفة مع عدم التضحية بالجودة في عناصر العمل أو المستلزمات ، إذا هذا هو سر نجاح المشروعات ، نظام وضع لكل شئ بتفصيل واف ، ومواصفات دقيقة لكـــل شئ ، وحرية تصرف للمسؤول بحيث لا يتخطى الخطوط الحمراء التي وضعت في النظام ، وأهمـــها الجودة والتكلفة .

ساور القلق زوجته ، إنه اليوم الأول الذي يغيب عنها كل هذا الوقت ، فالمسكينة قضت معظـــم الوقت وحيدة لأول مرة ، ابنها دائما في عمله ، وبناها في الدراسة بالجامعة أو في البحـــث عـــن عمل ، ولا يوجد سواهما ، هي وزوجها ، وبالرغم من كل ما فيه من مساوئ ، إلا أن وجـــوده في البيت كان له أهميته ، أو ربما الحب يعود دائما مع الأزمات ، وتأخير اليوم ليس له مبرر ، هـــل أصابه مكروه ، وماذا يكون ، حادث سيارة ، أم مشاجرة أودت إلى جروح غائرة ، أو لعله العمل لم يعجبه فتفلسف عليهم مما أودى به إلى إثبات حقه بالقوة كما هي عادته ، لقد طمأنهم حســـام ، لكن كلماته كانت مقتضبة وغير واضحة ، قال إن الله وفقه ، وهو الآن في مكتبه يعمل ، هكـــذا من أول لحظة ، لم يحدث مثل هذا الأمر ولا في الأحلام ، رجل يذهب لمقابلة فيعين !! وأيـــن ؟ في مستشفى دولي !! هذا لا يحدث حتى ولو كان مستشفى أبوه ، وهل هو معروف لهذه الدرجـــة ؟ وإذا كان ، فأين كانت هذه المعرفة طوال سنوات بقائه في البيت أمامها ؟ لا شغلة ولا مشـــغلة ، تراه سعد بعمله فأخذه كل هذا الوقت ومن اليوم الأول ، هل كان تعيينه مقررا حـــتى قبـــل أن يذهب ؟ ، أي كريم هذا الذي رحمهم من البؤس ، فألقى له هذا العمل مساعدة لهم ؟ لعله عمـــل تافه ، لا يحتاج إلى خبرات أو مؤهلات ، هل يصلح مدحت لشيء بعد كل الصدأ الذي يعانيـــه ؟ هل يجيد مدحت أي نوع من الأعمال حتى يعين في وظيفة مهمة ؟ وظيفة مهمة يعني راتب مناسب ، وراتب مناسب لوظيفة مهمة ، يعني قدرات وكفاءات عالية ، هل يتمتع مدحت بكـــل هـــذه الصفات ؟ المسكينة تخشى أن يكون الأمر كله مجرد خدعة ، تخشى أن تسعد هي وبناها كم يوم ، ثم يعدن إلى الكآبة من جديد ، أين حسام ليبحث عن أبيه ؟ إنه في العمل ، وعمله اليوم في الطريق

الزراعي ، هل تتصل به ؟ خافت أن تقلقه ، وفي هذه الحيرة التي لاحظتها الفتاتان ، وهما تحـاولان طمأنتها ، ويساعداها في تفسير تأخيره بالخير إن شاء الله ، توقفت سيارة أمام العمارة ، فأسـرعن يستطلعن الأمر ، ويتمنين أن يكون هو ، وفعلا كان هو ، أخيرا عاد إلى المترل بسيارة المستشفى في ساعة متأخرة من الليل ، لم ينهض من مكتبه إلا بعد أن انتهى من عمله ، وأعطى أوامره لسكرتيرة المدير العام بالقوائم التي تشتمل على الاحتياجات من عناصر العمل والمستلزمات لكي تدبر أمـر الإعلانات اللازمة لها ، فوجئ بالباب مفتوحا كانت زوجته وبنتاه خلفه في انتظاره ، وما أن زلـف منه حتى قابلته زوجته باحتضانه بشوق لم يشعر به منذ مدة طويلة ، ثم تعلقت به ابنتاه ، وقوبـل بعاصفة من الاحتجاجات ، الزوجة والبنات كل على حدة ، يستفسرن عـن تـأخره ، وعـدم اتصالـه بهم ، وما أن ذكروا عدم الاتصال هذه ، حتى تذكر أنه نسي أهم شئ ، التليفونـات ، المستشفى ليس بها تليفونات ، فقط تليفون محمول مع المدير العام ، يسلمه للسـكرتيرة عندمـا يتطلب الأمر ذلك ، فأسرع يتصل بأحد أصدقاء الماضي ، مسؤول كبير في هيئـة التليفونـات ، ووعده الرجل خيرا ، يمر عليه باكر وسوف يدبر له أمر تليفون ، وربما أكثر بصفة مؤقتة لحين اتخاذ إجراءات دائمة ، ودعا الله سبحانه أن يوفقه في هذا الأمر حتى يثبت للمدير العام ولنفسه مـدى قدرته على تحمل المسؤولية ، وأسرع يبحث عن مفكرة يثبت فيها أفكاره وما يتحتم عليه عملـه ، وأولاده ينظرون إليه والعجب يستولي عليهم ، بينما حسام بعد أن عاد يكاد يخفي ضحكة مـن الأعماق ، ويتعجب ، كيف للمسؤولية أن تحول إنسانا خاملا إلى شعلة من نشاط ، لكن عجبـه هذا زال ، عندما أمره أبوه أن يذهب إلى البنك ليصرف شيكا يحمل رقما من ذوي الأصفار الثلاثة ، التفت العائلة حوله تحملق وهم لا يكادون يصدقون ، وتساءل حسام عن طبيعة المبلغ ، فأفـاده والده بوقار وعزة وبشيء من الكبرياء :

- " دي بس دفعة تحت الحساب ، آه متنساش تفوت على جوز عمتك وتدفع له ألف جنيه مـن الحساب اللي له علينا .."

ثم نظر إلى ابنته صفيه ، وحملق فيها كأنما يراها لأول مرة :

- " انت مش ليسانس آداب إنجليزي .. جهزي نفسك بكرة تيجي معايا ، حعينك سـكرتيرة خاصة لمكتبي ، عايزك في كامل الأناقة والأبهة والحشمة ، ماتنسيش إن فيـه اختبـار يحـدد

قدراتك ، وكمان تدريب ، ولازم تلتحقي بالجامعة لدراسة السكرتارية التنفيذية علشان نثبتك في الوظيفة "

وتلاحق التثاؤب ، فأسرع يغسل أسنانه ، ويلقي بجسده على السرير ، لم يسأل عن طعام العشاء الذي كان يمثل أهمية كبيرة عنده ، فهو يلتهمه بينما شرفات الخمر تتخلل كل مضغة يمضغها ،ولم يفكر في سهرياته العادية مع طرقعة فمه وهو يقزقز اللب متابعا لما يعرضه التليفزيون من مسلسلات أو أفلام ، فهو لا يرى غيرهما ، وسأله حسام بصوت خفيض ، عن العشاء و العشاء ، فقال وهو يسد أذنيه بالوسادة :

• " أكلت وصليت والحمد لله .."

ثم نهض سريعا ، فقد تذكر شيئا :

• " اشتر لي كتاب أدعية وأذكار .. اسمه .. اسمه .. حأبقى أقول لك اسمه بكره إن شاء الله .."

وراح في نوم عميق ، سمعت أصواته السيمفونية في جميع أرجاء المترل ، وربما بأعلى مما كان سابقا ، وتندر الجميع على التغير السريع والعجيب في جميع تصرفاته ، تأخر في العمل ، واهتمام بكل تفاصيله ، وتحمل للمسؤولية لم يعهد فيه من قبل ، وعدم المجاملة حتى مع ابنته ..!!

وتمتم حسام ببضع كلمات وهو يلوح بالشيك :

• " مبلغ زي ده يخلي الجماد يتحرك .."

وهتف الجميع في صوت واحد :

• " يسقط الفقر ، وتحيا أيام السعادة .."

من الغد لن تكون هناك لاءات ، السيارة تجدد ، وربما يتم شراء سيارة جديدة ، ما ماركتها ، مرسيدس أم شيفروليه .. أم .. لا للمواصلات ، السيارة أو التاكسي .. وأشياء كثيرة عن لهم أن يتذاكروها حتى لا يصبح الصباح ، وقد نسوها .. أو أن يكون ذلك حلما جميلا يستيقظون منه على واقعهم الأليم ، لكن حسام طمأنهم أن كل ذلك حقيقة ، وأن اختبار الله سبحانه وتعالى لهم لا يقابل بهذا البطر ، وسأل كل واحدة منهن عن الصلاة وتلاوة القرآن ، فالله هو الرزاق ، ولابد لشكره على النعم ، والشكر لا يكون إلا بالصلاة والذكر الحكيم .

وفوجئوا بوالدهم وقد انزوت في ركن من الصالة ، وقد اتكأت إلى الحائط ، وأخفت وجهها ، وانهمرت دموعها بشكل لم يتوقعه أحد ، وعبثا حاولوا أن يتعرفوا على السبب ، فقد خنقتها العبرات بأكبر من أن تستطيع التحدث ، وأخيرا كفكفت دموعها بصعوبة ، ولم تستطع أن تبوح لهم بسبب بكائها ، فقد احتفظت به لنفسها ، اكتشفت أنها تخشى على زوجها من المجهود الزائد وهو في هذه السن ، ولا تعرف كيف تنقل له هذا التعبير ، حتى لا يتصور أنها تطالبه بالعودة إلى كسله ، لكن الحقيقة أنها اكتشفت فجأة أنها مازالت تحبه ، تماما مثلما تعلق به قلبها أول مرة رأته فيها بعيني فتاة ناضجة يخفق قلبها بالحب ، ربما توارى هذا الحب خلف الفقر والمعاناة ، لكنه أبدا موجود ، وتعجبت ، كيف وهي في هذه السن مازال هذا القلب الضعيف الذي يئن تحت وطأة أي مواجهة صعبة .. يحب ، وبنفس قوة الحب وهي فتاة في السادسة عشر من عمرها ، وعن لها أن تتذكر أول يوم خفق قلبها بحبه ، كانت قد عقدت العزم على الحب ، فكل من حولها يحبون ، لكنها كانت متفوقة رياضيا ، ووقتها كله إما للدراسة أو الرياضة أو الرحلات والمسرح ، ففي المدرسة هي رئيسة فريق كرة السلة ، وكذلك في النادي ، زميلاتها وصديقاتها يتمشين ، يبحلقن من تحت لتحت للشباب ، وكل منهن ترسم على واحد منهم وربما أكثر مع ترتيب للأوليات ، فالأمور تقاس بمقياس الشكل أو الجيب أو التفوق ، أما هي ، فقد أنساها اهتمامها بالدراسة والرياضة كل شئ ، ولم تجد وقتا للحب ، إلى أن جلست جلسة فتياتي ، وباحت كل منهن بحبها لأحد الشباب ، ابن الجيران ، أو أخو صديقة من صديقاتها ، أو أحد الأقارب ، أو خطيب مفروض ، فرضته قرابة أو صداقة بين الوالدين أو أحدهما ، وتم الاتفاق على زواجهما منذ أيام الطفولة ، وعندما بلغ كل منهما سن الشباب وجد نصفه الآخر مش بطال ، أو ربما لكثرة ترديد الأهل للعبارات التي تؤكد ارتباطهما كل بالآخر ، صار الأمر كالواقع تماما بدون معارضة .

أو ربما شاب معجب إستهفه الشوق فسار مع التيار ، ووجدت فيه هوى من نفسها ، أما ألفت ، فلا يوجد في حياتها أي شاب ، بل لقد أكسبتها الرياضة جسدا ممشوقا معتدلا كله حيوية ، ووجه مشرق له ضياء الصحة والعافية ، ولأن لهم جذور شامية ، فإن زيت الزيتون من الأمور الهامة صباحا ، فنجان قهوة يوميا على الريق ، وهذا أعطى وجهها لمعانا طبيعيا ، ووجنتيها إحمرار صحة وجمال ، حتى لكأن زميلاتها كن يحسدنها على الروج الطبيعي الذي يكتسي به وجهها ، والذي مازالت بقاياه بالرغم من الزمن والبؤس ، كانت ترفض تقرب الشباب منها ، فما أن يحاول

أي شاب مغازلتها ، حتى يسمع ما لا يسره ، وباستهتار يجعله يأسف على ما بدر منه ، فإذا فكـر أيهم في تجاوز الحدود ، لقنته درسا عضليا يندم به طوال عمره ، حتى أسموها بالكابتن .

رأته أمام باب الفيلا ، يصفر لأحد اخوتها ، كانت اللغة التي يتعاملون بها سويا صفارة من الفـم يطلقها كل منهم بطريقة خاصة حتى أصبحت سمة التعرف عليه ، ووجدت قلبها يخفـق بـالحب حـتى قبل أن تتمعن في وجهه ، ولما خرجت تستطلع الصورة ، وجدتها منطبعة في ذاكرتها ، لكنها كانت في حاجة لمن يكشف عن حقيقة مشاعرها ، والعجيب أنها لم تلب نداء الحب بحسب ما هـو متعارف عليه ، التنهد والتسبيل والكلام الناعم ، لكنها فاجأته :

• " إنت أخو نورهان ..! سلم لي عليها .."

ودخلت دون أن تسأله ماذا يريد ؟ فأطلق صافرته مرة أخرى ، فخرجت مسرعة ، وقدمت لـه الأسف ، وأخبرته بأن أخاها ينتظره في المكان المعتاد ، ولأنها لا تعرف المكان المعتاد هذا ، لذلـك سألته :

• " أين هو هذا المكان المعتاد ؟"

ولما كانت كلماتها معه مثل الكابتن أو المدرب ، وهذا أحد الأسباب التي جعلتهم يطلقون عليـها ذلك اللقب ، حتى واجهها متفاكها :

• " حضرتك ناوي تشرفنا يا كابتن .."

وكادت أن تخرج من بين شفتيه ضحكة ، لكنها جعلته يبتلعها :

• " بتتريق يا شاطر ، طب تعال وريني شطارتك .."

وسحبته إلى الداخل ، ثم وضعت يدها على طاولة الطعام ، وأمسكت بيده المسلوعة ، وكـم اختبار لقوة الساعد ، أثبت أنه ليس في مستواها ، فضحكت مستهينة به ، وهي تقول :

• " لما تبقى قد التريقة يا شاطر ابقى اتريق .."

وأخلت سبيله ، وضحكاتها تلاحقه ، فأقسم أن لا يذهب لصديقه هذا مرة أخرى ، وإذا كـان يريده ، فعليه الحضور إليه ، وصديقه هذا كان ممن يحبون أخته نورهان ، ولكن نورهـان كـانت صغيرة على الحب في تلك الأيام ، وعندما بدأ قلبها يتنسم أول مفاهيمه ، كان الحاج محمد قـد

جاء ، واستولى على هذا القلب الصغير اليانع ، وملأه برجولته المبكرة ، وشهامته وحسن سلوكه ، ولم يجد المسكين لنفسه مكانا عندها ، وكان أحد الذين ارتدوا الملابس السوداء ليلـــة زفافـــها ، لكـــن تردده على فيلا الأناضولي للقاء صديقه مدحت كان مستمرا إلى أن اكتشف حب نورهان لمحمد ، فامتنع عن الذهاب حتى يستطيع معالجة جراح قلبه ، واضطر مدحت للذهاب إليه ، فقابلته وقالت له :

- " إيه يا كابتن ، على الله تكون اتمرنت كويس .."

فولى مدبرا ولم يعقب ، لكنها جرته مرة أخرى ، وسحبته إلى طاولة الطعام ، واختـــبرت قـــوة ساعده ثانية ، ولم تجد منه أي تقدم ، فقالت مستنكرة أن يكون هذا الساعد لرجل :

- " مش يا ابني تتغذى كويس ، وتقوي نفسك حبتين ، ده انت ما فيكش يا عيني غير حبة هدوم وشوية عظم .."

وتركته ينصرف بينما قهقهاتها تلاحقه ، وقد غليت كل أوصاله ، دماءه وعروقـــه وعضلاتـــه ، وذهب من فوره إلى النادي يشترك في ألعاب القوى ، وأخذ يتدرب حتى قوي ساعده ، وعندها ، ذهب إلى صديقه ، فخرجت إليه تجره ، فإذا به هو الذي يجرها ، ثم يلاعبها ويغلبـــها ويلاعبـــها ويغلبها ويلاعبها ويغلبها ، وكأنما يريد أن يرد اعتباره ، ففاجأته :

- " دلوقتي بقى ممكن أحبك .."

وصعقته الكلمة ، فما كان يتصور أن فتاة تحب شابا بهذه الطريقة ، وتساءل مع نفسه ، لكنـــها وفرت عليه الإجابة :

- " مش برضه الواحدة لما تحب ، لازم تحب واحد من مستواها الرياضي ، وما كان لي أن أحبك ما لم تكن في مستواي الرياضي ، والآن يمكنني أن أصارحك بحبي لك ، وعلى فكرة ، أنا لست سهلة ، يعني ما دام حبيتك ، يبقى سعادتك مش حتفلت مني ، وإوعى تبص شمال والا يمـــين ، والا تفكر تحب واحدة غيري ، أنا قررت إننا لما نكبر نتجوز ، وما فيش أمامك إلا أن تشترك في فريق الباسكت في النادي ، علشان نقدر نشوف بعض يوميا ، وعليك أن ترسم حياتك على هذا الأساس ، يعني مفيش سهر ، ومفيش سرمحة شباب ولا مشروبات من اياها ولا غيرها .."

يالها من أيام جميلة ، كانت تحب الطعام ، وربما تكون هي التي علمته الشراهة ، فقد كان قليـــل الأكل ، ضعيف البنية ، لكنها تريده قوي الشكيمة ، رائع البنيان ، سليم الجسم ، معافى ، فما أن ينتهي التمرين حتى تفتح حقيبتها الرياضية ، وتخرج له " سندوتشات " من كل الأصناف ، وتعطيه ليأكل ، فإن رفض ، وضعت له الأكل في فمه ، وزميلاتها يضحكن ، فهن يعرفن أن هـــذه هـــي طريقتها مع من تحبهم ، ومادامت تفعل ذلك معه ، فهي تحبه ، والمسكين لا يستطيع أن يرفـــض ، فالطعام له نكهة جميلة ، فهي تتفنن في صناعته بيدها ، وتضيف إليه من بركاتها وفنها ودراســتها ، فقد كانت تدبير منزلي ، وهات يا أكل ، وهات يا لعب ، حتى تم التخرج ، ثم الزواج .

هذا المسكين ، التي كادت له لتتزوجه ، وعاشت معه حياة العز تشبعه حبا ، ثم عندما شـــحت الأموال في حياة والده ، تصرفت هذا التصرف اللاإنساني مع والده العجوز المريـــض ، وعندمـــا انتهت عطايا الحاج التي لم تكن تعلم عنها شيئا ، عاملته معاملة من لا يرجى منه نفعا ، بل أشـعرته بأن وجوده مثل عدمه ، وربما عدمه أفضل ، حتى تقوقع الرجل على نفسه يكابد الإحساس بالمهانة وعدم الاهتمام ، وكأنما هو كتلة من لا شئ ، ولو كان شوال بصل ، والا شيكارة أرز لكان أفضل ، واليوم .. اليوم فقط ، صحا ذلك المارد الذي ظل مسيطرا عليها طوال تلك الســـنين ، وهـــي تتساءل لماذا ترتبط به ، كان من تعليمات والدها لها ، أنها إذا اشتكت العوز تـــترك لـــه أولاده ، وتأتي إلى بيت أبيها معززة مكرمة ، لكن تأتي وأولادها منه معها ، لا وألف لا ، ولم تتركه ، وبقيت معه ومع أولادها ، تحملت شظف العيش إلى أن اكتشفت أنه كتله من الخمول ، وهي تريـــده أن يتحرك ، وعندما تحرك ، أراد أن يثبت لها أنه هذا الشاب الذي ذهب ليتدرب ، حتى يكـــون في مستواها الرياضي ، والآن هو يريد أن يفني نفسه في العمل حتى يثبت لها أنه في المستوى المالي الذي تريده . هل هو أيضا يحبها هذا الحب ؟ أم أنه صعبت عليه نفسه أن يعامل معاملة الكـــم المـــهمل الذي يتمنون التخلص منه ، فما أن أتيحت له الفرصة حتى استغلها وتشبث فيها بيديه وأســنانه ، والنتيجة أكثر من رائعة ، فمن اليوم الأول لعمله ، شيكا بثلاثة آلاف جنيه ، دفعة تحت حســـاب المرتب ، يالها من ثروة هبطت عليهم من السماء ، وقد كانوا على وشك القنوط ، ووجـــدت أن الأمر ليس إلا توفيقا من الله ، وأن حسام كان على حق عندما طلب منهم أن يصلوا لله شـــكرا ، فنظرت إلى الفتاتين اللتين وقفتا يتأملانها في شرودها ، وصرخت فيهما :

• " ألم يأمركما أخوكما بالصلاة لله شكرا .. فيم انتظاركما ، أن نعود مرة أخرى إلى حالة الفقر التي لم تستطيعا تحملها ، اذهبا فورا للصلاة .."

وكانت هي السباقة ، أسرعت تتوضأ ، وتلتها صفية ثم نشوى ، وتعجب حسام من الجمال الإلهي الذي زادهن بهاءا بعد الالتزام بالزي الإسلامي ، مما أثلج صدره. وبعد الصلاة ، دخلت السيدة غرفتها ، فأخذت رأس زوجها النائم إلى صدرها ، وأخذت تقبل فيه قبلات حب صادق ، لعلها بذلك تستغفر لما ارتكبته في حقه من إهمال أو معاملة قاسية ، والرجل في شخيره ، مع الإرهاق الذي تحمله ، ربما لأن العمل يعجبه ، وربما لأنه وجد نفسه بعد أن ضاعت في اللا عمل ، وربما لأنه عانى من الفقر فأراد أن لا يضيع فرصة ساقها الله إليه ، المهم أنه تمسك بهذه الوظيفة ، وأراد أن يكون هذا المدير الإداري الناجح ، فما دامت المستشفى قد طلبته بالاسم ، فلا بد وأن هناك من أوصى به عندهم ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلا بد وأن يثبت لهذا الكريم الذي أوصى به أنه عند حسن ظنه ، ويثبت للمدير الذي ترك له حرية التصرف والمهم النتائج ، أنه أهل لثقته ، ويثبت لنفسه أنه مازال قادرا على العطاء في عمله ، ويثبت لعائلته أنه ذلك الأب الذي إذا سنحت له الظروف أن يكون ما يتمنونه ، فلن يكون إلا كذلك ، لكنه وأثناء نومه ، ما كان ليشعر بهذا القلب الخافق الذي أدنته ألفت من أذنيه عله ينقل إليه كم هي تحبه ، وكم كان قلقها عليه عندما تأخر ، لكن النوم كان قد سيطر على كل جوارحه ، ذلك أن كل جوارحه كانت قد وصلت إلى درجة من الإنهاك ، لا يمكنه معها إلا أن ينام ، فتمددت هي إلى جانبه ، تدعو له بالتوفيق والنجاح والصحة والعافية ، وتتلو بعضا مما تحفظه من آيات الذكر الحكيم ، وفي قرارها أنها تنوي استعادة ما نسيته منها ، ثم تحفظه سورة سورة .

عادت شوق من فيلا السلحدار وقد انتابتها ثورة غضب عارمة ، ذلك الهمس بين عبد المنعم وميشو يعني أن لبيبا قد سرب لهما أخبارا عن شكوكها ونواياها ، وهذا الأمر لا يتطلب التأخير في تنفيذ مكيدة أكيدة تعيد بها حقوقها وحقوق ابنها ، وليذهب الجميع إلى الجحيم ، فما حدث لهما ليس قليلا ، وما عانته ليس سهلا ، وما أرادوه لها كان قمة في القسوة وانعدام الضمير ، والرد لا بد وأن يكون من جنس العمل ، فإذا كانت جلنار هي التي فعلت وعبد المنعم صغير ، فهي الآن تفعل وعبد المنعم كبير ، ويستطيع أن يعتمد على نفسه ، وابنه ليس صغيرا ، وإن كان مريضا هذه الأيام ، فلا بد له وأن يشفى ، وقد آن الأوان أن تنتقم من هذا العبد المنعم ، ومن المحامي لبيب أيضا ، حتى يعرف من هي شوق فلا يتلاعب معها أو بها ، ونادت خلفا وأمرته أن يطلب المتر لبيب ، لكنها شعرت بأن رده على خلف لم يكن كما ينبغي ، فانتزعت سماعة الهاتف من خلف وتداولت مع المتر بعض العبارات ، ثم ثارت عليه معلنة غضبها ، فأغلق الهاتف دون أن تكمل كلامها ، ولم تهدأ ، طلبت من خلف أن يكتب كتابا للنائب العام ، وأوصته بأن يوقعه حتى لا تعتبر الشكوى كيدية ، وتدارست معه المستندات الهامة التي تؤيد الشكوى ، وسلمتها له ليعد منها مجموعة من الصور ، بينما تحتفظ هي بالأصول لديها ، وأوصته بأن لا يخبر أي إنسان كائن من كان بهذه الأمور ، ولا حتى إسماعيل ابنها ، كانت ثورتها غير محدودة ، فما عادت تسمح لأحد بأن يتلاعب معها ، حتى ولو كان ابنها ، وتعجب خلف من هذا التحول السريع في تصرفاتها ، لكنه التمس لها العذر ، فالمتر لبيب أغلق سماعة الهاتف أثناء حديثها معه ، شعر بذلك عندما وجدها أوقفت سيل الغضب الذي صاغته عبارات كلها تجريح في المتر لبيب ، فقد تضمنت تلك العبارات أنه لا يصلح أن يكون عرضحالجي ، وأنه محامي فاشل لا ينجح إلا في المكائد وخراب البيوت والذمم ، وأمور أخرى كثيرة من هذه النوعية من العبارات التي جعلته ينهي المكالمة من جانبه ، هذا مع تصوره بأن المتر لبيب لابد وأنه قد ارتكب خطأ جسيما ذلك الذي جعلها تثور عليه بهذه الكيفية .

المتر لبيب رغم إغلاقه الهاتف في وجه شوق ، إلا أن ما قالته أرعبه وأي رعب ، فقد اتهمته بأنه شريك في التزوير والقتل ، فأسرع إلى المستفيد الأول من تلك الجرائم ، وأخبره عن ما شاهده من مستندات كفيلة بأن تذهب بهم جميعا إلى حبل المشنقة ، وإذا كان لبيب المحامي قد ارتعب بهذه

الصورة ، فماذا يفعل عبد المنعم ؟ بدا له أن يتداول الأمر مع أركان عائلته ، وزوج أخته " كريم " وكيل الوزارة ، وبعقلية رجال السلطة استهان بالمدعوة شوق وبمستنداها وبما يمكن أن تفعلـــه ، وأمهلهم ليستشير رجال الشئون القانونية بالمحافظة ، فأفادوه بأنها لا يمكنها أن تفعل شيئا ، ظنـــا منهم أن البيع سليم ، والتواريخ مضبوطة ، وعلى ذلك أصدر حكما بأنها لا تستطيع حتى أن تطعن في أبوة السلحدار لعبد المنعم ، وحيث أن معظم شهود هذه الوقائع توفاهم الله ، والموجودون منهم على قيد الحياة ، كلهم شاركوا في هذه المكائد وخرجوا بنصيب وافر من الغنائم ، ولن يعـــترف أي منهم بما فعل ، وإلا طاله القانون بعقوبة أو أكثر ، وأنه لا يوجد معها أية مســـتندات تؤكـــد رواياها المحبوكة لأن المستندات التي أعطاها لبيب لها مفبركة ، أما ما وثقه الباشا من شـــهادات أو وثائق بيع أو وصية فإنها لا تدحض بصمته على عقود البيع لعبد المنعم واخوته ولبيب ، ذلـــك أن البصمة أقوى كثيرا من التوقيع ، لأن التوقيع يمكن تزويره ، لكن البصمة يســـتحيل تزويرهـــا ، والخلط بين عبد المنعم الجاويش وعبد المنعم السلحدار ، لا يوجد ما يؤكده إلاّ ما يدور في رأسها ، إنه مجرد تشابه أسماء كثيرا ما يحدث في العائلات ، وعلى هذا الأساس ، ومن منطلق الكثير مـــن الاعتبارات ، واستخفاف بعض المسئولين بعقول البسطاء ، دعها تضرب رأسها بالحائط .

عندما همت ميشو أن تعلق عندما شاهدت الحاج محمد في التليفزيون ، ومنعها عبد المنعم ببعـــض العبارات التي قالها هامسا ، شعرت شوق بأن هناك علاقة بين عبد المنعم والحاج محمد ، فأرادت أن تعرف طبيعتها ، فان معزتها للحاج محمد فوق كل الاعتبارات ، فانتظرت حتى حضر إسمـــاعيل ، واصطحبته لزيارة الحاج محمد ، وأثناء الحديث ، عرفت أن اسمه الكامل محمد عبد المؤمن الصقر ، وهذا معناه أن منى محمد عبد المؤمن ابنته ، حيث لم يذكر في العقد لقب العائلة ، فسألته عنـــها ، وعرفت منه أنه تم عقد قرانها على علاء ابن عبد المنعم ، وأن شقة عمارة الدقي هي مهرها ، وأنهم في انتظار تخرجها ، والشفاء الكامل لعلاء ، لكي يتزوجا ، لكنها لاحظت أنها قد تكون حـــامل ، فتجاهلت الأمر حتى لا تحرج الرجل الذي نالها بعضا من أفضاله ، لكن الأمور لم تكن واضحـــة بالنسبة لها ، وما فعلته سيضر عبد المنعم في مقتل ، ومادام عبد المنعم سيضار ، فلا بد وأن عـــلاء ابنه سيضار أيضا ، وإذا أضير الاثنان ، فلا بد وأن منى ستضار بالتبعية ، ومن ثم الحـــاج محمـــد وعائلته ، وهذا ما لا ترضاه ، فأرادت أن تتحقق من كل شئ ، حتى تستطيع أن تتصـــرف دون المساس بالحاج محمد وعائلته ، لكنها عندما رأت منى ، أعجبت بها ربما بأكثر مما أعجبتها منـــال ، وتمنت لو أن ابنها إسماعيل تزوجها ، فهي مناسبة له تماما ، خاصة بالنسبة للسن ، فمـــتى تكـــبر

منـــال بعدة أعوام وعلى هذا فهي أكثر مناسبة لإسماعيل من منال ، ومادامت منال متعلقة بـــابن خالها ، فإن متى تكون الأفضل ، لو أن علاء طلقها ، وهذا لا بد وأن يحدث ، فمن علاء هـــذا ؟ سليل عائلة الكذب والخداع والمكر والإجرام ، حتى يتزوج سليلة رجل كله إيمان وتقوى ومروءة وعفة وشهامة ورجولة وكرم .. وأشياء كثيرة لو أخذت تعدد فيها ، لما وسعتها مجلدات ، وهـــي مازالت تنظر إليه بعيني حبيبة تنظر إلى محبوب كان كريما معها ، وعاملها باحترام وعفة ، ولم يجرح كبرياءها ، ثم أن إسماعيل يريد زوجة صالحة ، وبنت ناس ، ولن تجد له أفضل من إحدى بنـــات الحاج محمد ، فلتضرب ضربتها ، وليذهب الجميع إلى الجحيم ، فطلبت من خلف أن يعرف قصة قران منى من علاء ، فالحاج ليس من السهولة بحيث يقبل زواج ابنته من شاب مريض ، فضلا عن أنها لم تنهِ دراستها بعد ، وعاد إليها خلف بكل الأخبار ، فقد استخدم أسلوبه المعتاد ، الهبل علـــى العبط على الشيطنة ، ادعى أنه صحفي ، وذهب إلى المستشفى التي يعالج فيها علاء ، وسأل عـــن مرضه وأسباب علته ، والممرضات هناك تسابقن في سرد تفاصيل ما حدث ، وكـــل أملـــهن أن يظهرن في التحقيق الصحفي الذي يتولاه ، ثم ذهب إلى أماكن الأحداث ، وجمع التفاصيل وعـــاد إليها .

إذاً لقد كادوا لهذا الرجل الطيب ، وما تفكر فيه هم يستحقون أكثر منه ، وزيادة في الكيـــد ، اقترح خلف أن يرعب لبيباً وعبد المنعم بمعاكسات من تليفونات عامة بعيدة كل البعد عن الشك ، بصوت مجموعة من زملائه أو أصدقائه ، ليس من بينهم من يعرفونه ، ولما وجد منها رفضا للفكرة تعهد أن لا يذكر اسمها ولا يقحم أحدا ممن في الكفر ، وأنه سيقوم بذلك على مسئوليته الخاصة ، وحرص أن يكون دقيقا في اختياره مجموعة ممن معه من الممثلين في فرقة التمثيل التي يحاول تشكيلها ، ودقيقا جدا مع من يختارهم ، يطلب لهم الأرقام ، وهم يتحدثون ، كانت العبارات مختلفة ، لكن المفهوم واحد ، ولا يعرف أحد منهم مع من يتحدث ، ولا لماذا ؟ :

- " تدفعوا لي كام .. وأسكت .. الهانم حتخرب بيتكم ، وتحطكم كلكم في الســـــجن ، ده إن مكنش حبل المشنقة .."
- " إذا ما خلتوش بالكم مني .. حأخرب بيتكم .. أنا عندي كل المستندات .."
- " أنا وراكم والزمن طويل .."

وهكذا ، ما أن يرد المتر لبيب ، حتى يسمع هذه العبارات وأمثالها كثير ، وكذلك الأمر مع عبد المنعم ، والعبارات لا تقال إلا للمتر لبيب أو عبد المنعم ، وليس لغيرهما ، فتقدما بشكوى ضـــــد شوق ، واهتم البوليس بالأمر ، وفوجئت باستدعاء الشرطة لها ، وكانت الطامة ، أخذتها عـــزة النفس ، وسألت أمين الشرطة الذي حضر إليها ليصطحبها إلى القسم :

• " ما هو الموضوع ..؟"

وعندما عرفت بأمر الشكوى ، سألت :

• " هل كل من يقدم شكوى يكون على حق .. ؟ اذهب لرؤسائك وقل لهم أن الهانم لا تذهــب إلى أقسام الشرطة ، وإذا كان هناك تحقيق ، فليحضروا إلى هنا ، أنا لا أذهب .. "

ولما وجدت لكلماتها على أمين الشرطة وقع غير مريح ، أضافت بهدوء :

• " أنا يا ابني ست مسنة ، ولا أستطيع الذهاب إلى الشرطة .. مفهوم ؟.."

قالتها بشيء من الغضب ، فانتفض المسكين وأدلى بذلك للمسئولين الذين قـــدروا الظـــروف ، وذهبوا إليها لاستكمال التحقيق ، وسألت متعجبة :

• " هل هناك خصومة بيني وبين هؤلاء الناس حتى أزعجهم أو يزعجوني .. ؟ يقولون أن عبـــد المنعم أخو ابني من زوجة أخرى ، أما عن لبيب المحامي ، فقد كان كاتبا عند الباشا زوجي رحمه الله ، ولا توجد أية علاقة بينه وبيننا الآن ، إن هذه الأمور كلها محض افتراء ، ثم أن ما يدعونه ، لعب عيال ، هل ترى أنني ممن يزاول مثل هذه الألعاب ، أرجوك يا حضرة الضابط أن تثبت كل هذا في المحضر ، وترسل لي صورة مع أحد رجالك .. ثم تحقق ما شاء لك التحقيق ، وبعد أن تتأكد من أنه لا توجد لي يد فيما يحدث معهم ، أرجو أن تأخذ عليهم التعهدات الكافيـــة بعدم التعرض لي أو لابني ، فأنا أرى أنهم يدبرون لنا أمراً أسأل الله أن ينجينا منه .."

وشرحت لهم ما قاموا بعمله من حرمانهم لها ولابنها من ميراث زوجها ، وقد ذهبـــت تطالبـــهم بحقها وحق ابنها ، وهناك اتفاق شفهي غير مكتوب ، ورجته أن يحقق معهم فيه ، ويأخذ عليـــهم التزاما بتنفيذه .

لكنهم كانوا قد زادوا على ذلك ، فقاموا بإغلاق دار كفر السلحدار ، وطردوا الفلاحين من الأرض ، ووضعوا حراسهم في كل مكان ليمنعوا كل من هو من طرفها ، وأبلغها عبد الجليل بكل ذلك ، وهي تغلي ، لكن خلفاً هون من كل هذا ، وأفهمها بأنهم لا بد وأن يفعلوا هذا وأكثر ، لكن المهم من يضحك أخيرا ، فقالت :

• " لقد فعلوا خيرا ، لقد كنت متحرجة مما أفعل ، ولكنهم الآن يستحقون كل ما سيحدث لهم وزيادة .."

ذهب إسماعيل إلى الأرض ، فمنعه الحرس الذين زاد عبد المنعم عددهم ، وقص عليه الفلاحون ما حدث ، فعاد سريعا إلى والدته ليتشاور معها ، وأسقط في يد السيدة ، ماذا تفعل ، تمنت أن لا يكون إسماعيل موجوداً ، فقد يتصرف تصرفا يفسد به كل ما تخطط له ، كأن ينقل الأمر إلى عائلة زيدان ، ويصبح الأمر ثأرا تتداوله طلقات الرصاص ، أو أن يبلغ الأمر للسفارة الفرنسية مثلا باعتبار أن أمه فرنسية وجده لأمه فرنسيا ، وهي لا تريد أي تدخل أجنبي ، ورأت أنه لابد من إبعاده خلال هذه الفترة عن مصر ، ولا شئ يبعده عن مصر إلا فرنسا ، فطلبت منه السفر إليها ، وكلفته بمجموعة من الأعمال من بينها التعاقد على الدرنات ، ولكنه شعر بأن هناك خطراً يحدق بوالدته ، وتريد هي أن تنفرد بالحل ، وهو لن يتركها مهما كان الأمر ، لكنها أصرت ، فامتثل وسافر .

بوحي من مسئوليته ، جمع خلف عدداً من الأصدقاء ، وتناوبوا حراسة الفيلا ، فهو يخشى أن يهاجمهم مجموعة عبد المنعم ولبيب اللذين أثار حفيظتهم تحقيق الشرطة معهم ، وأصابهم التعهد الذي قاموا بالتوقيع عليه بالخوف والهلع ، وجعلهم يحاولون الاتصال بها ، وهي تغلق الهاتف دونهم ، ولا ترغب في التحدث إلى أي منهم ، لا تدري ، هل كانوا يتصورون أن يفعلوا ما يفعلون ، وتقف مكتوفة الأيدي ، وحضر إليها الضابط ليطلعها على أقوالهم بخصوص الاستيلاء على ميراثها وميراث ابنها من أبيها وزوجها ، وعرض عليها رغبتهم في الصلح وإعادة توزيع التركة وفقا للشرع ، فسألت الضابط :

• " هل حررت هذه الأقوال في محضر ، أم اكتفيت به شفاهة ..؟"

ولما كان الجواب بأنه لم يحرر محضرا ، أبدت تعجبها ، ثم قالت له :

• " عليهم أن يتركوا القصر في القاهرة ، والأرض والفيلا في الكفر ، والعمارة في الدقي ، وهنا فقط أستطيع أن أعقد معهم اتفاقا ، وإلا .. فليس أمامي إلا عدالة القانون ، رجال الشـــرطة ورجال القضاء .."

قرروا أن طلباقا غاية في الغرابة ، فهذا معناه أها لن تتنازل عن أن عبد المنعم ليس ابنا للباشـــا ، وأن من ادعت أها والدته ، الباشا طلقها قبل وفاته ، يا له من رد لما فعلوه بزوجها وبها هي وابنها ، لقد شاركوا جميعهم في هذه الجريمة ، عبد المنعم هو الذي قــــــام بتقديم الكأس المســمومة للباشا وهو يعلم أن بها سما ، فقد تفتق ذهن المرأة المتجبرة ، عن أن الباشا لـــن يشــك في طفـــل الخامسة عشر أن يكيد له ، ولكنه بذلك أصبح شريكا كاملا في الجريمة ، أما أخوه السفير ، فقــد سكت عن كل ما دبروه ، لم يفكر حتى في الاعتراض من منطلق القانون الذي كان يدرسه في تلك الفترة ، وكذلك أخته ، لم تحرك ساكنا ، وهي ترى قريبتها تكيد للرجل ، بل إنهـــا لم تفكــر في الإسراع لطلب من يقوم بإسعافه عندما وجدته يتألم من أثر السم ، أما لبيب ، فهو الذي أحضر لهم السم ، وهو الذي أحضر مجموعة البلطجية اللذين قاموا بطرد شوق من الكفر ، وهو الذي ساعد في نقل الباشا إلى دار شوق في الكفر ، وهو الذي بكى تأثرا لآلام الباشا متأثرا مما يحـــدث لـــه ، وعندما أسرعت شوق تطلب طبيب الوحدة الصحية بالكفر ، كان قد سافر ، فقد اختار الخبثـــاء موعدا ، يتناسب مع عودة الطبيب إلى القاهرة ، وكان لابد لها من أن تطلب طبيبا من أي مكان ، لكنه عندما حضر ، كانت الأمور في مراحلها الأخيرة ، فأعلن أن الأمر بيد الله .

مضى الوقت على شوق وهي تغلي ، فطلباقا أقلقت عبد المنعم ، وهي تغلق سماعة الهاتف دونهـم ، ولم تقم بأي إجراء يشفي غليلها ، لكن عبد المنعم خشي إن هو تباطأ اكثر مما ينبغي ، فقد ينتقل الأمر إلى الشرطة ومن ثم المحاكم ، والحل السلمي الآن قد يكون أبسط وأسهل كثيرا من أي تأخير ، ذلك أن التعرف على آثار السم يمكن التحقق منه حتى بعد أن تتحلل الجثة ، والجريمة لا تفيــد ، ولا تبقى أبد الدهر دون أن تكتشف ، ومع رفضها الرد على مكالماته ، ذهب إليها مع زوجتــه ، ورفضت مقابلتهما في البداية ، لكنها مع إصرارهما قبلت مضطرة ، وجلسوا يتفاهمون ، فأعلنتهما بطلباقا ، وأهت المقابلة بأن التنفيذ السريع هو الحل الوحيد الذي يوقف أية إجراءات ، وعلـــى وجه الخصوص ، التوقيع الآن على اعتراف بأن الدار والأربعين فدانا ، ملكا خالصا لها من أبيـــها المرحوم درويش زيدان ، ويبتعد هؤلاء البلطجية من هناك كلية ، ثم يتم التفاهم بعد ذلك علـــى

القصور وباقي الأراضي والممتلكات التي انتزعوها منها ، وعبثا حاول عبد المنعم أن يتفاهم ، من منطلق أن ذلك يعني أنهم سيكونون بلا أية أملاك ، فنظرت إليهما نظرة كلها غضب :

- " وهل فكرتم في ذلك عندما قمتم بطردنا أنا وابني من الكفر والدار ، ألا يعتبر ما فعلتموه بزوجي قتلا وسرقة بالإكراه ، ولا تقول لي أنك لم تشترك في هذه الجريمة ، فقد قص على لبيب كل شئ ، وقبض مقابل ذلك مبلغا كبيرا من المال ، فلا تتصوروا أنني سأغمض عيني عن كل هذه الجرائم الفظيعة .."

ثم نظرت إلى ميشو بتهكم :

- " هل هذه هي مبادئ جمعية الأخلاق الكريمة التي يشرفك الانتماء إليها .. ؟ "

وكعادتها عندما وجدت عبد المنعم يتلكأ في التوقيع ، ثم يرفض أن يكتب التعهد ويوقع عليه ، نادت شوق خادمتها الأجنبية ، التي وقفت بما يفيد ضرورة مغادرتهما .. وغادرا دون أن يوقع عبد المنعم على شئ ، فقد أقنعه زوج أخته المهندس كريم بعدم التوقيع على أي شئ أو الاعتراف بأي شئ .

ونادت خلفا ، سألته عن حراس الدار والأرض ، وأفادها بأنهم صعايدة ، اطمأن قلبها ، وأمرت السائق ليتجهز للسفر إلى الكفر فورا ، حاولت الخادمة معها أن تتناول شيئا قبل السفر ، فهي على إفطار الأمس ، لكنها يبدو أنها لا تسمع إلا لما تريد سماعه ، وتهب السائق المسافة إلى الكفر بسرعة الريح ، وصلته عصرا ، وتوجهت من فورها إلى الدار ، فاعترضها البلطجية ، فسألهم خلف عن رئيسهم ، وقدم بكل الشموخ الذي يفتعله الصعيدي عندما يتعامل مع من يعتبره عدوا ، قال له خلف :

- " أتعرف من السيدة ، إنها ابنة المرحوم درويش زيدان ، هل سمعت عن درويش زيدان ، وإذا لم تكن قد سمعت ، فلتعلم أنه من أكبر الرؤوس في عائلة زيدان ، وأنت تعرف من هم عائلة زيدان .."

وإذا بغطرسته تذهب أدراج الرياح ، وإذا به يقدم للسيدة ومن معها كل الإحترامات ، ويأمر مجموعة البلطجية ليخلي سبيل الدار والقصر والأرض ، وهو يردد :

- " كل شئ إلا عائلة زيدان ، فهم سادتنا وفوق رؤوسنا جميعا .."

وسأله خلف عن عددهم ، ثم أعطى كل منهم مبلغا كبيرا من المال ، ولم يقبلوه إلا بعد أن قالت السيدة لهم :

- " إنه تعويض عن تعطلكم ، فقط أبلغوا من أرسلكم بأن الست شوق في دارها بالكفر ، ولا مانع من أن تقولوا كل ما تريدون ، بمعنى تفهموهم من هم عائلة زيدان ، وأنني لو رغبت في إخراجهم من الفيلا في القاهرة بدون ملابس ، لفعلت ، ولو رغبت في أن يأخذ كل منهم نصيبه من الضرب المبرح ، أمام الجميع ، لكان لي ما أريد ، لكنني لست من هذا النوع .."

جن جنون عبد المنعم ، الذي سارع بالاتصال بزوج أخته كريم ، وأبلغه بما حدث ، وبما قاله زعيم البلطجية اللذين أرسلوهم لمنعها من الاقتراب من الدار والأرض ، وأن تهديداتها لهم ليست بالسهولة التي قيلت بها الكلمات ، فالبلطجية يعرفون جيدا من هي عائلة زيدان ، ولو تدخلت هذه العائلة في الموضوع ، فلن تحل المشكلة ، بل قد يقتلوا جميعا . وهمس بينه بين نفسه ، أو أن يأخذ القضاء مجراه ولن تقل الإحكام عن الإعدام ، متذكرا الجرائم التي ارتكبوها ، وأهونها التزوير في أوراق رسمية ، وذلك بنسب عبد المنعم إلى السلحدار ، وقد يكون من السهل الآن معرفة حقيقتها ، فيكفي أخذ البصمة الوراثية له ولإسماعيل ، ليعرف إن كان عبد المنعم أخوه أم لا ، ولن يجازف بالتعريض بشرف والدة اسماعيل ، فيدعي بعدم نسب اسماعيل للباشا ، فقد يؤكد أخذ البصمة الوراثية من رفات جثة الباشا وثبوت بنوة اسماعيل له ، إلى تجريمه بالسب في شرفها . أما عن مصرع الباشا ، فليس أسهل من التعرف على السم في عظام الموتى .

لكن المركز والسلطة لهما فعل الخمر برؤوس أصحابها ، وكريم وكيل أول وزارة في محافظة القاهرة ، فأمهل عبد المنعم إلى الصباح ، ريثما يعرض الأمر على مسئولي الأمن بالمحافظة ، حيث قاموا باتصالاتهم مع مسئولي الأمن بالكفر ، وتم ترتيب كل شئ ، وذهب عبد المنعم وزوج أخته إلى الكفر ، وتم استدعاء السيدة شوق إلى المخفر ، وحتى تمتثل للأمر ، ذهب إليها أحد كبار الضباط ، وتحدث إليها بطريقة غير مهذبة ، وأفهمها بأنه ليس على استعداد أن يحضر القسم بالكامل إليها ، وأن عليها هي أن تذهب إلى القسم ، فامتثلت ، وذهب معها خلف ، حاول الضابط منعه ، لكنها أصرت ، وهناك بدأت تتكشف الحقائق ، قالت :

- " أين العقد الذي يثبت أنني بعته الدار والأرض .. ؟"

فقدموه لها ، فقرأت تاريخه بصوت مرتفع ، ثم نظرت إلى الضابط وقالت له :

• " ألا ترى أن هذا التاريخ يوافق يوم جمعة ، فهل تفتح المصالح الحكومية أيام الجمع .. ؟"

أولا تعجبوا ، كيف لها أن تعرف بأن تاريخ العقد يوم جمعة ، ثم سألت عن السجل الذي سجل فيه العقد ، فمادام تاريخ العقد يوم جمعة ، فلا بد وأن يكون العقد مزورا ، وعلى هذا فلا يوجد سوى السجل الذي يثبت ما إذا كان العقد مسجلا بالسجل أم لا ، وكان لا بد لهم من إحضار السجل وكاتبه ، وحضر الكاتب ومعه السجل ، فسألوه أن يطلع الهانم على صفحة السجل الذي وثق فيه العقد ، وأظهر الصفحة ، ونظرا لأن الكتبة سابقا كانوا يهتمون باليوم والتاريخ الهجري والميلادي ، فقد ثبت أن العقد سجل ووثق يوم جمعة ، وتعجبت شوق من أن توقيع الباشا بصمة ، فسألتهم بتهكم :

• " باشا سابق ، كان لواءا بالجيش المصري ، لا يعرف القراءة والكتابة ويبصم ، كيف هذا ؟"

ثم أضافت ببساطة من تقرر واقعة أكبر كثيرا في الأهمية من سابقتها ، وهي تعطي للضابط نسخة عن عقد الدار والأرض :

• وهل من المعقول أن يبصم الباشا على بيع أملاك ليست له ، ولا أعتقد أنه من الغفلة أن يتصرف في أرض زوجته ، أو ينتزعها منها ، وهو الذي سجل كل أملاكه باسمي أنا وابننا إسماعيل ، وحرم عبد المنعم من كل شئ "

وأصبح الأمر محيرا ، عقد يوثق يوم جمعة ببصمة رجل مثقف ويستطيع أن يوقع ، على أملاك لا تخصه ، فقال الضابط ببساطة :

• " أنا آسف يا كريم بك ، الحق مع الهانم ، أرجو أن تبتعدوا عنها ولا تعترضوها في أملاكها .."

لكن شوقا أصرت على أن يكون ذلك تعهدا مكتوبا ، وإقرارا منهم بأن العقد الذي يلوحون به غير سليم ، لكن عبد المنعم اعترض بادعاء أنه كان صغيرا عندما تم تحرير وتوثيق هذا العقد ، لكنه متأكد من أنه صحيح ، قال ذلك من باب حفظ ماء الوجه أمام زوج أخته على الأقل ، فقال الكاتب بشيء من البساطة :

• " على كل جميل أفندي اللي كان ماسك الدفتر ده زمان ، لسه عايش ، وبيته مش بعيد ، يعني ممكن أندهه ، وهو بصحة بسم الله ما شاء الله ، زى الحديد .."

ووجدت العبارات هوى في نفس شوق ، فأصرت على إحضاره ، ودخل الرجل وهو يرتجف ، تساقطت بعض شعيرات رأسه وتدلت بكثافة شعيرات حواجبه على عينيه ، وأمسك بعصاه ، لكنه لا يستند إليها ، لعلها من وسائل الاعتزاز بالنفس ، أو لكي يهش بها على من يفكر في الاقتراب منه ، لا يمكن أن تقدر له سنا يزيد على الخامسة والخمسين ، لولا بعض آلام في مفاصله ، لا تعترضه كثيرا في تحركاته ، تعجب من استدعائه لقسم الشرطة ، هو في حاله دائما ، أعزب وليس لديه أية التزامات ، فيما عدا والدته التي مازالت على قيد الحياة ، وببعض صحتها ، يعني لم تصل بعد لدرجة الخرف أو عدم تحمل شئون البيت فيما عدا خادمة تحضر كل أسبوع للنظافة والغسيل ، تماما كما كانت طوال عمرها ، يمتلك خمسة أفدنه يتولى الإشراف بنفسه على زراعتها والاهتمام بها ، وتعطيه عائدا مجزيا بالإضافة إلى بضعة جنيهات يحصل عليها شهريا كمعاش عن خدمة أربعين سنة في الحكومة .

سأله الضابط عن مصدر ثروته ، فتملكه الخوف ، إذ أن القاعدة الشائعة عند عامة الشعب ، أن دخول قسم البوليس ليس لعبا ، لا بد وأن هناك تهمة أو جريمة ، لم يكن الرجل يعلم لماذا تم استدعاؤه ، خشي أن يكون هناك مساءلة عن إهمال وظيفي أو إثراء غير مشروع ، وكانت الست شوق قد وضعت خمارا أسدلته على وجهها في وقار ، فهي أولا وقبل كل شئ تنتمي لأهل الصعيد ، والمرأة في الصعيد تقتل ، ولا يرى الرجال وجهها ، هكذا تعلمت وهكذا نشأت ، وهكذا استمرت ، قال الرجل :

- " كل ما أملك هو الدار الذي ورثتها أنا وأمي عن أبي ، وقمت بتعديلها مما كان يتبقى من مرتبي ، وخمسة أفدنه هدية من الست شوق الله يكرمها ، لما سجلت عقد بيع الدار والأرض بتاعتها يوم جمعة .."

وانهالت عليه الأسئلة :

- " هل مسموح تسجيل العقود أيام الجمع ؟ "

وقال الرجل وقد تملكه الخوف :

- " لقد كانوا أصحاب الكفر ، ألا ترى أن الكفر اسمه كفر السلحدار ، وهم السلحدار ، وما كان يستطيع أحد أن يرفض أمرا للباشا أو أي من أهل بيته ..؟"

وسأله الضابط بغلظة :

- " وهل تعود الباشا أن يضع بصمته بدلا من التوقيع ..؟"

وتردد الرجل وهو يدلي بإجابته التي ترتعش بها نبرات صوته :

- " الحقيقة أن هذا الأمر ما زال يحيرني منذ تاريخ تحرير وتوقيع هذا العقد حتى الآن ، فالباشا رحمه الله كان دائما ما يوقع على جميع العقود التي يقوم بتوثيقها ، لكنني لا أدري لماذا بصم على هذا العقد ، ربما لأنه باعتباره وكيلا عن زوجته .."

فتأكد لشوق أن بصمة الباشا أخذت بعد وفاته ، فسألته بشيء من التعاطف :

- " هل كان الباشا موجودا أثناء التوقيع على العقد ، وهل قمت أنت بأخذ البصمة ، باعتبار أن هذا من أهم واجباتك .. ؟"

فأجاب الرجل بالنفى ، وأفاد بأنهم دخلوا إليه وأخذوا بصمته ، وقالوا إنه طريح الفراش ، فانهالت أسئلتها عليه :

- " هل اطلعت على توكيل الست شوق له ؟"

فأجاب الرجل بأن الست شوق كانت موجودة ، ولكن يدها كانت في الجبس ، لذلك وكلت زوجها في التوقيع على العقد في المجلس ، وهذا جائز ، فسألته شوق بحدة :

- هل تأكدت من أنه على قيد الحياة عندما ادعوا أخذ بصمته .. ؟"

وصمت الرجل ، فنهره الضابط ليجيب ، فقال :

- " أنى لي أن أعرف ، ثم هل من الممكن أن أشك في صدق زوجة الباشا ، دول ناس أكابر ولا يكذبون .."

فسأله الضابط :

- " هل كل العقود الخاصة به في الدفتر بتوقيعه أو ببصمته .."

وأجاب وقد تمكن منه الخوف ، وأصبح في حكم المدان :

- " لا .. كل العقود تقريبا بالتوقيع .. ماعدا عقود يوم الجمعة المذكورة فقط .."

وأطلعهم على أكثر من عقد قام الباشا بعقدها ، كلها بتوقيعه ، واحتار الضابط ، لماذا هذا العقد بالبصمة ، لكن شوق أضافت :

• " لا هناك عقد تنازل عن القصر والأرض الخاصة به لعبد المنعم ، أيضا بالبصمة .."

ونظرت إلى جميل أفندي الذي حك رأسه قليلا ، ثم أيد أقوالها ، وأطلع الضابط عليه ، فسألته سؤالا مباشرا ، وطلبت من الضابط أن يسجله في المحضر :

• " هل تعرف الست شوق ..؟"

فأجاب بثقة متناهية :

• " طبعا .. فهي التي قامت بتوكيل الباشا أمامي .. "

فقالت شوق بشيء من التهكم :

• " هل تستطيع أن تصفها لحضرة الضابط ..؟"

ورد الرجل بعد أن عصر ذهنه محاولا التذكر :

• " الحقيقة أنا لم أكن أتصور أنها بهذه السن ، ولا بهذا الشكل ، هي صحيح شكل الأجانب ، ولكنها ليست بالجمال الذي كان أهل الكفر يصفون به الخوجاية التي تزوجها الباشا ، ثم أنها كانت كبيرة سنا ، يعني لم تكن في سن الشباب الذي كان أهل الكفر يتحاكون به .."

وسألته شوق سؤالا أخيرا :

• " هل لو رأيتها تعرفها .. ؟"

وقال الرجل ساخرا :

• " أرى من يا سيدتي ، لقد كنت آنذاك في العشرين من عمري ، وأمي كانت في الخامسة والثلاثين ، وهي كانت أكبر من أمي على الأقل بعشرين سنة ، ولا يمكن لها أن تكون على قيد الحياة حتى الآن إلا إذا كانت ممن أخذن إجازة من الموت .."

فكشفت شوق عن وجهها بما يسمح للرجل العجوز فقط أن يراها ، وقالت :

• " أكانت تشبهني ..؟"

وصدرت عن الرجل العجوز شهقة قائلا " بسم الله ما شاء الله " ، وأخـــذ يكررهــا مــرات ومـــرات ، والضابط وكذلك جميع الموجودين يتعجبون من الرجل الذي علق لسانه على ترديـد " بسم الله ما شاء الله " دون توقف ، فسأله الضابط بغلظه ، عله بذلك يوقف اللوثة التي انتابته :

- " هي وألا مش هي .. تقول وتقرر الحقيقة وبس .."

وانطلقت العبارات من فم الرجل العجوز دون أن يستطيع التحكم فيه :

- " هي مين يا سعادة البك .. هذه قمر خلقه الله في صورة بشر ، أما الثانية فكما قلت ســابقا ، عجوز بيضاء شمطاء تهدل جلد بشرتها حتى أصبح كخرقة بالية ، هذا بخلاف الربو الذي كانت تعاني منه ، ولا تنفك تسعل مع كل كلمة ، وحتى بدون كلام ، لقد كنت أعجب ، كيـــــف لأهل الكفر بما يقولونه عن جمالها وهي على هذه الصورة ، لكني الآن تيقنت من أن أهل الكفر لم يعطوها حقها فيما كانوا يتناقلونه عن جمالها ورقتها ، سبحان الله ، يا عالم ، الله في سماه لــــو كنت من الباشا ، وأنا الأعزب دائما ، لما ترددت لحظة في الزواج منها ، حـــتى أنـــني علـــى استعداد للزواج منها الآن وأنهي عهد العزوبية التي لازمتني حياتي كلها .."

وضحك الجميع ، حتى شوق لم تملك نفسها من الابتسام ، فقال الضابط :

- " هل توافقين على عرض عم جميل يا ست شوق ؟"

فابتسمت السيدة ولم تجب ، بينما عبد المنعم يلعن في سره زوج أخته والمتر لبيب وجلنار وكـــل من أوقعوه في هذه المصيبة ، وشوق تصر على ضرورة تسجيل كل الأقوال التي قالها عـــم جميـــل والوقائع التي حدثت وتعهد عبد المنعم وشهادة زوج أخته وجميع الموجودين في المحضـــر ، لتـــأخذ صورة منه موقعة ومختومة ، ولا بد عليهم جميعا من تحرير التعهد بعدم الاقتراب من ملكيتها وملكية الباشا وبعدم أحقية عبد المنعم أو غيره ممن يكون قد قام بالبيع له من التعرض لها ، بمعنى أن كـــل العقود التي معهم تصبح باطلة بطلانا مطلقا ، لكن كريم اعترض ، وعبد المنعم يحاول بكل ما يملك من قدرة على التعبير أن يسكته ، لكنه أصر على الاعتراض ، فقالت شوق :

- " إذا يكون التعهد بعدم التعرض حتى يتم الفصل في هذه الأمور قضائيا ، وحتى يحين ذلـــك ، على النيابة التحفظ على هذا السجل ، وقبل ذلك يتم تصوير جميع صفحاته على نفقتي ، ويتم توقيع هذه الصور وكذلك صفحات السجل من حضرة الضابط وتختم بخاتم القسم الذي يحمل

شعار الجمهورية ، وتسلم لي النسخ بموجب محضر تسليم يسجل في دفتر الأحوال ، وآخـــذ صورة منه موقعة من حضرة الضابط ومختومة بخاتم الجمهورية ."

فعل خيرا المحامي سعد الله بأن لقنها ما تقوله حرفيا ، وخلف الذي لم ينسى منه كلمة واحدة ولا حرف ، كان كثيرا ما يذكرها بها عندما يجد منها بعض التلكؤ ، مع التصنيف كل حالة بحســـب ظروفها ، فالعلم بالقانون مهم ، ومعرفة الإجراءات أهم ، ولم يجد الضابط بدا من أن ينفذ كـــل مـــا طلبته السيدة شوق ، بالرغم من محاولات كريم مع الضابط أن يتلاعب ، لكن الضابط همس في أذنيه :

- " إذا كنت تريدها حربا لا هوادة فيها فلتتلاعب ما شاء لك التلاعب ، أنت لا تعرف من هـم عائلة زيدان ، لكني أعرفهم جيدا ، فقد خدمت في الصعيد ، وأعرف كيف يحصل هؤلاء الناس على حقوقهم كاملة ، ولا يهمهم الأضرار ، ولا حتى الضحايا ، فإذا كنت ترغب في أن تكون أحد الضحايا ، فأنا لست على استعداد ، خاصة وأن التلاعب هنا ينالني أنا ولست أنـــت ، وأبسطها لو أبلغ عنه ، فصلي من الخدمة وربما مع حكم بالسجن ، القانون ليس لعبة يا ســيد كريم ، فإذا كان لا يهمك ذلك ، فإنه يهمني ، أما الصداقة التي تربطنا ، فلـــها حدودهـــا ، كمـــا أنني لست على استعداد أن أضيع عائلتي من أجل هذه الصداقة ، فأنت تعرف المثـــل الذي يقول " الصديق الذي يتسبب في الخسارة هو العدو المبين " .

وأصدر الضابط أوامره بتنفيذ كل ما قالته السيدة شوق ، فأمرت شوق خلف بالذهاب معـــهم أثناء التصوير ، وعاد خلف يحمل صور الدفتر والمحضرين ، وقام الضابط بالتوقيع على الصور بأنها طبق الأصل ، وختمها بخاتم النسر ، ولم يجرؤ عبد المنعم على الامتناع عن التوقيع ، فقد شعر بـــأن الموقف صعب ودقيق ، وأن عائلة زيدان هذه لها من الأهمية ما يجعل الجميع يحترمونها ويخافونها أيضا ، لكن الضابط سأل السيدة شوق بصوت منخفض ، حتى لا يسمعه أحد من الخصوم :

- " لماذا لم تقم السيدة شوق بذلك أيام أن حدثت تلك الوقائع ؟ "

وقالت السيدة بهدوء الواثق من عدالة الله قبل عدالة البشر :

- " أتعرف من هي جلنار ..؟ إنها من أقارب الملك ، والوصيفة الأولى للملكة ، فلك أن تتصـــور ماذا كان من الممكن أن يحدث لو أثيرت المشاكل على مستوى عائلة زيدان ، ألا تظن أنه كان

من الممكن أن تتسبب في حرب ضروس بين رجال الملك والعائلة ، هل ترضاهـــا ؟ ثم أنـــه لا يموت حق وراءه مطالب ، والحمد لله أن الله قد مد في عمري حتى استخلص حقي وحق ابـــني من مغتصبيه ."

وسألها الضابط :

• " وماذا عن عقد الفدادين الخمسة لعم جميل ، لقد بصمه الباشا أيضا ..؟"

فسألت شوق عم جميل عن أقاربه وأبنائه ، ولما علمت أنه لا يوجد له وارث ، قالت :

• " الأرض له ولأمه طوال حياتهما ، ثم ترد لي بعد وفاتهما ، وأدعو الله لهما بطول العمر .."

وشكرها عم جميل ، وأصر على إثبات ذلك في محضر يوقعه وتعطى لها صورته ، وقامت شـــوق بالاتصال بابنها إسماعيل في فرنسا من المحمول الذي كان معها ، وطلبت منه زيادة كمية درنـــات البطاطس للمساحة الباقية ، وحاول إسماعيل أن يعرف التفاصيل ، لكنها لم تزد ، وسمعها عبد المنعم وكريم ، ولكنهما يعلقا ، وتيقن لديهما أن ما تفعله شوق ليس اعتباطا ، وأنه قد تم بنـــاء علـــى ترتيب ودراسة واعية متفهمة ، وأنه لا عودة لهم للكفر مرة أخرى ، ومن العجيب أن عبد المنعـــم أخرج من جيبه جميع مفاتيح الفيلا والدار والمخازن والزرايب ، وأعطاها لشوق ، فعلـــها هكـــذا كمن يلقي جميع أسلحته استسلاما ، وظن أن الأمر انتهى عند هذا الحد ، فقالت له :

• " وفيلا القاهرة ، ومن الشهر القادم ممنوع عليكم الاقتراب من عمارة الدقي ، والأفضـــل إن المتر بتاعكم يذهب هو وزوجتك لتوقيع عقد بيع لابني إسماعيل والمدعوة مني .."

لكن كريم ثار ثورة عارمة ، ورفض رفضا باتا ما يحدث ، بل وطالبها بمفاتيح عقارات الكفـــر ، وعبد المنعم ساهم كمن غرق ولا يعرف ماذا يفعل ، لكنه رفض أن يأخذ المفاتيح من السيدة شوق التي مدت إليه يدها بها ، فحاول كريم أن يأخذها لكن عبد المنعم أمسك يده ، ونظر إليه نظـــرة المغلوب على أمره ، فامتثل وخرجا ، بينما الضابط يتعجب من النتيجة ، من جاء يتهم ، خـــرج مدانا ، ومن ذهبوا إليها يعنفوها ، أثبتت نبل الأخلاق ، ومد الله في عمر عم جميل ، حتى يظـــهر الله الحق ويعود إلى أهله .

لم تغمض له عين ، فغدا صباحا .. عليه أن يذهب إلي البنك لصرف الشيك ، ثم يعرج على فيلا عمته ، لتسليم زوج عمته الدفعة الأولى من الدين الذي كبل به أعناقهم بحبه لهم وحرصه عليهم واهتمامه بهم ، وقابل والده كل ذلك بالإساءة إليه ، والتعالي عليه ، ونعته بصفات هي أقرب ما تكون إلى السب وعدم الاحترام .

وسوف يراها ، فهي تذهب إلى الجامعة في موعد قد يتناسب مع ذهابه إليهم ، لذلك يجب أن يذهب إليهم قبل أن تخرج إلى الجامعة ، وهذا يعني خروجه مبكرا ، يجب أن تكون موجودة عند وصوله ، وساءل قلبه .. هل هو حقا يحبها ..؟ وإذا به يلوم نفسه على هذا السؤال الغبي ، كيف لا ونفسه قد عافت كل متعة يجد أنها تبعدها عنه ، أو تغضبها منه ، وتلذذه بالعذاب الذي يعانيه وهو يتعمد المرور أمام الفيلا بمناسبة أو بدون مناسبة ، بسيارة أو بدون سيارة ، وعندما يشعر بأن كمالي البواب على وشك أن يلحظه ، يسرع مبتعدا وقد أخفى وجهه ، وعندما كان يلمح طيفها يمر من خلف ستائر نافذة أو بلكونه ، يشعر كأنما جسده كله أصابه الشلل ، فلا حراك فيه سوى قلب يخفق بسرعة الضوء ، وأنفاس تتلاحق كأنها أمواج عاصفة هوجاء ، ويسمع صوت كمالي هادم اللذات فيطلق ساقيه تسابق الريح مبتعدا ، وأشياء كثيره يفعلها بدون تحكم منه ، تفرضها عليه أمور لا يدريها ، أخذ يحصيها ، وكأنما هو يحاسب نفسه ، كيف لرجل في مثل سنه ومركزه أن يفعلها ، تصرفات صبيانية لا تصدر إلا عن شاب طائش نزق ، ولا يجد تفسيرا لكل ذلك إلا أنه يحبها ، ويحبها جدا ، لدرجة أنه كان على وشك أن يغضب والده لأول مرة في حياته من أجل احتفاظه بالعلاقة الطيبة مع عائلتها ، وهاهو ذاهب إليهم في هذه المرة وهو يحمل دليل حسن النية ، والاعتذار العملي عما صدر من والده في حقهم ، ويزف إليهم خبر استقامة والده والعمل الذي التحق به وحرصه الشديد عليه ، وتمسكه به حتى لا يضيعه ، ولابد وأن خبرا كهذا سيكون له وقع جميل على ذلك الرجل الذي كان كل همه أن يبعد عنهم أي سوء ، ولا بد وأن عمته سيسعدها أن أخاها قد استقامت أحواله ، فهي تقسو على عائلة أخيها حتى يستقيم أخوها ، وسوف يراها ، سوف يبثها كل حبه وأشواقه ، بكل وسيلة يستطيعها ، بالهمس ، باللمس ، بتقابل العيون ، بإيماءة .. بانحناءة .. بأي شئ ، لابد لها أن تعرف كم هي معاناته من هجرها له ، وكم كانت لوعته لبعدها عنه ، كم هي غالية عنده ، عزيزة عليه ، كم هي كل شئ بالنسبة له .

وغافله النوم ، فرأى ما كان يتمناه حقيقة في أحلامه ، بل لقد زاد الأمر ووصـــل إلى المـــأذون والزفة ، وتبادل معها ما هو أكثر من الهمس واللمس والكلمات ، عرف كيف يكون الحب حبا ، ذوبان الذات في الذات ، ونسيان كل شئ إلا تلك اللحظات ، حتى موعد البنك نساه ، تنبه على صوت سيارة المستشفى التي حضرت لوالده ، وتذكر موعد خروجـــها إلى الجامعـــة ، فنـــهض منتفضـــا ، وأنهى كل بروتوكولات الصباح من حمام وصلاة وملابس في لحظات ، ولم ينـــس أن يختار أشيك ما عنده من ملابس ، ويطيل النظر أمام المرآة ، انتبه منها على الشقية نشـــوى الـــتي كانت تسجل له أعماله ، بادلها شيئا من العتاب ، ولمحت ما هو فيه من عذاب ، فدعـــت لـــه أن يوفقه الله ، وهكذا فعلت صفيه .

سمع تأنيبا من والدته ، فقد سبقه اليوم والده ، استيقظ مع أذان الفجر ، وصـــلاه حـــاضرا ، وجلس يسبح ويستغفر الله عله يغفر له ما أسلف من أعمال ليس فيها أي صلاح ، إلا أنه أنجبهم ، ودعت لهم جميعا بأن تكون الهداية سبيلهم ، ثم نظرت إليه بتمعن ، وكأنها تـــراه للمـــرة الأولى ، فأسعدها ما هو فيه من سعادة ، وأخذت تدعو له بكل الخير هـــو وأختيـــه ، ثم ســـلمته كشـــفا باحتياجات البيت ، ودست في يده مبلغا من المال ، ما كانت لتخرجه بهذه السهولة منذ يوم واحد فقط ، وطالبته بأن يكون هنا في موعد يتناسب مع إعداد الغداء ، فإذا وجد نفســـه مشـــغولا ، فليرسله مع أي سيارة من سيارات العمل ، فطمأنها بأنه سيحضرها قبل ذهابه إلى العمل ، ذلك أن موعده بعد ذلك بكثير .

شعر كأنما هو يطير ، ليست سيارة هذه التي يقودها ، ولكنها جناح من أجنحة السعادة ، كـــان يبتسم للجميع ، حرص أن لا يكون هناك ما يغضبه أو يقلقه أو يفسد عليه لحظـــات ســـعادته ، اقترب من فيلا عمته ، وإذا بقلبه ينبهه للموقف الجميل الذي سيواجهه بعد قليل ، دقاتـــه زادت سرعتها بشكل غير طبيعي ، حتى لكأنه لم يكن لديه سوى عينين تسمرتا على الفيلا ، تبحث عنـــها في كل ركن يستطيع بصره الوصول إليه ، ووجد نفسه يدخل بالسيارة من باب الفيلا تماما كمـــا كان يفعل عندما كانوا يسكنونها ، ونهض كمالي سريعا ليفتح البوابة للبييه الصغير ، تماما كمـــا كان يفعل في السابق ، ولكن الترحيب بالبيه الصغير زاد هذه المرة ، فهو اليوم ضيـــف ، أمـــا في السابق ، فقد كان صاحب بيت ، وأطال حسام ملاطفته له ، فقد تعمد أن يقـــف أطـــول مـــدة ممكنـــة معه ، وعيناه تحومان حول الفيلا بتركيز شديد على النوافذ المفتوحة عله يلمحها ، لم يكن

يطلب أكثر من مجرد مشاهدة ولو لبرهة ، فقد كان لديه إحساس ، بأنهم ربما يمنعونه من رؤيتها ، أو أن تكون هي غير راغبة في أن تراه ، وهنا فقط ، بدأت متاعب اللوعة تبدو له واضحة ، وأعاد حساباته ، هل ترغب في أن تراه ، وإذا كانت .. لماذا لم تحاول حتى مجرد الاتصال به ، إن نشوى أملتها رقم تليفون الشقة التي نقلوا إليها ، لكنها لم تفكر في محادثته ، تراها لم تكتب الرقم ولم تستخدمه ، أم أنها لم تهتم به ، لابد وأنه واهم ، هي لا تبادله مشاعر الحب التي تصورها له نفسه ، ربما كان بالنسبة لها مجرد شخص تقدم لخطبتها ، وأسعدها أن تكون مرتبطة تماما مثلما هي أختها ، أما مشاعر الحب التي يتصورها ، فلا وجود لها إلا في مخيلته ، فلا يمكن أن يكون حبا ذلك الذي تعصف به أول نفخة هواء ضعيفة كتلك التي حدثت ، فماذا يحدث لو ساءت الأمور ، وجاءت لهم الدنيا بما هو أشد من العواصف ، والده لم يوافق ، آلاف وربما ملايين الآباء لا يوافقون ، ولكن الحب يصمد ، هل هي لا تحبه ، وإذا كانت ، هل يجب عليه أن ينساها ؟ ربما تكون عاتبة عليه أنه يريدها هي أن تتصل به ، ولماذا لم يتصل هو بها ، وثارت في رأسه أسئلة من يتصل بمن ؟ هل يقوم هو بالاتصال بعمته ، ويتمنى أن تجيب منال على الهاتف فيبثها بعضا من لوعته ؟ أو تقوم منال بالاتصال بنشوى ، ويتمنى أن يقوم هو بالرد قبل غيره من بين أهله ، وتبين له صعوبة ذلك عليها ، طالما أن الوالد يرفض زواجه منها ، هذه الأحلام الوردية أصبحت قاب قوسين أو أدنى من أن تتحقق أو تتبخر ، وهو الآن على وشك أن يتحقق من حبها له فيسعد قلبه أو غير ذلك فيشقى .

سمعت السيارة وهي تدخل الفيلا ، ما كانت لتخطئ صوتها ، إنها سيارته ، هي تعرفها ، حفظت كل زفرة من زفراتها ، حتى ما تصدره من أصوات لم تفلح معها محاولته إصلاحها ، ولم تعرف ماذا تفعل ، أسرعت إلى النافذة ، ورأته يحادث كمالي ، أسعدها أنه لم يرها ، وهل هي تريده أن لا يراها ؟ لا تعرف ، لقد انتابتها بعض المشاعر كأنما تريد أن تجري إليه لتحتضنه ، فقد عانت من الفراق طويلا ، وتريد أن تطفئ نار الشوق ، لا تدري ماذا تفعل ، دخلت وخرجت في غرف كثيرة عشرات المرات ، الوالد والوالدة في البهو الرئيسي للفيلا ، ومهجة سيارتها حضرت مبكرة ذلك اليوم ، أسرعت إلى الباب الخارجي وكأنما حان موعد الجامعة ولا بد وأن تخرج ، رغم أن سعاد لم تخرج بعد ، ولا حتى منى ، ورأته في لمحة سريعة ، أخفت نفسها بعدها خلف الباب فقد تلاحقت ضربات قلبها ، وشعرت وكأنما قلبها يغوص منها إلى أعماقها ، شعور مرير لكنه جميل ، فيه سعادة ونشوة ، وخشيت أن يفتضح أمرها فانسحبت سريعا إلى الداخل ، ولاحظها والدها ولكنه لم يعلق ، ووصل إلى الباب وكمالي يسبقه بالترحاب وكأنما هو صاحب البيت ،

ضغط الجرس ففتحت مبروكة ، سألها عن البيه الكبير ، واصطحب حسام إلى البهو ومازال الترحيب به مستمرا ، ولم ينتهي إلا عندما حضر الحاج محمد ، قدمه كمالي للحاج محمد بالكثير من المديح ظانا منه بأنه بذلك يشفع له عنده ، فصافحه الحاج بحرارة لم يكن حسام يتوقعها ، ودعاه للجلوس إلى جواره مرحبا به ، لم يكن يتوقع منه هذه المعاملة الكريمة ، ظن أن اللقاء الأخير مع عائلته ، يعتبر نهاية لكل ود أو علاقة طيبة بينهم ، لم يعرف أن الحاج لديه قدر من التسامح ، بحيث يعفو عند المقدرة ، ويكظم الغيظ مهما كان حجمه ، وتجاذب معه أطراف العتاب ، وتطرق في حديثه معه عن الأحوال والعائلة والوالد والوالدة ، كان كلام الحاج معه كأنما لم يحدث شيء يدعو إلى القطيعة ، وتعجب حسام من الرجل ، هل هو متسامح إلى هذا القدر ، أم أنه يراوغه ، أم أنها عادات أهل الصعيد الترحيب بالضيف حتى ولو كان بينهما دم ، وطمأنه حسام على الأسرة ، وحدثه عن الوظيفة التي حصل عليها والده ، والأحوال التي بدأت تتغير إلى أفضل من الأحسن لدرجة أنه قادم اليوم لرد جزء لا يمكن قياسه بما قدمه الحاج إليهم ، مع رجائه الحار بقبوله ، ومد يدا يغلفها الخجل ، ويغلب عليها التردد من أن المبلغ مهما بلغت قيمته ، فهو ليس في مقدار ما قدمه الحاج لعائلته من تضحيات ، والتردد من أن لا يقبله الحاج إما لصغر قيمته ، وإما تأبيا نابعا من شهامته المعروفة عنه . وصدق حدسه ، ربت الرجل الطيب على كتفه بحنان لم يشعر به من والده ، وقال له :

- " لم يكن تعنيفي لوالدك نابعا عن رغبة مني في استرداد ما سبق لي تقديمه إليكم ، بقدر ما هو دافع لوالدك كي ينصلح حاله ، والحمد لله أن الدرس قد نجح في هدفه ، وكما قلت ، فإن الوالد تغير كثيرا ، وبدلا من معاقرة الخمر وقزقزة اللب ، عمل وصلاة وقراءة قرآن وأدعية ، أما عن كتاب الأدعية الذي طلبه ، فسوف أعطيك نسخة عنه .."

ونادى الرجل على زوجته التي حضرت ، وقد ارتسمت على وجهها إمارات الغضب ، نظرت إلى حسام نظرات جعلته يبتلع لسانه فما عاد قادرا على الكلام ، وسألت زوجها عن طلباته ، وشعر الرجل بما يفتعل في نفسها من غضب ، فأمرها أن تسلم على ابن أخيها ، لكنها فاجأت الشاب بسؤال لم يكن يتوقعه :

- " والبيه على رجليه نقش الحنه .. لِم لَم يحضر بنفسه ؟ أم أن الكبر مازال راكبا رأسه ، مش هو ده الصعيدي الجلنف اللي مش عاجبه .."

وسألته عن المبلغ الذي رفض الحاج أخذه ، وتسلمته بشيء من المرارة ، وبدأت في عده عشـــرة عشرة ، كأنما تتعمد إذلال الفتى ، كصورة لأبيه ، حتى يبلغ ما حدث لعائلته ويفهم كل امـــرئ مركزه ، لكن الحاج نظر إليها في عتاب ، وطلب منها معاملة حسام كابن أخيها وليس ابن عدوها ، بل طلب منها أن تعامله كابنها ، ونزولا على أوامر الرجل الذي أحبته ، فـــأصبحت تغضـــب لغضبه ، بل لما قد يكون سببا في غضبه حتى ولو لم يغضب ، قالت لحسام :

- " معلهش يا حسام يا ابني ، والدك لم يترك لي إلا هذا الخيار ، فما تحملته منـــه علـــى مـــدى السنوات الطويلة الماضية كان كثيرا ، كثيرٌ جدا لدرجة أنني لا أستطيع أن أغفره له بســـهولة ، ولولا أوامر عمك الحاج ، لكان لي تصرف آخر معك ، ليـــس بصفتـــك حســـام ، ولكـــن بصفتـــك ابن الرجل الذي احتقر زوجي وصغر من شأنه ، لذلك اعذرني في تصرفاتي معـــك ، واشرح لوالدك ما حدث بالتفصيل ، وبلغه إن الشهر القادم عليه أن يحضر بنفسه لسداد مـــا عليه من مبالغ تفوق كثيرا ما سجلت في الأوراق ، لازم يفهم إن جنيه زمان كان يشتري أشياء كثيرة ، أولادي حرموا منها علشان خاطر عيون أبوك وعائلته ، وده شئ لا يمكنني نســـيانه ، مهما فعل أبوك ، ولو كان منصفا ، فلابد له من سداد المبالغ المستحقة عليه بأسعار زمانهـــا ، يعني الجنيه كان يجيب ثلاثة أو أربعة جرام ذهب ، وكان يجيـــب خمســـة دولارات ، وجنيـــه وكـــام بنس إنجليزي ، وأكثر من عشرة أرطال لحم .."

وقاطعها الحاج مغاضبا ، ولأول مرة يعلو صوته على زوجته :

- " عايزانا ناخد ربا يا جميلة ..؟"

وردت عليه وقد غلبتها عبراتها :

- " أعذرني يا حاج .. أنا بس عايزه أفهمه إن مهما فعل أبوه فلن يستطيع أن يكفيك حقك .."

فنظر إليها نظرة حانية ، وقال :

- " حسام وحشه الفطور بتاعنا .."

ونظر إلى حسام الذي كانت حمرة الخجل تكسو وجهه ، ومرارة اليأس تتسرب إلى أوصالـــه ، واصفرار المباغتة بالشعور بجسامة الجريمة التي فعلها والده تضفي عليه شعورا بالدونية ، للدرجـــة التي جعلت أخته لا تغفرها له ، وتأكد له أن قربه من منال ، أصبح بعيد المنال ، وأدمع قلبه حرقة

لهذا الظلم ، جرائم الكبار يتحملها هو وحبيبة قلبه ، ثم استدرك ، إن كانت عمته بهذه القسوة ، فكيف ستكون ابنتها ، لعلها لا تفكر أنه يحترق من أجل القرب منها ، لعلها لا تهتم ، لعلها تأثرت بأقوال وأفعال والدها ، فما عاد يهمها حتى أن تتزوج ، وانتبه على الحاج وهو يقول له :

• " مش كده برضه وألا إيه ..؟"

وخرجت كلمات متحشرجة من فم حسام ، لا يمكن فهمها بسهولة ، فهو لم يفهم ماذا يقصد الحاج بمقولته هذه ، لكن حشرجته كانت تعني الاعتذار ، فبعد الوجبة الدسمة من تجريح عمته بوالده وعائلته ، وشعوره بالمذلة والدونية ، ما عادت له شهية لا لطعام أو خلافه ، وتمنى لو اختلى بنفسه ليبكي .. فلربما أراحه البكاء ، وشعر الحاج بما يجول بخاطره ، فاحتضنه مطيبا خاطره ، وإذا به ينفجر في بكاء حار ، أخذ الحاج يهون عليه ، ولكن هيهات لنفس كسيرة أن ترفع عينيها في ولي نعمة متسامح كهذا الرجل ، ولا لقلب جريح أن تستقر أموره مع عمة بهذه القسوة ، يا لأمله الذي ضاع ، وقد ظن أنه أمسك به وأصبح طوع بنانه ، ويا لحبه الذي فقده ، وقد ظن أن الدنيا قد ابتسمت له وأصبح المستحيل سهلا ، كان يظن المال سببا للسعادة ، ليته لم يحضر ، بل ليت والده لم ينجبه .

وسمعت منال كل ما قيل ،كلامه كان موسيقى جميلة ، غنت عليها أنغام سعادها ، حملتها أحلامها بكل كلمة قالها إلى أعلى مكان في العالم ، شاهدت منه كل الدنيا تغني وتزغرد وتغرد ، حتى دون أن تفهم معناها ، كل ما كانت تريده هو سماع صوته ، أما ماذا يقول ، فهذا شئ غير مهم ، وسمعت كلمات والدها ، ياله من أب رائع ، أب لا يهتم إلا بمشاعر أولاده ، ولتذهب كل الأمور إلى الجحيم ، حتى بالرغم من أنها لا تعرف أنه يفعل ذلك بدافع من إنسانيته ، ليس من أجل أخو نورهان ، ولا من أجل حسام ، ولا حتى من أجلها ، هذه هي طبيعته ، ومادامت هذه هي طبيعته ، فما فعل خيرا في حياته وندم عليه ، إنه يعتبر أن النعيم الذي يحياه ، والد نورهان هو السبب فيه ، وإلا لكان مثل أي شاب في سنه ، درس وتخرج وعمل وتزوج ، فهل كلهم لديهم ما لديه ، عمارة تناطح السحاب ، وعزبة يصعب رؤية أطرافها ، وثلاث بنات في جمال البدر وربما أجمل ، وفي زكاء النهر وربما أزكى ، وفي طهارة الماء ، وربما أطهر ، كل هذه النعم ، بالإضافة إلى زوجة لن يجد مثلها مهما جال وصال في العالم أجمع ، من فضل الله وهذا الباشا رحمه الله ، لذلك فإن كل ما ينفقه على نورهان وعائلتها ، يعتبره من خير الله ومن خير هذا الرجل ، الأناضولي باشا ، أعطاه المال ،

وأعطاه الثقة في نفسه ، وأعطاه الفرصة لجمع المال بطريق حلال ، حيث شجعه على التعاقد على أعمال بالآلاف ، وزوجه ابنته ، فلولاه لما تزوج نورهان ، هو الذي سمح له بالاقتراب منها ، وهو الذي عنف مدحت عندما حاول هو وأصدقاؤه النيل منه ، وهو الذي شجعه على طلب الزواج منها ، ثم ساعده بفكره الثاقب في كل ما تعرض له من مشاكل أو صعوبات ، فلماذا لا يغدق على عائلة ابنه ، لأنه يحتقره ويسبه ، هذا يثقل من ميزان حسناته ، وقارن بين إنفاقه على عائلة مدحت ، وما ينفقه على عائلة الصقر دون حساب ، حتى لكأن ما يصل كل فرد منها يكاد يكون أكثر مما يصل لأي من بناته أو على الأقل مساويا له ، العجل يذبح في الأرض ويوزع على الجميع بالقسطاس ، وليس من بينهم من قام بأي مما قام به الأناضولي باشا ، ولا كان سببا فيما كان الأناضولي باشا سببا فيه ، ولهذا فإن ما ينفقه على عائلة أخيها بغض النظر عن طبيعته الخيرة ، فهو جزء ضئيل من دين الأناضولي باشا الذي علقه في رقبته ، وقد أوصاه الرجل بعائلة ابنه ، فقد كان يشعر رحمه الله أن مدحت لن يكون الأب المناسب لهم ، وخشي أن يتعرضوا للمذلة من بعده ، وحاشى لله أن تتعرض عائلة هذا الباشا للمذلة من بعده ، والحاج محمد على قيد الحياة ، وقد فعل ما فعل أخيرا وقلبه لا يطاوعه ، لولا رغبة نورهان في أن يعتذر هذا الجاحد لولي نعمته ، لكنه كان دائما على إطلاع ومعرفة بكل ما يدور معهم ، حتى لكأنه هم بأن يرسل لهم عطاياه مرة أخرى ، ولكنه في هذه المرة ، وبعد أن رفض مدحت الاعتذار عن تكبر واستهانة به ، مما أغضبه ، أراد فقط أن يعلمه الأدب الذي فشل الأناضولي باشا أن يعلمه له ، وقد أفاد ، فما أن دحرج له وظيفة في مستشفاه ، حتى أسرع يلتقفها ، كغريق يتعلق بقشة ، ولكنها لم تكن قشة ، لقد كانت بارجة حربية كبيرة ، انتشلتهم من كل أنواع الفقر والعوز ، وما دام قد أرسل ابنه ليدفع ما عليه ، فإن هذه بادرة جيدة ، أن الرجل استقام ، وعرف حدوده ، وعرف ما عليه ، ويقوم بسداده .

وسمعت بكاءه ، كم كان غاليا عليها أن تسمعه ، رجل يبكي ، حبيبها يبكي ، شيء لا يمكن احتماله ، وشعرت بكل كيانها يهتز مع بكائه ، وبدون أن تدري ، تساقطت دموعها ، حاولت منعها لكنها لم تستطع ، وقدمت منى ، وحاولت التخفيف عليها ، لكن هيهات لبكائها أن يتوقف ، فقد كان بكاؤها من أجله ، وله ، وعليه ، تفجر حبها الموءود بكاءا ، فما كانت تستطيع كبح جماحه ، وهالها ما تراه من إذلال أصاب كبرياءه فبكى ، وبكت هي معه ، وجاشت بها عواطفها الإنسانية أن رجلا يبكي ، وهذا شئ يدعو للرثاء والبكاء ، فبكت عليه ، وأسرعت منى تهمس في

أذن والدها ، وأسرعت السيدة إلى ابنتها تحاول تهدئة خاطرها ، ومع الانفعال ، اشتدت حدة البكاء ، فأصبح نحيبا ، وسمع هو نحيبها ، فأصدر تشنجات ما كانت لتصدر من رجل ، واحتار الرجل الطيب ، ماذا يفعل ؟ يواسي حسام ، أم يستطلع أمر منال !! لكنه أدرك أن المصاب واحد ، والحل في جمع شملهما ، صرخ بصوته الجهوري :

• " أين الإفطار يا أولاد ال.."

وحاول أن يهون المصاب على حسام محاولا التسرية عنه ، وأن عمته لا تقصده .. ثم صرخ ثانية بعصبية واضحة ، مناديا منى ومنال لسرعة تجهيز الإفطار ، وسمع حسام اسم محبوبته ، فجاشت نفسه ، وشعر بالخجل أن يبكي في حضرتها ، فكفكف دموعه بسرعة ، ونهض مودعا زوج عمته دون أن يرفع عينيه ، ودون أن ينتظر ردا على وداعه ، بل إنه لم يهتم بتشبث زوج عمته به أن ينتظر للإفطار معهم ، أو حتى تهدأ نفسه . ولا يدري كيف وصل إلى عربته ؟ وكيف أوصلته إلى بيته ؟ وكيف دخل غرفته ؟ ثم سقط على سريره بملابسه الرسمية صريع حمى لازمته فترة طويلة ، وصمت مطلق لا يعرفون له سببا ، احتار أطباء مستشفى الشرطة في علاجه ، أخذوا له كل أنواع التحاليل والفحوصات ، تقريبا لا يوجد شئ عضوي يدعو لهذه الحمى ، ولا هذا الصمت ، لابد وأن يعرض على الطب النفسي ، وماذا سيفعل الطب النفسي مع أبكم ، لا يتكلم ، لا يقول ما به ، لا يفضفض بما يغلي به صدره ، المسكين يعاني من اختلاط الأمور ، ولا شئ سوى دموع تتساقط من عيون تحجرت ، وكأنما ليس بها حياة ، واستعرض أمامه الأحداث ، فوجد لسانه يتلجلج ، وكأنما يمتنع عن النطق بما حدث ، وهل جن ليقص ما حدث له عند عمته ؟ فيزيد الهوة التي تسبب فيها والده ، أم يبكي حبه الذي ضاع إلى الأبد ، أم يشكو جور الزمان وتكبر الإنسان ، وضعف الإرادة ، وسطوة القدر ، وأصبحت الحياة عنده عدما ، فما عادت له رغبة فيها ، وأخذت نفسه تقوده إلى نهايته ، بلا إرادة منه ، فامتنع عن الطعام والشراب ، وذبلت قواه ، وأضحى يقترب من الموت بسرعة .

ووالده الذي هداه الله فابتلاه ، لا يعرف ماذا يفعل ، أصبح كالمجنون ، اختلطت الأمور لديه ، فما استطاع أن يضبط مواعيد حضوره إلى المستشفى وانصرافه منها ، يسير تائها ، ويجلس سرحانا ، في كثير من الأحيان لابد وأن تكرر الكلمة مرات ومرات حتى يسمعها ، وأصبح لا يستطيع أن يدير العمل بالكفاءة التي كانت ، فناداه الدكتور طه ، وتحدث معه عن هذا الإهمال ، والدكتور

الحاج ، وتعليماته لا يمكن لطه أن يخالفها مهما كانت الظروف ، لكن ما يحدث الآن ، والمستشفى على أهبة الافتتاح ، أمر لا يمكن تناسيه ، وأفضى مدحت لطه بكل شئ عن ابنه ، فعنفه أيما تعنيف ، وطالبه بنقله فورا إلى المستشفى ، فإن لم تكن المستشفى لعلاج موظفيه وعائلاتهم ، فلا خير فيـها من مستشفى ، ونقل حسام إلى المستشفى ، وأصبح بجانب والده ، فارتاح قلبه إلى حد ما ، فـهو أمام عينيه ، وبين أطباء هم الأكفأ ، ويعرفون ما يجب عليهم عمله ، بـدءوا تغذيتـه بالمحـاليل ، وحاولوا معه بكل الفحوصات والتحاليل ، لكن الأمر كان أكبر من أن يستطيعوا علاجه ، فأعلنوا يأسهم ، وبالرغم من ذلك ، فقد استمروا في تحاليلهم ، لعلها تخبرهم بما قد يكون حلا للغز مرضه ، لكن أمره حير الدكتور طه ، فأرسل في طلب أطباء من خارج المستشفى ، وراسل بشأنه زملاءه في أمريكا ، لعلهم يستطيعون الوصول إلى معرفة لعلته ، والتقارير .. كل التقـارير تقـول أنـه إنسـان هالك ، إن مقاومته للحياة وصلت لدرجة أن جسده يرفض محاليل الغذاء ، فانسابت مياه تخرج عرقا باردا ، أو من المخارج الطبيعية دون أدنى تحكم منه عليها ، وساءت حالته بالقدر الذي أعتبر مرضه لغزا ، وما كان أي من الأطباء ليتحرج في سؤال زملائه عله يجد عند أحدهم حـلا ، حتى الطب الشعبي والعلاج بالأعشاب ، لم يتحرجوا أن يذهبوا إلى العطارين ، ولو كانوا أقل ثقافة لذهبوا إلى المشعوذين ، إنه ابن زميل لهم ، والزمالة لها واجبها واحترامها فقد تحولت الزمالـة إلى حب أخوي ، يفرح كل منهم لما يفرح أخاه ويحزن لحزنه ، وأصبح الكل واحد ، فحسام ليس ابنا لمدحت فقط ، ولكنه ابنهم جميعا ، والاهتمام به وبحالته أصبح همهم جميعا ، والحرص على شفائه ، أصبح هدفهم جميعا ، انهالوا على المجلات الطبية يقرؤونها ، كل في مجاله ، وكل في تخصصه ، علهم يحصلون على معلومة ولو صغيرة الأهمية توصلهم لحل لهذا اللغز ، وكلما رأوا مدحتا وهو يتـألم لمرض ابنه ، كلما ازدادوا قلقا عليه ، فالأمر لم يصبح مرض حسام وفقط ، ولكنه اقترن بذلـك الحزن الذي يعيشه زميل لهم .

وجاءت إحدى الزميلات بفكرة تعجبوا لها في البداية ، وبدراستها وجدوها مقبولـة إلى حـد كبـير ، ولو تحدث حسام وأفضى لأطبائه بشيء مما في قلبه ، لهون عليهم الأمر ، فقالت لهم :

• " إنه الحب ، لا شئ غير الحب يهزم شابا في ريعان الشباب ، ويجعله يرفض الحياة .."

وتعجبوا ، هل هذا معقول ، وبدأوا في استجواب مدحت ، الذي أفضى لهم بكل شئ عن تعنتـه وتكبره ونكرانه للجميل ، حتى لكأن حبهم له بدأت تهتز مشاعره ، فما هكذا يكـون الأخ ، ولا

هكذا يكون النسيب ، ولا الأب ، وكل أدلى بدلوه في علاقته بزوج أخته ، حتى جعلوه ينهض باكيا :

• " ليتني أستطيع أن أقبل قدميه ، ليرضى عني ، ويريح ابني مما هو فيه من عذاب .."

لكنهم أبدا يريدونه أن يعترف له بندمه وبأفضاله عليه وعلى عائلته ، ليس من أجل شفاء ابنه فقط ، ولكن لأن ما فعله معه لا يفعله الأب مع ابنه ولا الأخ مع أخيه ، ومن ثم فإن رجلا بهذه الأخلاق وهذه الشهامة لن يبخل على ابنه فيسعده ، وحضرهم طه والمؤتمر منعقدا لمناقشة مشكلة مدحت مع زوج أخته ، وسمع خلاصة الموضوع ، فأمن على كلامهم وهو لا يعرف أن من يتحدثون عنه هو عمه .

ما أن قص عبد المنعم أحداث الكفر لزوجته ، حتى اختفت من فمها الابتسامة التي كانت دائما ترسمها عمال على بطال ، وبدأت تفكر في مصير ابنها علاء :

- " هذا معناه أننا أصبحنا على الحديدة ، يعني علاء ابننا ضاع منا خلاص ، كيف سننفق على علاجه ، وكيف لنا أن نزوجه ، ومن أين لنا أن نعيش ..؟"

آلاف الأسئلة أصدرتها تباعا وأخذت تكررها ، وكلما تدارست الموقف ، تجد نفسها وقد عادت إلى نفس النتيجة ، وهي أنهم أصبحوا أفقر خلق الله ، فلن تتركهم شوق هذه حتى تخرب بيتهم ، ليت عبد المنعم أتم اتفاقه مع إسماعيل ، ولم يتصرف هذه التصرفات الصبيانية ، بلطجية ليمنعوها من دخول أرضها ودارها ، وهو يعلم تماما أنها هي فقط صاحبة الحق ، وأن البيع الذي أبرمته جلنار باعتبارها شوق ، باطل ، لقد كانت من الحيطة حتى أنها لم توقع على شئ ، لا جلنار ولا عبد المنعم ، كل العقود كانت ببصمة الباشا ، الباشا هو البائع عن نفسه والمشتري بالولاية عن ابنه عبد المنعم بحسب ما هو ثابت في شهادة الميلاد ، والباشا هو البائع موكلا عن زوجته ووليا عن عبد المنعم ، و كان عبد المنعم يظن أن الأرض والدار ملك الباشا ، ولم يكن يعلم أنها ملك شوق ، ولما علم ، بدأ يتلاعب ، لا .. إنه كريم زوج أخته ، أفهمه أنه في مركز قوي ، ولن تستطيع أن تفعل شيئا ، دع مركز كريم القوي ينفق عليهم ، لقد أوقفه الضابط عند حدوده عندما وجد أن شوق صادقة فيما تدعي ، ماذا عساها فاعلة ، محكمة وقضاء ، وربما صحف وشوشرة ، ما موقف أخيه السفير وأخته ، لابد وأن يعلمهم بما حدث ، ويتشاور معهم ، فالأمر يخص الجميع .

اجتمع أفراد العائلة جميعا ، وصبوا جام غضبهم على كريم ، لقد تصرف بعقلية مسئول ذو نفوذ ، ولم يضع للحق والعدل أية اعتبارات ، لكنه لم يكن يعلم ما فعلوه ، وقد تصرف باعتبارهم أصحاب حق ، لم يكن يتصور أن الأمور فيها كل هذا التلاعب ، ولامهم .. ما هو موقفه الآن مع مسئولي الأمن بالمحافظة ، سينظرون إليه باعتباره مؤيدا للتزوير والتلاعب ، يا له من موقف صعب ، كيف يهرب من نفسه ، وبعد التداول في أمر علاء وما قد يحدث له مع حالة الفقر التي ستئول إليها أحوال عبد المنعم وميشو ، وجدوا أن أفضل قرار هو سرعة زواجه من منى ، والحاج الآن لديه ابن أخ طبيب عالمي ناجح ، وابنة أخت طبيبة عالمية ناجحة ، بالإضافة إلى منى زوجته التي

ستصبح طبيبة بعد عدة أيام ، وهؤلاء جميعا لن يتركوا علاء بدون علاج ، كما أن الحـــــاج لـــن يـــترك ابنته وزوجها بدون رعاية ، فقال عبد المنعم :

- " لقد طلب علاء أن نذهب إليهم لنقدم لمنى شبكتها ، فنحن لم نقدم سوى شقة عمارة الدقـــي مهرا لها ، والعجيب أن شوق زوجة المرحوم السلحدار باشا ، لم تلغي هذا العقـــد ، ولا أدري لماذا ، لكن على كل ، مادامت هذه رغبة ابني ، ورغبتكم أنتم أيضا ، يبقى على بركة الله .."

وأسرع عبد المنعم للاتصال بالحاج محمد ، وتعجب الحاج محمد ، وتساءل .. ماذا تراه يريـــد ؟ وازداد عجبه عندما أعلن له عن رغبته في الحضور هو وعائلته لزيارتهم ، لكنه لاحظ سعاد تنظـــر إليه من بعيد ، فساءلها في صمت ، فاقتربت منه سريعا ، وقالت له :

- " مش يا خالي ، منى لازم يطلبوها من حضرتك ، مش دي الأصول برضه ؟ "

وتساءل الرجل :

- " أليست متزوجة من ابنهم علاء ؟"

ثم أكمل مكالمته مع السيد عبد المنعم الذي طلب منه تحديد موعد لحضوره هو والعائلة ، ولم يمانع الرجل ، وحدد له موعدا في اليوم التالي على العشاء ، وشرح له عنوان الفيلا ، ثم جلس ينـــاقش الأمر مع سعاد ، فقالت له :

- " حضرتك غاضب من الطريقة التي تم بها عقد قران منى ، ولن تذهب إليهم بعد أن تنتقل منى للعيش معهم ، فكان لا بد من أن تتم الأمور وفقا للأصول ، حتى ترضى عن هذه الزيجة فـــلا تفكر فيها على أنها سرقة أعراض ، أو أنك أرغمت على قبولها .."

وتفهم الرجل الموقف ، وسعد بابنة أخته سعاد على كياسة تفكيرها ، فقد كان متضررا من هـــذه الزيجة وكان يحاول إخفاء مشاعره حتى لا يضايق ابنته ، لكنه تساءل :

- " هل هو الذي طلب ذلك ؟"

وقالت سعاد بشيء من الكياسة :

- " هو مين يا خالي ، دول ناس لا يفكرون لأبعد من أقدامهم ، الحياة ماشية بيهم وربنـــا هـــو الستار .."

وتساءل الرجل كيف لهم أن يطلبوا إصلاح خطأهم ؟ هكذا بدون مقدمات :

• " أمال إيه اللي حصل ؟

وأفضت إليه ابنة أخته بالسر :

• " ولا حاجة ، ببعض الدلال من الست منى ، تم كل شئ .."

وتساءل الرجل متعجبا :

• " منى بنتي تعرف دلال ..؟"

فأجابت ابنة الصعيد التي تأمركت :

• " مفيش ست يا خالي متعرفش حاجة ، بس الملقن بقى .."

وتفهم الرجل الموقف ، ودعا لها بكل الخير ، فقد كان ذلك كابوسا لا يدري كيف يتخلص منه ، فكرامته لن تسمح له بالنظر إلى علاء إلا باعتباره سارق أعراض ، ونذل ، ومدلس مشاعر ، حتى بعد أن تأكد له سلامة نيته ، لكنه كان على يقين أنه لولا ما حدث له ، لما ظهرت سلامة نيته هذه ، وها قد جاءت سعاد لتصلح ما أفسده علاء ومنى .

كانت التعليمات لكمالي أن يسمح للسيارة البيجو البيضاء بالدخول ، لكن كمالي فوجئ بسيارة مرسيدس زرقاء ، لم يذكر له الحاج اسم الضيف ، ولا يوجد لدى كمالي وسائل الاتصالات الحديثة ، تليفون أو دكتافون أو ووكي توكي أو محمول ، وأسقط في يده ، ماذا يفعل ، ولكنه يعرف أن هذا الرجل قادم للحاج ، فسأله :

• " نقوله مين سعادتك ؟"

ورد الرجل عليه بعنجهيته المعتادة ، لم يفهم كمالي شيئا مما قال ، فقد خرجت الكلمات متحشرجة ، كأنما هو يخرجها من جوفه عنوة ، لكن كمالي سمع من بين الكلمات اسم علاء ، وهو سمع هذا الاسم يتردد كثيرا في الفيلا ، فلا بد وأن يكون علاء هذا هو القادم الذي ينتظره الحاج ، سارع يسبغ عليهم وابلا من عبارات الترحيب المستمر الذي لا ينقطع ، سعد بها السيد عبد المنعم أولا ، ثم بدا كأنما أثار عصبيته التكرار الممل ، وكمالي يسبقهم ، فضل عبد المنعم الحضور مع أخيه وزوجته في سيارته المرسيدس ، حتى يساعده في حل أي مشاكل قد يثيرها الحاج ، فهو يخشاه بقدر

محاولته تجنب غضبه ، ثم أنه فضل الذهاب إليه بسيارة مرسيدس ، مادام هو يملـــك شـــيفرليه ، واستقبلهم الحاج استقبالا مناسبا ، فهو لا يريده أن يظن أنه راض عن زواج ابنته من ابنه ، حـــتى ولو كانت حياتها متوقفة عليه .

وعاد كمالي إلى البوابة ، وما أن هم بالجلوس بعد توصيلهم ، حتى وجد سيارة ثانية تطلق نداءاتها ، واستفسر عن القادم ، ضيوف آخرين للحاج ، قدر بعقليته المحدودة أن هناك حفـــلا ، ففتـــح البوابة لدخولها ، وهرول أمامها ، حتى باب الفيلا الداخلي ، فقد أصر عبد المنعم أن يحضر أفـــراد عائلته المقربين ، أخوه الدكتور خالد سفير سابق ، وزوجة أخيه السيدة ناديه ، وأختـــه الســـيدة فريال مديرة تعليم ، وزوجها المهندس كريم وكيل وزارة في المحافظة ومسئول عن إصدار تصـــاريح البناء فيها ، أراد أن يكون في عزوته ، ثم أنهم شركاء في المسئولية ، ولابد لهم أن يكونوا معـــه في هذا اللقاء ، فبقدر حرصه على مستقبل ابنه ، فهو يخشى الحاج ، ويخاف على ابنه منه .

وقدم الدكتور طه بسيارته التي ذهب لاستلامها من الجمرك بالإسكندرية بصحبة الدكتورة سعاد ، فقد أصبحت خبيرة بأعمال الجمرك وسككه ، وحضرت سعاد في أثره ، لقد قضيا وقتا طويـــلا منفردين لأول مرة منذ أن حضر الدكتور طه ، وتجاذبا الحديث في أمور شتى أثناء الذهاب ، وبعد الانتهاء من الاستلام ، دعاها لطعام الغداء في مطعم بأفخم فندق بالإســـكندرية ، وقـــام بحجـــز غرفـــتين لبعض الوقت ، واحدة له والثانية لها حتى ترتاح فيها من عناء السفر وعناء الإجراءات .

لم يصدق عينيه ، فقد نزلت من غرفتها في زينة وجمال لم يرها بهما من قبل ، وتعامل معها كمـــا تعامل الأميرات ، فقد كانت أميرة متوجة على عرش قلبه ، أمسك بيدها اليمنى برشاقة ودلال ، ثم اصطحبها إلى الطاولة التي حجزها ، وتفنن في اختيارها ، بحيث تكون قريبة من الشرفة التي تطـــل علي البحر ، وفي ذات الوقت لا يجرحها الآخرين ، سحب لها الكرسي حتى جلست ، وجلـــس أمامها يتأملها ، وكأنما يراها للمرة الأولى ، غاص في عينيها السوداوين ، وانطلقت منـــه عبـــارة تلقائية وكأنما نطق بها لسانه دون أن يدري :

- " بسم الله ما شاء الله ، كم هما جميلتان !!"

وأكسى الخجل وجهها بحمرة جميلة ، عبر عنها بشعر رقيق ، جعلها تحلق في السماء في آفاق حب عذري ، لم تشعر به من قبل ، وحاولت أن تشخص حالتها ، هل هي انبهار بطبيب عالمي كبير ، أم

أنه امتثال لأوامر خال ، رباها على يديه ، ولقنها المبادئ السامية ، وأنفق عليها بعد أن فقـــدت الأب ، أم أنه افتتان برجل يعرف كيف يعامل السيدات ، وكيف يسيطر على عواطفهن .

وتذكرت ، لقد كان موضع اهتمام معظم بنات العم سام ، حتى لكأنها كانت تشعر في داخلـــها بغيرة لا تعرف لها سببا إلا أنه ربما كان من أصل مصري ، وأنه ربما كان بلدياتها .. من الصعيـــد ، فشهامته كانت تدل على ذلك ، والرجولة والفحولة التي تظهر في كل تصرفاته كانت تؤكد هـــذا الإحساس ، وربما كانت تتمنى لو كان لها ، لولا غطرسته ، وتصرفاته معها ومع باقي زملائها مـــن المصريين ، وربما كانت التعليقات والنكت التي يطلقها عليه زملاؤها ، هي السبب في أنها لم تعطـــه حقه في تقييم سليم بعيد عن المؤثرات الخارجية . وتأكدت أن عقلها الباطن هو الذي حركها لكي تتزين بالصورة التي ذهبت بها لمقابلته ، أو لعله سحر الأنثى ، فهكذا هن دائما ، ســـعادتهن في أن يتفنن في فتنة الرجال بهن ، وهل هي من هذه النوعية من النساء التي تسعى لإغـــــراء الرجـــل ، وسمحت له أن يمسك يدها بهذه الشاعرية التي هزت كيانها ، وأشعرتها بأنوثتها التي توارت خلـــف التحصيل العلمي ، ومحاولة التميز ، وتركت لمشاعرها العنان ، فسمعت منه ما شاء له أن يســـمعها من كلمات الغزل ومعاني الغرام ، واكتشفت أن ملكة الشعر تتملكه ، فلا بد وأنه قال فيها ما قال مجنون ليلى في محبوبته ، وتذاكرت ، هل كانت تصده ، ولكن ، تصده فيم ؟ لم يكن بينهما سوى الطب والجراحة ، لكنهما جراحي قلوب ، والقلوب تتحدث ، ولقد كانت هناك نظرات من تحت لتحت ، فعندما كان يشمر عن ساعديه ، وترى تلك العضلات المفتولة ، والشعر الكثيف الـــذي يغطي بشرته المشوبة بالسمرة ، وتلك الشعيرات التي تطل عند صدره من خلال فتحـــة البـــالطو الأبيض ، كلها كانت تثير فيها مشاعر لم تكن تعرف حقيقتها في ذلك الوقت ، ذلك أن ما تعانيه ، أو لنقل ما كانت تظن أنها تعانيه من تعنت ، كان يغلب على هذه المشاعر ، كانت تتمنى لو أنـــه حاول إشعارها بنفسه خلال تلك الفترة ، ولكنها استدركت ، لقد فعل خيرا ، فلو كان حـــدث ذلك ، لما تمكنت من الحصول على التفوق الذي بلغته ، ولما كانت للمشاعر التي تفجرت لديـــها الآن ذلك الجمال وتلك الروعة . قال لها :

• " هل توصلت إلى قرار ؟"

وساقت الدلال :

• " فيم ؟"

ونظر إليها نظرة ذات معنى :

• " لا أريد أن أكون مفروضا ، وأتمنى أن لا أكون مرفوضا ..."

وبادلته التلاعب بالألفاظ :

• " وهل شعرت بشيء من هذا أو ذاك ؟"

وطأطأ رأسه معلنا استسلامه .. آه .. يا لعائلة الصقر هذه ، رأس يابس كصخور جرانيت أسوان ، وعقل نافذ كما الليزر ، وعيون مصوبة نحو الهدف تحنو أو تدمر .. فقال لها بعفوية ، غلبت على كلماته اللهجة الصعيدية :

• " بجو لك إيه ، متمسخيهاش عاد .. طلب من العم ، وحصل .. مشاعر الحب موجـــودة .. وكتبنا قصائد كمان .."

وقبل أن يكمل ..قاطعته بصبيانية :

• " والله .. قصائد .. طب جول .."

وتنهد بأسى :

• " كنت أظن أن العلم قد ترك بعض آثاره .."

وسارعت :

• " تقول إيه .. ناقصات عقل بقى .."

وقهقه عاليا .. ونبهته .. لكنه كان كمن يريد أن يتحرر من خنقة التزمت ، ويحلـــق في الهـــواء كطفل حصل على جائزة ، وسايرته ، ولكن بتعقل ، وما أن أنهيا طعام الغداء ، حتى التقطت يده ، وأسرعت به إلى الكورنيش ، تجري وهو يلاحقها ، وتوقفا أمام بائع الذرة ، وتقاسما كـــوز ذرة ، وأمسك نصيبه الذي أعطته له ، ونظر إلى البدلة والكرافت ، فنزع الجاكت ، وحل الكرافتـــة ، وكذلك قامت هي بخلع الجاكت ، وألقيا بهم في سيارته ، وقضيا ما بقي من فترة الظهيرة في تسابق ولهو ، كطفلين ، أو لنقل أنهما حاولا حياة ما كان يجب أن تكون عليه الحياة بعدما مـــرت دون مبالاة ، واتفقا أن يسارعا إلى العم والخال ، ويكون الطلب من الاثنين ، هو يبدأ ، وهي تكمل .

ما أن أوقف كل منهما سيارته في الجراج .. حتى انطلقا ، هو ينادي " عمي " ، وهي تنادي "خالي " ، وهب الرجل مسرعا يلبي نداءهما ، وقد ظن أن حدثا جللا قد أصابهما ، فأسرعا في وقت واحد :

• " قررنا أن نتزو .."

وقبل أن يكملا .. فوجئنا بكوكبة الضيوف ، وتذكرت .. إنه عبد المنعم بك والد علاء ، ودخلت على استحياء ، وسلمت ، وكذلك فعل الدكتور طه ، وقدمه عمه إلى عبد المنعم أولا ، فشد على يد الدكتور طه كأنما يعرفه منذ زمن ، وحتى يشعر أخاه السفير وباقي أفراد العائلة ، أن معرفته ليست بالحاج محمد فقط ، ولكنه عرف عائلته كلهم ، معرفة وثيقة ، وبعد كلمات الإشادة بمكانة الدكتور طه العلمية والطبية ، ومكانته في قلوب المصرين حيث يعتبرون نجاح أي من أبناء النيل العظيم ، نجاحا لهم جميعا ، وقبل أن يأخذ الحديث منحى الاستشارات الطبية ، استأذن مصطحبا عمه وابنة عمته إلى الداخل ، حيث أكملا ما بدآه من حديث ، سعد به الرجل أيما سعادة ، وهو يتمتم :

• " إيه ده .. هي الأفراح لما تيجي .. تيجي بالجملة .. الحمد لله .. بس يا أولاد فاضل اثنين .."

وطأطأ رأسه ، وتساءل الدكتور طه ، فأوضحت له سعاد ما يقصده عمه ، وأنه يتمنى نهاية سعيدة لمنال ، وأوضحت له أسباب تشريف السادة الأفاضل بالصالون .

عاد الرجل إلى ضيوفه وقد علا وجهه البشر ، واستكمل ما انقطع من الحديث ، تعارف مع كريم زوج أخت عبد المنعم ، فقد كانا زميلي دراسة سابقين ، ثم انتقل الحديث إلى المستشفى ، حيث توجد بعض المشاكل مع المحافظة ، واستبسط كريم بهذه المشاكل ، ووعده بأن يقوم هو شخصيا بحلها ، إن لم يكن للزمالة السابقة ، فللعلاقة العائلية الجديدة .

تنحنح عبد المنعم بعد أن وكزته زوجته ، فقدم أخاه خالد الدبلوماسي الذي قال :

• " يا محمد بك .. إحنا يسعدنا ويشرفنا نسبكم ، ونرجو أن لا تؤثر الأحداث السابقة على سعادتك وتعتبرها طيش شباب ، وعلاء ابنك زي ما منى بنتنا .."

وامتدت السهرة ، وأسقط في يد الحاجة جميلة ، فهي لم تستعد لهذا العدد ، ظنته علاء ووالديه وفقط ، لكن سعاد ، السريعة في الإنقاذ من المواقف الصعبة ، أعدت خطة عمل ، ونادت زوجة

كمالي ، وكلفت الدكتور طه بإحضار بعض الحاجيات التي حددتها بالمشاركة مع زوجة خالها ، ونادت منال لتشرف على الإعداد ، بينما طلبت من زوجة عمها أن تترك كل هذه الآمور لها ، وتذهب لتكون إلى جانب حبيب قلبها للترحيب بالضيوف ، ولا تنسى أنها نورهان هانم الـتي إن لم تكن أفضل الموجودات ، فإنه لا توجد من هي أفضل منها ، وضحكت السيدة الفاضلة ضحكة تدل على الدلال الذي اختفى وراء سنوات عجاف مرت بها العائلة ، فاستأذنتها سعاد وسبقتها إلى خزانة ملابسها ، وأخرجت لها مجموعة من الفساتين الجميلة التي أحضرتها لها معها من أمريكا ، إلا أن السيدة أخرجت فستانا انبهرت سعاد من فرط جماله ، وبعد أن ارتدته ببعض الصعوبة لما أضافه السن إلى وزنها ، بدت كالقمر في تمامه ، وببعض اللمسات الخفيفة من وسائل التجميل الحديثة ، لم تصدق سعاد كم هو ذوق عمها الراقي في اختيار شريكة حياة تقف أمامها ملكات جمال العالم في درجة أقل من الوصيفات ، وسعدت السيدة بكلمات المجاملة التي ساقتها لها سعاد ، وتعجبت :

• " كل ده يطلع منك انت يا سعاد .."

وأسرعت سعاد تعد منى لتكون في مثل جمال أمها على الأقل ، حقيقة أنها جميلة ، ولكنها تقل قليلا هي أو أختيها عن جمال والدهن ، لكن التكنولوجيا الحديثة في فن الماكياج ، لم تترك هذه الفوارق أي مجال ، فخرجت منى في جمال أسطوري ، لم يتمالك معه الجميع من ترديد " بسم الله ما شاء الله " ، والحاج والحاجة ، تعلقا بالمعوذتين سائلين المولى عز وجل أن يحفظها ، بينما نهض علاء بسرعة البرق ، يخطف يد زوجته بشوق وحب وحنان ودلال ، ويجلسها إلى جانبه حتى قبل أن تسلم على أقاربه ، وأخذ من والدته بعض العلب التي تحوي مجوهرات غالية الثمن ورائعة المنظر ، تعبيرا عن ما يسمى بالشبكة ، وقدم أقاربه التهاني والقبلات ، وأمطروهما بوابل من كلمات المجاملة ، بينما التصقت بهما السيدة ميشو ، تصبغ عليهما قبلاتها بين الحين والحين ، وقامت السيدة ميشو بتقليدها عقدا ثمينا كانت قد تزينت به وهي قادمة .

وأمام ذلك ، لم يملك الحاج محمد إلا أن يتقدم من علاء ، ويقبله قبلة أبوية مسحت عنه كل هموم ما سبق من أحداث ، وأسرعت السيدة جميلة إلى الداخل ، وأحضرت صندوقا صغيرا جميل الصنع ورائع المنظر كأنه تحفة فنية ، يحوي بعضا من مجوهراتها ، وقدمته لإبنتها لتختار منه ما تشاء ، وانهالت عليها تقبيلا وهي تحتضنها بحب وحنان كانا بالنسبة لمنى أغلى كثيرا من بريق الذهب أو الماس الذي لعبت له رأس عبد المنعم وكريم وخالد قبل زوجاتهم ، فقد كان كنزا حقيقيا فازت به

هي دون أخيها تركة عن والدها أنهار هانم ، إلى جانب ما أضافه والدها وزوجها إليه ، وذلــك لم يكن بالقليل لا من الناحية الجمالية ، ولا من حيث القيمة المادية .

قدمت كوكبة من السيارات ، لم يستطع كمالي أن يوقف تدفقها ، تحمل العشرات من بلدياتـــه اللذين يعرفهم ويعرفونه ، ومن بينهم بعض أقاربه وأقارب الكثيرين ممن أتاح لهم الحـــاج محمـــد فرصة العيش الكريم في أعماله ، وحاول كمالي منعهم من الدخول فردوا عليه بعصبية تدل علـــى الشر ، فأسرع إلى الحاج ليخبره ، فسارع الحاج لمواجهتهم وهو لا يدري ماذا يفعـــل ، ومـــاذا يريدون ، ونادت السيدة الجميلة على الدكتور طه ، فلم تجده ، فنادت سعاد ، وطلبت منـــها أن تستدعي الشرطة ، لكن السيد كريم وكيل الوزارة بالمحافظة ، تبرع بشهامة ، وأظـــهر بركاتـــه ، وطلب اللواء مدير الأمن العام ، فهو صديق له ، ووعده الرجل بأن النجدة في طريقها إليهم .

تقدم ابن العمدة ، ووقف أمام الحاج محمد شاهرا سلاحه ، ثم ألقاه تحت قدميه ، وقال :

• " دي برضه مجابلة يا ولد العم .. والله إحنا ما جينا إلا في الخير ، تعا يا ولد انت وهو ، حبـــو على يد سيدنا وابن سيدنا ومولانا الحاج عبد المؤمن شيخ جامعنا ، ما تآخذنيش يا حاج محمد ، الدكتور عبد المؤمن ، أول من رفع راس بلدنا بعالمية الأزهر ، وكمان الباش مهندس الحـــاج محمد ، رفع رأسنا في العالم كلياته ، وهل علينا من التليفزيون مع ابن أخوه الدكتـــور طـــه ، والأعمال العظيمة اللي عملها .."

وقدم من في السيارات واحدا واحدا ، كل يلقي سلاحه تحت أقدام الحاج محمد ، ويحاولون تقبيل يديه ، وقد التف حوله عبد المنعم وكريم وخالد ، بينما الصف الثاني وقفت السيدات والآنســـات حتى مهجة . وقدم اللواء مدير الأمن العام ، ومعه كوكبة من السيارات تقل جيشا مـــن رجـــال الشرطة ، ووجدوا الأمر على ما هو عليه ، فجمعوا السلاح ، واكتفوا بمصادرته ، بينما أكمل ابن العمدة :

• " يا ولد العم .. والله ما جينا في شر .. إحنا جينا نصفي الخلاف اللي بناتنا ، سلاحنا تحـــت رجليك ، وأكفاننا في السيارة ، عايزها نجيبها لك ، والخرفان معانا ، مستعدة للذبـــح ، والله يرحم موتانا وموتاكم ."

ثم نظر إلى الحاج وفرد ذراعيه لاحتضانه ، ولم يجد الحاج بدا من تلبية دعوته ، وظلا في عنـــاق طويل دمعت له العيون ، وهما يتذاكران أيام طفولتهما ، ثم نظر إليه مليا وقال :

• " إحنا يا حاج استخرنا الله ، وما لقيناش حد يمثلنا في البرلمان غيرك ، علشان كده جينـــالك نقدم أسفنا ، ونرجوك قبول ترشيح نفسك عنا .. جلت إيه .."

وفوجئ بالجميع يصفقون ، أهل بلدياته ، ونسايبه ، والحريم كذلك ، حتى رجال الشرطة ، فقـد كان موقفا يستحق التصفيق ، رجال يضعون حدا لثارات استمرت سنين وسنين ، وبهذه الطريقـة التي تدل على وعي حقيقي ، نابع من تفضيل للمصلحة العامة ، على كل ما توارثوه مـــن أمـــور تدخل في مفاهيم الجاهلية ، نهى عنها الإسلام .

وبدأ الولد يقدمون أنفسهم ، تقدمهم رجل تدل ملامحه على تحمل مآسي ما بعدها حد ، ألقـــى بنفسه تحت أرجل الحاج يقبلها وينتحب ، وحاول الحاج رفعه بصعوبة ، فأخفى وجهـــه محـــاولا الابتعاد ، لكن الحاج استوقفه بصعوبة ، وسأله عن حاله ، فتعجب ابن العمدة وسأله إن كان يعرفه ، وازداد عجبه من إجابة الحاج بأنه يعرفه ، وعفي الله عما سلف ، ودعا له الله سبحانه وتعـــالى أن يغفر له .

لكن ذلك أثار تساؤل الجميع ، فقال ابن العمدة :

• " الراجل ده أساء للحاج إساءة كبيرة جوي ، وكان الحاج معاه أكثر من كريم .."

وازداد العجب ، وخاصة مدير الأمن ، فقد كان الشكل مألوفا لديه ، فأجاب ابن العمدة :

• " رغم إساءته للحاج ، إلا أن الحاج قام بتدبير معايش لمرته ولأولاده ، وجابهم مصر ، وشغلهم وعيشهم في الأرض بتاعته اللي بيزرعها ، ولما خرج من السجن .."

وتساءل الجميع في نفس الوقت بدهشة :

• " السجن !!! "

فأكمل ابن العمدة :

• " وجد إن الكل تخلى عن مرته وأولاده إلا الرجل اللي أساء إليه ، جاني يجري ، وطلب مني أن أحضر معه لأشفع له عند الحاج يقبل ندمه ، وياخده عنده عبد يخدمه ويخدم ولاده طول العمر

، ولما حكى لنا الحكاية ، وكان عندي ناس ياما ، لقيت كل الناس عـــايزه تيجـــي معانـــا ، تتشـــكر للحاج ، اللي شغل له أقاربه ، واللي بيبعت له شهرية ، واللي واللـــي .. ولقيـــت الأصوات بتدعيله بكل الخير ، قلت يه .. ده الحاج ليه شعبية ولا النائب بتاعنا ، ووجدهـــم جميعا يطالبونني بأن نحضر ونصر على إقناعه بأن يكون النائب عنا في البرلمان .. وآدي الحكايـة يا حاج .. إيه رأيك ..؟"

وهمس مدير الأمن في أذن الحاج :

• " هو أساء إليك في إيه ؟"

ورد الحاج وكأنه أمر بسيط :

• " أبدا .. اشترك مع آخرين في قتل أبوي وهو نايم ، وسمموا الكلب بتاعنا .. وتســـببوا في إني بعت كل ما نملك من أراضي بتراب الفلوس ، وبعت الفيلا اللي كنا عايشين فيها ، وبنيـــت عمارة عالية قوي سكنت في آخر دور وحصنته كما القلعة علشان محدش يؤذي أهل بيـــق .. وبس .."

وتعجب مدير الأمن ، وكذلك عبد المنعم وزوج أخته وكيل الوزارة من كم التســـامح الـــذي يتحلى به هذا الرجل ، بينما همس عبد المنعم في أذن زوجته :

• " شقتهم فوق السطوح .. أهي طلعت قلعة فوق روف عمارقم ..!"

بينما الجميع مازالوا ينظرون إلى الحاج نظرة تساؤل ، فقال الحاج :

• " الرحمة فوق العدل أيها السادة .."

وتقدمت مجموعة منهم اخوة وأقارب كمالي البواب ، ومجموعة أخرى اخوة وأقارب محمديـــن ، وثالثة أخوة وأقارب حسنين بواب فيلا عبد المنعم ، ورابعة اخوة وأقارب سلامه ، حارس عـــلاء بالفيلا ، وخامسة ، اخوة وأقارب عبد البر ، خادم شقة الأنس ، وسادسة ، اخوة وأقارب جرجس ، فراش مكتب الأستاذ لبيب محامي السيد عبد المنعم .. وهكذا ، وكلهم يدعون للحـــاج محمـــد بالعمر الطويل والخير والبركة ، ثم قال ابن العمدة :

• " الناس دي كلياتهم يا حاج محمد ، بيوتهم مفتوحة من خير الله وخيرك .. عرفت بقى إحنا جايين ليه ، وكويس إن حضرة الضابط جمع السلاح ، علشان يعرفوا إن إحنا مش من الإرهابيين ولا حاجة .."

وأثناء هذه الخطبة العصماء ، حضر الدكتور طه ، حقيقة أنه لم يذهب إلى البلد منذ أن كان صغيرا ، لكن هناك من يذكره ، فتكوكبوا حوله يهنئونه بنجاحه وتفوقه ، وكأنه أحد أبنائهم أو أخوهم ، وأسقط في يده ، لقد أمر بعشاء للعدد الذي كان متواجدا ، ماذا يفعل الآن ، ولاحظ ابن العمدة الهمس الذي دار بين الدكتور طه وعمه ، وشاركت فيه السيدة نورهان ، فقال بصوت جهوري :

• " يا الله يا حسان انت ومعوض ، نزلوا الخرفان ، وجهزوها للشوي .."

ثم نظر إلي مدير الأمن العام ، الذي كان على وشك الأمر لقواته بالانصراف ، وقال :

• " بعد إذن الباشا ، انتو كلياتكم معزومين معانا على العشاء عند سيدنا وابن سيدنا الحاج الباش مهندس محمد الصقر ، بعد إذنك يا ابن عمي إحنا كلنا إخوه ، وعلشان يبقى عيش وملح .. أقصد عيش ولحم .. مع رجال الشرطة .."

فضحك الجميع ، وقال الحاج محمد :

• " البيت بيتك يا ولد العم .."

وتعانقا مرة أخرى ، وكأنما عداوة سنين ، يتم تعويضها بالحب الذي ملأ المكان ، فانتقلت العدوى للجميع ، الرجال يعانقون بعضهم ، والسيدات تقبلن بعضهن ، تعبيرا عن الشكر لله سبحانه وتعالى على نعمة التسامح والحب والغفران التي منحها للإنسان ، لكن الحاج محمد ، قال إن شكر الله لا يكون إلا بالصلاة ، فتوضأ من لم يكن على وضوء ، واصطفوا في صلاة لشكر الله سبحانه وتعالى ، وقام الحاج محمد بإمامتهم ، ثم انتقل الجميع للجلوس في الحديقة ، والخراف تشوى ، وأطباق السلاطة وخضار السوتيه واللحوم والدجاج البانيه التي أحضرها الدكتور طه وضعها السفرجية الذين أحضرهم معه على الطاولات ، وكذلك وضعت الأطباق التي أعدها الدكتورة سعاد ولفيف الحريم التي استعانت بهم ، وجالس الحاج محمد ضيوفه من الرجال ، ابن العمدة ومدير الأمن وعبد المنعم وأخيه السفير وزوج أخته وكيل الوزارة ، بينما جلس الدكتور طه مع

باقي رجال البلد ، ومعهم كمالي ، أما السيدات ، فقد أعدت لهن طاولة في البراندة ، توسطها علاء وإلي جواره منى ، بينما نورهان وسعاد تقومان على خدمة الجميع ، والحاج يمر على رجال البلدة ورجال الشرطة ، يتأكد من حصول كل منهم على نصيب وافر من الطعام ، ويسألهم إن كانوا يريدون المزيد .

وتغيبت منال عن الحفل ، فقد ألمت بها وعكة ، لم يكن في الفيلا من يعرف لها سببا سوى من عانى من الصبابة ، ولقد سبق لوالدتها أن عانت من تعنت أخيها مع حبيب قلبها ، لكنها كانت صغيرة على التعبير عن ألمها إلا بالبكاء ، أما الحاج محمد ، فقد عانى تماما كما عانى حسام ، ويعرف تماما أثر ذلك على منال ، ولكن الرجل دائما ما يؤجل كل شئ لوقته ، والوقت الآن لأفراح منى وعلاء ، واستجدت المصالحة مع أصحاب الثارات من بلدياته .

وغالبا ما تكون الآلام من المرارة والصعوبة عندما يشعر المحب بعجزه عن التعبير عن حبه ، أو يصبح المحبوب في خطر ، ولا يستطيع الحبيب أن يدرأ عنه هذا الخطر ، وقد كانت وعكتها أمر من كل ما يمكن أن تعبر عنه الكلمات ، فقد اتصلت بها نشوى ، وأخبرتها ما حل بأخيها ، وحيرة الأطباء في تشخيص مرضه ، و فشلهم التام في تحديد الدواء المناسب ، وما ألم بالبيت .. كل من في البيت من آلام ، فتحول إلى محزنة ، وهم لا يعرفون لمرضه سببا .

لكن منال تعرف السبب ، لكنها لم تكن تتصور أن الأمر يصل إلى حمى وشلل أصاب جميع أجزاء جسده ، وانحباس صوته وعدم قدرته على الكلام أو حتى تحريك شفتيه ، بل صمت مطبق ، ودموع تنهمر ، ورفض للطعام والشراب ، حالة لا يمكن تشخيصها إلا بأنها من آثار ما فعلت به عمته ، تلك الكلمات الصارمة التي طردته بها من الفيلا ، وكأنما هو مسئول عن أخطاء أبيه كلها ، وهي وإن كانت قد ساعدت في إعداد الطعام للضيوف ، إلا أنها بمجرد أن انتهت مما كلفتها به سعاد ، حتى أسرعت إلى غرفتها وألقت بنفسها على السرير تبكي في صمت ، ولم يشعر بها أحد إلا بعد أن غادر الجميع ، فأسرعت إليها والدتها وقامت سعاد بفحصها ، بينما الأب في قلق ، ولا يدري من يلوم ؟ زوجته التي عنفت الشاب بينما هو قادم للخير ، أم مدحت الذي لم يترك لأخته فرصة لتغفر له تطاوله ونكرانه للجميل ، بعد كل هذه السنوات من العطاء المستمر ، بدأت معه بالسماحة ، وانتهت بالسخط ، هل الأخت في هذه الظروف تتصرف هكذا ؟ أم أنها قسوة قلب هذا الجحود الذي لا يفكر إلا في احتياجاته ، وغطرسة على الفاضي ، والأب يعرف

المرض ، ويعرف العلاج ، لكن ماذا يفعل ، ليس باليد حيلة ، فمن غير المعقول أن يذهب إلى بيت مدحت ليحضر حسام إليها ، أو يأخذها هي إلى بيت حسام ، ثم هناك أمور كثيرة تحتاج إلى مناقشة ، وخرجت سعاد لتعلن أنها حالة إرهاق طارئة ، وهي تحتاج إلى نوم عميق ، وقد حقنتها بمهدئ يحقق المطلوب ، لكن الأب يعرف جيدا ، أن المهدئ عندما ينتهي مفعوله ، سيعود الصراع مع قلبها الذي يريده حتى ولو كان العالم كله لا يريده ، وعقلها الذي يرفض أن يخالف أوامر الوالدين .. ماذا تفعل ؟



لم يكن عبد المنعم راغبا في ترك هذا الاحتفال الذي قدر الله له أن يكون هكذا ، لكن ألما مفاجئا ألم بعلاء ، فهمس في أذن والدته أنه متعب ويريد أن يرتاح ، فأسرعت السيدة إلى زوجها تستحثه إنهاء الحوارات التي تدور حول الحاج وعائلته ومكانته في بلده وفي مصر عموما ، وعن ابن أخيه الدكتور طه ، وبنت أخته الدكتورة سعاد ، وغيرهما ممن ينوي الحاج إرسالهم للدراسة في أمريكا ، وعن أراضيه التي تزيد عن مئات الأفدنة ، وأرض جده التي كانت في البلد والتي كانت كذا فدان ، وعبد المنعم يستمع ، بينما عقله منصرف في تقييم الموقف ، وتوصل إلى النتيجة التي سبق لهم تدارسها ، وهي أن زواج ابنه من منى سيؤمن له المستقبل المادي والطبي الذي يجنبه العدم بعد انتهاء المحاكمات ، وأصبحت منى التي كانوا لا يريدونها زوجة له هدية من السماء ، واصبحوا يفتخرون بهذا النسب الذي كان لا يشرفهم . وما أن وصل علاء إلى غرفته ، حتى ألقى بنفسه على سريره بملابسه ، فقامت والدته باستبدالها له ، وما هي إلا لحظات ، حتى دق جرس الباب ، وتعجب عبد المنعم !! في هذه الساعة المتأخرة من الليل ، تراه من يكون ؟ عساه خيرا ، وفوجئ بالسفرجي محمود ، يهرول إليه وقد اصفر لونه ، وقبل أن يخبره داهمته الشرطة ، وحاول عبد المنعم أن يرحب بهم ، فأمر لهم بشراب ، لكن الضابط الكبير رفض ، وأمر بوضع القيود في يديه ، فحاول أن يقاوم ، لكن يقاوم من ؟ حاول أن يصدر أصوات اعتراض ، لكن زوجته التي لحقته ، همست في أذنه بأن لا يزعج علاء ، فقد نام وهو يتألم ، ربما كان الوقت غير مناسب له لسهرة كهذه ، خاصة مع انفعاله بحبه لمنى ، فبلع الرجل غضبه ، وافتعل البراءة ، وهو يتساءل كأنما لا يوجد سببا للقبض عليه ، وتناسى ما أبلغه به لبيب من أن شوق لن تتركهم إلا بعد أن تحصل على حقها كاملا هي وابنها ، فإن تلكئوا فسوف يكون مصيرهم السجن أو الإعدام ؟ وقام خلف بلعبة التليفونات التي حملت التهديدات له وللبيب ، كان يحاول افتعال البراءة ، وأن هناك خطأ أكيد فيما تفعله الشرطة ، على الأقل حفظا لماء الوجه أمام الخدم ، وأجابه الضابط الكبير :

• " عندما نصل القسم ، ستعرف كل شئ .."

فحاول معهم أن يسمحوا له بالاتصال بأخيه السفير ، أو زوج أخته كريم ، فهو وكيل أول وزارة في محافظة القاهرة ، كان يريد أن يفهم الضابط الكبير أن له عزوة ، وأن اخوته وأقرباءه

يشغلون مراكزاً كبيرةً في الدولة ، لكن الضابط أوضح له أن من يريد أن يتصل بهم ، موجـودون فعلا بالقسم حاليا ، حتى لكأنه سأله للتأكيد :

- " تقصد المهندس كريم زوج أختك المدعوة فريال .. إنه هناك مع أخيك السـفير ، فقـد تم القبض على فريال أيضا .."

وبدأ عبد المنعم يقلب الأمور من جميع الوجوه ، وكلما توصل إلى سبب يفنده ، إذ لا يمكـن أن يكون ذلك بسبب الإرث أو أموال الباشا التي تم الاستيلاء عليها أو حتى أملاك شوق ، حيـث أن جميع العقود قد بصمهما الباشا باعتباره وليه الشرعي أو وكيلا عن زوجته شوق ، وهذه لا تصـل إلى درجة القبض عليه ليلا ، ووضع القيود في يديه في بيته أمام زوجته وكذلك الخدم والسفرجية ، أرادت زوجته أن تذهب معه ، فمنعها حتى تكون إلى جوار علاء ، واحتارت السيدة ، هل تذهب مع زوجها ؟ أم تبقى مع ابنها ؟ ، لكن عبد المنعم ضغط عليها لكي تبقى إلى جوار ابنها ، وأشعرها ببعض الطمأنينة في وجود كريم وخالد ، وأن الأمر به خطأ أكيد ، فهو لم يرتكب جرما يوجـب القبض عليه بهذه الصورة ، ثم طلب منها أن تتصل بالمتر لبيب لكي يكون معه أثناء التحقيق ، لكن الضابط سأله إن كان يقصد المدعو لبيب عبد الباقي ، ولما كان هو المقصود ، طمأنه الضـابط إلى احتمال تواجده في القسم ، فقد أرسلوا في استدعائه . وهنا فقط بدأ قلب عبد المنعم يرجـف ، إذ أن لبيبا لا يربطه بهذه الجرائم سوى مشاركته في تسهيل عمليات التسجيل ، وهذه ليس عليـها العقوبة التي توجب وضع القيود ، لابد وأن الموضوع يمس مصرع الباشا ، واسـتعادت ذاكرتـه بتركيز تلك العبارات التي صيغت بها تهديدات التليفونات التي كانت تقلقه وتقلق لبيب ، والـتي استهان بها بناء على نصائح كريم له ، وأخذ يحلل مفهومـها ومضمونهـا ، ليتـه لم يسـتمع إلى مستنفذات زوج أخته كريم ، فقد جرت عليه كل هذه الويلات .

لكن المفاجأة الحقيقية التي عقدت لسانه فما عاد يستطيع النطق ، أن رجال النيابة دارت أسئلتهم حول عبد المنعم الجاويش ، والموضوع لم يكن بالبساطة التي طرحها لبيب ، فقد قال بأن شـوق سألت عن علاقة عبد المنعم السلحدار بعبد المنعم الجاويش ، وطلبت شهادات الميلاد ، وقد فـبرك لبيب لها مستندات أي كلام ، بناء على نصائح المهندس كريم .

واجهوا عبد المنعم كما سبق وأن واجهوا فريال وخالد بتهمة اختفاء عبد المنعم الجـاويش ، وأن عدم ظهورة أو اثبات وفاته بصورة طبيعية ، لا يعني إلا أنهم قتلوه ، ونظر خالد وفريال إلى عبـد

المنعم ، بعيون يملأها التساؤل ، هل يصران على أن عبد المنعم ابنا شرعيا للباشا حتى يبقيان على ما يخصة من التركة بعد تقسيمها القسمة العادلة ، أم يقران بما حدث ، ليدرأوا عن أنفسهم جريمة القتل فيخرج عبد المنعم من المولد بلا حمص ؟ وفي هذه الحالة فسوف توجه إليهم بعض التهم أقلها التزوير .

وحيث أنهم في جميع الأحوال سيفقدون الأراضي والعقارات والأموال التي صورتها لهم جلنار على أنها أموال والدهم محمد الجاويش سلمها إلى الباشا وفاء لرهان غبي ، وأن احتفاظ الباشا بهذه الأراضي والممتلكات لا يعتبر شرعيا ، لكن أيا منهم لم يفكر ولو للحظة ، إن كانت جلنار تنظر إلى أراضي ومنشآت الكفر بهذه النظرة ، وربما يكون لديها بعض الحق فيما تدعيه ، خاصة وأنها أطلعتهم على الحجج الأصلية لهذه الممتلكات ، والتي تثبت أنها كانت باسم والدهم ، فماذا عن باقي الممتلكات التي لم تكن باسم والدهم ؟ لقد أحبت جلنار والدهم حبا يفوق كل ما هو معروف عن الحب ، وكان من المقرر أن تتزوجه ، لكنه تخلص منها بذلك الرهان الذي تحدى به محمد السلحدار ، بل وساعده في التقرب منها ، ولما قبل محمد السلحدار التحدي ، ونجحت خطة ابن الجاويش ، وانتهى بزواج السلحدار من جلنار ، تنازل له عن الأرض والقصر ، لكنها لم تذكر لهم أن السلحدار دفع له الثمن كاملا ، جزء كبير منه كان قد وصله حتى قبل هذا الرهان ، سدادا لقروض خسارته في القمار ، وما زاد دفعه بشيكات على حسابه في البنك ، حتى يكون سندا قويا لا يقبل الشك في وفائه لكامل الثمن ، وأنه أطلعها على المستندات التي تثبت ذلك ، كما أقنعتهم بأن ما أضافه السلحدار إلى ممتلكاته هي في الحقيقة من عائد الأرض التي انتزعها من أبيهم ، ونظرا لأنهم كانوا في وضع بئيس ، فقد كانوا على استعداد لتصديق أية أكاذيب تأتي لهم بالمال من أي مكان وكيفما كان المصدر ، كانت تريد أن تجرد الورثة الشرعيين للباشا من كل شئ .

لم تهتم بأن تعدل من نفسها ومن تصرفاتها ، بعد أن تحولت مشاعره عنها ، وأصبح يكاشفها صراحة بأنها قد تكون أي شئ إلا أن تكون أنثى ، فإن لها مخالب قط ، وشراسة ذئب ، وأنياب أسد ، ودناءة ضبع ، وصوت حمار ، واستشاطت غضبا عندما اكتشفت زواجه من شوق ، وعنّ لها أن تكيد لهما ، فكرت أن تقتلهما ، لكنها كانت تخشى اللقاء بغريمتها ، فقد وصفوها لها وكأنها أسطورة من أساطير الجمال ، خشيت أن تقف بشيخوختها أمام شبابها ، وأن تقف ببقايا حسن ولّى أمام جمالها الواعد ، ولم يبقَ أمامها إلا ذلك الباشا الناكر للجميل ، فقد صور لها عقلها المريض أن

زواجه منها كان السبب الرئيسي لسعده وارتفاع نجمه ، ألم توصي به عند الملكـــة ، فنقلتـــه إلى القاهرة في مركز كبير ؟ ثم كانت تسهل له عقد الصفقات الواحدة تلو الأخرى مع القصور الملكية وكذلك جميع أقاربها ، وما كانت أكثر عائداته منها ، وتطرق عقلها إلى كل شئ حـــتى القتـــل ، وكان لابد لها وأن تفكر في العواقب ، ففكرت في خطة تتخلص بها منه ومن زوجته وولـــده دون إدانة قضائية ، وأشركت كل المستفيدين في تنفيذها ، وقررت أن تنزع منه كل ما يمكن أن يورثـــه لزوجته وابنه منها قبل أن تدفنه ، خاصة وأنه تجرأ وطلقها ، والكارثة الحقيقية أن الجاويش كان قد مات ، ولم تفكر ولو للحظة أن السلحدار كان أفضل وأكرم منه مئات المرات ، فقد قبل بها زوجة حتى بعد أن وصلت إلى ما وصلت إليه من دمامة وترهل وسكر ، فهل كان ابن الجاويش ســـيفعل ذلك ؟ لقد عافتها نفسه عندما كانت بجمالها وتألقها ، فهل يقبلها بعد أن ولّى الجمـــال وذهـــب التألق ؟ لكنها كانت تظن بأنه لم يكن أمامه سواها منقذة له بعد أن أصبح معدما ، فآثر المسكين أن يطلق على نفسه الرصاص على طاولة القمار التي خسر عليها وبسببها كل أمواله ، عندما وجد أنها تحاصره أينما ذهب ، ولما علم أنها في انتظاره بالخارج ، هرب بجلده منها إلى الجحيم ، ربما لعلمـــه بأن الله غفور رحيم ، ورحمته في جحيمه ، قد تكون أهون من جنة جلنار في الأرض ، فتفتق ذهنها على تزوير أصغر أبنائه باسمها واسم محمد السلحدار ، وعندما أحضرته إلى قصر الباشا الذي تقيـم فيه بالقاهرة ، أقنعته برغبتها في أن تكون أما ، أما لمن ؟ لقد كان عبد المنعم في العاشرة تقريبـــا عندما تمت عملية تحويل نسبه ، وكانت هي في سن لا تسمح لها بالحمل أو الولادة ، لكن هناك من لا تستعصي عليه مثل هذه الأمور ، إنه لبيب ، خادم الباشا وكاتب عزبته ، وضبطه الباشا وهـــو يهمس إلى جلنار ، استدعاه ووجه إليه نظراته النيرانية ، وحصل منه على شهادة ميلاد عبد المنعـم الجاويش بعد أن كانت قد مزقتها جلنار وألقت بها في سلة المهملات ، وأمره بأن يعالجها حتى يمكن قراءتها ، وسارع إلى الشهر العقاري ، ووثق تلك الشهادة التي تثبت أنه ليس له أبناء سوى المولود المنتظر من حبيبة قلبه شوق ، وأشهد لبيبا عليها ، حتى لا يستطيع أن ينكر ذلك مستقبلا ، حـــتى ولو توفي الباشا ، وحذر لبيبا من أن يخبر جلنار بما حدث ، وكم كانت فرحة الباشا عندما رزقه الله بإسماعيل ، فقد أجزل العطاء للجميع ، وخص لبيبا بمكافأة لم تكن تخطر له علـــى بـــال ، بينمـــا جلنـــار تغلي كالنار ، وتعيد في خططها وتعدل منها كي تجعل هذا الباشا وزوجته ووليده معدمـين ، خاصة وأنها لا تستطيع أن تواجه الباشا ، فقد كان قاسيا في غضبه بصورة تجعل مـــن أمامـــه في

رعب دائم ، رغم ما يبدو عليه من طيبة وسماحة خلق ، وقد كانت ثوراته عليها دائمة ، وكانت دائما في رعب منه جعلها لا تجرؤ على مواجهته .

لقد طردها من قصره في القاهرة أكثر من مرة بعد أن يتلفظ بعبارات الطلاق مرات ومرات ، لكنها لم تحرك ساكنا ، ولم تخرج من القصر حتى بعد أن أعلنها بالطلاق رسميا وسلم لها وثيقته ، لكنه كان يعلم بأنها لم تبقِ على شيء من أموالها وممتلكاتها بعد أن سددت ديون قمار حبيب القلب ، وبعد وفاته احتضنت أولاده ، والجميع يعيشون في خيره ولا تكفيه شرها ، ازداد كرهه لمحمد جاويش رغم وفاته ، خاصة كلما نظر إلى أولاده اللذين جاءت بهم إلى قصره ليذكرونه بأفعال أبيهم معه ، فازدادت قسوته عليها كنوع من الانتقام منها لحبها لمحمد الجاويش الذي أصبحت تجاهر به ، وبالرغم من علمها بأنه طلقها طلاقا بائنا ، إلا أنها كانت لا تفتأ تكدر عليه حياته ، وكان المسكين يحدد لها الموعد تلو الموعد لتترك له قصره هي وأولاد محمد الجاويش عدوه اللدود ، مع استعداده للصرف عليهم أينما كانوا ، ثم يسارع بالهرب إلى أرضه في الكفر ، وهو يتصور أنه بمعاملته القاسية لها ، ستترك له القصر ، لكنه يجدها ودائما في حالة سكر بين ، فيتجاهلها وكأنها غير موجودة ، ثم بدأت في محاولات استرضائه ، وتتوسل إليه بأنها ليس لها سواه ، رجته كثيرا أن يعيدها إلى عصمته ، لكنه كان كمن أسعده الخلاص منها ، فأقسمت عليه أن يبقي هذا الطلاق سراً لا يعرفه أحد ، وسوف تكفيه شر مضايقاتها ، لكن الطبع غلّاب ، ولم تنتهي مشاحناتها ومضايقاتها له ، ولم يكن أمامه إلا تهديدها بإعلان خبر الطلاق ، وهذا ما جعلها تفكر في الإسراع بالخلاص منه ، فلا أفضل من الموتى كتماناً للسر .

فكرت في انتزاع ثروته ، وأخذت تخطط يساعدها في ذلك لبيب ببعض ما تعلمه من قوانين في كلية الحقوق الذي كان لا يزال طالبا فيها ، وظن أنه العبقري الذي يستطيع أن يقلب الباطل حقا ، ولا يمكن للجن الأزرق أن يكتشف ذلك التلاعب ، فدبرا جريمة قتله ، وقاما بتزوير عقود البيع وتسجيلها ببصمته قبل دفنه ، بعد أن سارعت بطرد شوق وابنها من الكفر ، ووضعت حراسة تمنعها من العودة إليه مرة أخرى ، وهددتها بكل الويلات حتى لا تفكر في أي عمل من شأنه نزع الثروة من عبد المنعم ، وأعطت كل من ساعدها في هذه الجرائم بعضا من ثروة الباشا ، وقامت باستخراج إعلام وراثة باسمها باعتبارها الزوجة الوحيدة للباشا ، وباسم عبد المنعم باعتباره ابنه الوحيد ، وشهد بذلك أخوة عبد المنعم والمتر لبيب قبل أن يصبح مترا ، واستولت

على الأموال النقدية التي كانت بالبنوك ، ووزعتها على من شاركوها في الجرائم التي ارتكبتها ، كما سجلت لجميل أفندي كاتب السجل خمسة فدادين عطية من الست شوق التي انتحلت شخصيتها أمامه ، حتى لا يدقق في عمله ويكتشف التلاعب ، وتم تسجيل عقده ببصمة الباشا أيضا ، وهذا ما جعله لا يهتم بتحر الدقة في التحقق من أن الباشا هو الذي بصم على العقود ، إذ لماذا يبصم وهو الجنرال الذي يجيد التوقيع ؟ ولم يدقق إن كان على قيد الحياة لحظتها ، ولم يهتم بنبش الموضوع بعد أن علم بموته ، بل حمد الله أن موته حدث بعد أن وضع يده على الفدادين الخمسة .

قاموا بنقله إلى القاهرة حتى يتم تشييعه في جنازة رسمية ، وتعمدوا أن لا ينتشر خبر وفاته في الكفر إلا بعد مدة من الزمن ، حتى لا يتسرب شك إلى أي ممن في الكفر في صحة عقود البيع .

لكن الوضع الآن مختلف ، فإذا أصروا على أن عبد المنعم سلحدار وليس جاويشاً ، وأنكروا وجود أحد باسم عبد المنعم الجاويش هذا ، فقد يتم تضييق الخناق عليهم ، خاصة في وجود مستند مهم كشهادة ميلاد عبد المنعم الجاويش ، فهذه الشهادة تثبت وجود إنسان بهذا الاسم ، وأن تطابق أسماء الوالدين يثبت أنه أخٌ لخالد وفريال ، ومن غير المعقول أن لا يعلما مكانه ، فإذا لم يستطيعوا تحديد مكان إنسان بهذا الاسم ، أو ما يفيد وفاته وفاة طبيعية ، فقد تثبت في حقهم جريمة القتل ، وقد لا يفلتون من العقاب ، والعقاب هنا ليس أقل من الإعدام ، إضافة إلى الفضيحة الكبيرة التي ستصيب عائلة الجاويش ، أن اخوة يقتلون أخاهم ، وكان لابد للمتر لبيب من الحضور ، فهو ألعبان وخطير في مثل هذه الأمور ، فطمأنهم عبد المنعم بأن البوليس أرسل في طلبه ، وربما هم في الطريق به الآن ، وما هي إلا دقائق حتى هل بصلعته البهية ، لكن يديه لم تكن تحمل حقيبة ، وإنما مكبلة بالقيود أيضا ، وتهمته كانت أشنع ، فقد كانت قتل الباشا بالتآمر مع آخرين ، ومن هم الآخرين ، إنهم أيضا عبد المنعم وخالد وفريال ، وأضيفت إلى قائمة الاتهام ، سالفة الذكر حيزبون الحاشية الملكية المرحومة جلنار الأرناؤطي ، وكأنما هي ليست مسئولة عن تحويل نسب عبد المنعم الجاويش إلى عبد المنعم السلحدار .

قال كريم في سره "جبتك يا متر لبيب تعيني ، لقيتك محتاس" وبدأ يعيد حساباته ، ماذا أوقعه في هذه العصابة ، إنهم ليسوا عائلة ، ما هكذا تكون العائلات ، تآمر وقتل ، وبالجملة ، نظر إلى زوجته بشيء من الغيظ ، كان يتحملها رغم عقمها لما لديها من مال ، فإذا ضاع المال ، ظهرت

كل العيوب والأخطاء ، وأخطاؤهم ليست أخطاء ، ولكنها جرائم ، لقد تزوج من سفاحة ، تقتل بدم بارد ، فماذا سيكون مصيره معها ، لابد وأنه ملاق حتفه على يديها ، فقال موجها الكـــــلام للجميع :

• " أنا رجل لي مركزي ، وتهم بهذه الجسامة ، خاصة مع ما حدث في الكفر ، وثبـــوت الغـــش والتزوير ، وأمور كثيرة ، أوقعتني في مشاكل مع رجال الأمـــن بالمحافظـــة وبـــالكفر ، والآن زوجتي متهمة بالتآمر والقتل ، لا وألف لا ، أنا ليس لي في هذه الأمور ، حـــتى مـــن كنتـــم تنتظرونه لينقذكم ، طلع هوه كمان من عصابتكم ، أنتم لا ينفعكم إلا واحد زيكم ، أما أنـــا فالسلام على من اتبع الهدى ، ورقتك ستصل باكر الصبح إنشاء الله ، وليه الصبح .. أنـــت طالق بالثلاثة ، وعلى الأربعة مذاهب ، وبكل ملة ودين ، أعوذ بالله ، دأنا كنت وسط عصابة ولا أدري .."

لعنوه بصوت مسموع .. فقال :

• " قل لهم يا حضرة الضابط دى تبقى إيه ، مش سب علني .. لكن أنا حأسامحكم .. أخلص بس بجلدي .. والحمد لله إن لا في أولاد ولا يحزنون ، زى ما يكون ربنا ســـبحانه وتعـــالى قطـــع خلفتكم ، حتى لا تبلون الأجيال القادمة بألاعيب أولادكم وجرائم أحفادكم ، أمـــال يعـــني حتخلفوا إيه غير قتالين قتله ومزورين ، إذا كنتم عملتم كل ده وانتم لسه بتقولوا يا هـــادي ، طب فريال وقلنا إن الجواز كان بعد ما عنست ، خالد بقى .. ما هو عيبه حتى لا يخلف ؟.."

فقال عبد المنعم بصوت عال :

• " ربنا يخلي لنا علاء .."

فقال كريم وهو يلوح لهم بما يفيد قرفه منهم :

• "بعد كل اللي عمله وهو لسة ما طلعش من البيضة .. مش متهيألي .."

فرد عليه عبد المنعم بدعوة تقصف العمر ، لكنه لم يهتم ، وخرج مذعورا ، كمن مسه الجن ، أو لعله رجع له عقله الذي صور له سابقا هذا النسب على أنه هدية من السماء ، وتذكر قصة زواجه من فريال ، فقد كان ذاهبا إلى المدرسة التي تعمل فيها لمعاينة الإصلاحات والترميم الذي طلبتـــه الناظرة ، وكلفتها الناظرة بأن ترافقه أثناء المعاينة ، كانت قد تعدت السن التي تعتبر المرأة بعـــده

عانسا ، وكان هو قد فاته القطار لأنه انشغل بالدراسة عن الزواج ، فقد كان يكافح للحصول على شهادة علمية أو زمالة لجمعية عالمية ، ولما لم يفلح في هذا ولا ذاك ، ووجد فريال من عائلة غنية ، ظن أن الزواج منها سيرفعه ، أخ في السلك الدبلوماسي ، والآخر من الأعيان ، وهي عندها كام فدان على كام جنيه في البنك ، يعني زواجة سقع ، فتزوجها ، وعاشا في نعيم تبين له أنه بني على جثث وعقود مزورة ، وتلاعب في الأنساب ، والعجيب أنه كان يقف إلى جانبهم استنادا إلى مركزه في المحافظة ، لكنه بعد أن تبين له أن هذه العلاقة قد تأخذه معهم إلى ما هم ذاهبون إليه ، أقلها سجن مؤبد إن لم يكن إعدام ، فإن الأمر يحتاج إلى إعادة دراسة ، ويا روح ما بعدك روح .

اهتم المتر سعد الله بضرورة الحصول على دليل مادي ، أو شهود عدول ، لكي يدعم الاتهام ويحكم قبضة العدالة على المجرمين ، فكلفت شوق خلفا بذلك ، ومادامت الجريمة تمت باستخدام السم ، فمن البديهي أن يكون قد تم شراؤه من صيدلية ، وربما تكون الصيدلية قريبة من فيلا الباشا ، هذا إذا خدمه الحظ ، وإلا ..فإن الأمر قد يكون صعبا ، فبدأ خلف من هذه الدائرة ، المنطقة التي بها فيلا الباشا ، تلك الفيلا التي يسكنها عبد المنعم حاليا ، وأخذ يسأل إلى أن دلوه على أقدم صيدلي موجود في المنطقة ومسن جدا ، كانت صيدليته بعقار قديم قريب من الفيلا ، وعندما تقرر هدمه ، نقلها إلى عقار جديد قريب أيضا من الفيلا ، وتقدم منه خلف باعتباره رجل مباحث ، وسأله إن كان يتذكر أية أحداث غير عادية جرت خلال تلك الحقبة من الزمان ، ولإنعاش ذاكرته ، جعله يحاول تذكر بيعه لدواء يحتوي على نسبة عالية من السموم في أواخر الأربعينات ، وألح في محاولة لتحفيزه على التذكر ، وألمح له أن هذا الدواء كان سببا في موت محمد السلحدار باشا ، ثم حاول أن يصف له لبيبا ، لكن الرجل لم يكن في حاجة لأن يتذكر ، فالواقعة ماثلة أمامه كل يوم تقريبا ، فقال له :

- " تقصد لبيب كاتب عزبة الباشا اللي بقى محامي بعد كده ، لا .. ده طول عمره واعي ، هو أرسل الولد عبده الخادم الخاص بتاع سعادته ، ولما جاني عبده ، أفهمته إن هذا الدواء ممكن يقتل ، وإذا أصيب به أحد ، فقد يتهموه بقتله ، قلت له ذلك ممازحا ، ولما وجدته وقد أخذ منه الذعر ، نصحته بأن لا يفرط في الورقة التي كتب لبيب عليها اسم الدواء بخط يده ، والعجيب أنه بعد موت الباشا ، لم يخطر على بالي أنه ربما يكون قد مات بهذا السم ، فقد

أحضروه من العزبة ميتا ، يعني الوفاة حدثت في العزبة ، لكنني كنت دائما ما أتفاكه مع عبده وحتى أيام قليلة مضت أسأله عن الورقة ، حيث أصبحت اللغة التي نتفاكه بها فيما بيننا ، ومن يدري لعله ما زال محتفظا بها حتى الآن ، فتكون دليل براءته .."

وشعر خلف وكأنما وقعت يده على كنز ، وصاح بلا شعور :

- " يعني عبده موجود .. وعايش .."

ورد عليه الصيدلي ، وهو يشير إلى إحدى العمارات القريبة :

- " إنه بواب هذه العمارة ، وكل الناس تعرفه جيدا ، لأنه أقدم بواب في المنطقة .."

رآه جالسا أمام بوابة العمارة ، تماما كما كانت هي طريقة بوابين زمان ، رجل مسن حوله أحفاده ، أما أولاده ، فمن دواعي فخره أنهم جميعهم قد تخرجوا من الجامعة ، وجميعهم يسكنون نفس العمارة ، ولا يشعرون بعار أن والدهم بوابا لها ، وقد ألف الجيران في العمارة وفي الشارع ذلك ، ولم ينقص تعاملهم مع عم عبده ولا أولاده من قدرهم شئ ، وجميع أولاده وبناته يقبلون يد والدهم وهم ذاهبون إلى عملهم صباحا ، لكنهم رفضوا إلا أن يتناول طعامه معهم ، ورفضوا له أن يبيت في الغرفة المخصصة له أسفل السلم ، فتركها لمن يعاونوه ، وخصصت له غرفة في شقة كل من أولاده تقريبا ، في أي منها يرغب النوم ، يجدها تحت أمره ، وكانوا دائما يفتخرون به ، رجل يعمل بوابا ، ويصر على أن يعلم أبناءه حتى الجامعة ، أيام أن كانت المدارس والجامعة بمصاريف ، وكان أهل المنطقة يتكاتفون معه ، فناظر المدرسة يخفض له المصاريف ، بل ويدفع جزءا منها عنه ، وحذا حذوه كثير من المدرسين ، منهم من كان يدرس لأبنائه وبناته مجانا ، ومنهم من يشتري لهم الكتب الخارجية على نفقته ، ومنهم من يعطيهم ملابسه وملابس أولاده ، وهكذا ، أما عن مذاكرتهم ، فقد كانت في الشارع ، تحت أضواء مصابيحه . وربما كانت هذه هي الحسنة الوحيدة التي استفادها عبده من لبيب ، فقد كان لبيب خادما عند الباشا ، والباشا هو الذي شجعه على الدراسة ، فثابر وصبر حتى أصبح محاميا له صيته ، ويملك عمارة وعدد من الأفدنه ، وكان عبده يحكي لأولاده قصة كفاح لبيب ، الذي بدأ خادما ، وأصبح مليونيرا ، لديه أموال وعمارة ومكتب ، وكل هذا من العلم ، كان يقول ذلك لهم حتى يحفزهم على الدراسة والاستيعاب ، وكان دائما ما يجاهر بأنه لن يألوا جهدا في سبيل توفير سبل الحياة لهم للدراسة ، حتى ولو باع نفسه ، وقد حملها أولاده له حتى تلك اللحظة ، وما بعدها أيضا .

تقدم منه خلف باعتباره من رجال المباحث ، وما أن سأله عن الموضوع ، حتى تطـوع الرجـل بسرد كل الوقائع ، فقد حمل هذا الحمل الثقيل الذي ظل جاثما على صدره ردحا طويلا من الزمن ، وقد شاء الله أن يخرجه ويرتاح ، حتى لكأن المفاكهة التي كان يفاكهه بها الصيدلي الدكتور أمين ، كانت ترعبه خوفا من أن يكون لبيب قد استخدم السم في القتل فعلا ، ذلك أنه طلب منـه أن لا يحضر إلى القصر مباشرة ، وبالرغم من أن الدكتور أمين وكذلك عبده لم يكونا يعرفان أن السـم الذي اشتراه منه ، هو الذي استعمل في قتل الباشا ، إلا أنه كان على يقين من أن لبيبا اسـتعمل السم في القتل ، فما كان ليرسله لشرائه دون ما سبب ، لذلك كانت قفشات الصيدلي التي ما فتئ يرددها عليه باعتباره مازال من أهل الصعيد الذين يصدقون كل شئ ، تصيبه في مقتـل ، وظـل مثابرا بإتباع نصيحته له بالاحتفاظ بالورقة التي كتب لبيب عليها اسم الدواء بخط يده ، فقد ترسخ لدية الإعتقاد من أن نجاته من حبل المشنقة لن يكون إلا بإظهارها عند اللزوم ، خاصة وأن لبيبـا مازال على قيد الحياة .

لكن عبده بعد أن كبر ، وزاد إدراكه ، عن له أن يتذكر أحداث تلك الأيام ، وكأنما الأحداث لم تزل ماثلة أمام ناظريه ، فقد شغله كثيرا أن يرى ، عبد المنعم وهو يتلفت شمالا ويمينا قبـل أن يضع بعضا من الدواء في كأس الباشا ثم يضع الثلج عليه ، وكان الدواء أبيضا مثل الثلـج ، ولأن الباشا لم يكن يتصور أن تكيد له جلنار لدرجة القتل ، فلم يلاحظ شيئا ، خاصة وأنه كان قد انتهى لتوه من مشادة عنيفة افتعلتها من كان عبده يظنها زوجته حتى تلـك اللحظـة ، وكعادتـه في مشاحناته معها يفرغ غضبه في الخمر ، يصب من الزجاجة ويشرب بلا وعى حتى يسقط ، وقـد ظن عبده أنه في هذه المرة سقط نتيجة إفراطه في الشراب ، ولم يخطر على باله أنه سقط من تـأثره بالسم ، فهي ليست المرة الأولى التي يراه فيها في هذه الحالة ، فقد كانت لحظاته في هذه الفيـلا دائما نزاع وسباب وضرب وشرب وإغماء .

لكن بقدر ما آلمه مصرع الباشا ، وبعد أن أعلمه خلف بأن الدواء الذي اشتراه ، كان السـبب المباشر في مقتله ، بقدر ما وجدها فرصة لكي يشكر الدكتور أمين على نصيحته الغالية وقفشـاته التي لم تنته كلما رآه ، والتي جعلته يحتفظ بالورقة حتى تلك اللحظة ، وكانت مصادفة أكثر مـن الغرابة نفسها ، أن مر عليه عبده ومعه خلف ، ليثبت له أن نصيحته التي نفذها ، ستنقذه فعلا من

حبل المشنقة ، وعندما استفسر الصيدلي عن الموضوع ، أمهله خلف بضعة أيام ريثما تنشر الجرائد التفاصيل .

سارع خلف بتصوير قصاصة الورق التي كانت من حسن الحظ قد كتبت بالحبر الشيني ، فقد كان هو الحبر الشائع الاستعمال في تلك الفترة ، وحرص عبده على الاحتفاظ بها بعيدا عن أن تبلى أو تتمزق ، وطلب خلف من عم عبده أن لا يخبر أحدا بالموضوع ، وسوف يدرج اسمه في القضية باعتباره شاهدا ، وفي الصباح ، تم استدعاء عبده ، الذي قص كل شئ للنيابة :

• " وكان من بين ما كلفني به لبيب بيه ، شراء دواء من الصيدلية ،كان عمري لا يتعدى في تلك الأيام عشر سنوات ،كما أن لبيب بيه أوصاني أن لا أحضر إلى القصر مباشرة ، لا أدري لماذا ، لكن الصيدلي ، أفهمني أنه لو لم يكن يعرفني ، لأرسل خلفي من يتبعني ، ثم يبلغ الشرطة ، لأنهم كانوا يتصرفون بهذه الطريقة مع من يشتري دواء فيه سموم بدون وصفة طبية يحتفظون بها لديهم ، ذلك أن لبيب بيه كتب اسم الدواء بخط يده على ورقة صغيرة ، وحذرني الصيدلي من أنه من الممكن أن يتهموني في حالة حدوث وفاة نتيجة هذا الدواء ، ونصحني بأن أحتفظ بالورقة حتى إذا حدث أي شئ ، أصبح أنا في السليم . "

واستخدم لبيب كل مفاهيم القانون وسككه ليفلت من هذه التهم ، أقر بعلمه ، وما كان يملك أن يفعل شيئا ، إنها أوامر من فوق ، السلطة التي كانت تحكم أيامها ، من يستطيع أن يخالف الملك ، أو من يتبعونه من أقارب أو حاشية ، أو حتى موظفين ، لكن سوء حظه وضعه أمام عبده ، فواجهه وكيل النيابة به ، وأنكر لبيب أنه يعرف عبده ، كما أنكر واقعة الورقة وشراء الدواء ، ظن أن الإنكار هو خير وسيلة للهروب من المسئولية ، لكن بمضاهاة الخط ، أقر خبير الخطوط أنه يخص لبيب ، كما أن عبده تعرف على لبيب من بين باقي المتهمين الذين عرضوهم عليه ، وبرر ذلك ، بأن لبيبا بعد وفاة الباشا ، استأجر شقة لسكنه في نفس المنطقة واستخدمها مكتبا كذلك ، ولما كبر عبده ، علم أن لبيبا يمتلك العمارة التي يسكن فيها ، وتملكه العجب ، هل الدراسة بالجامعة تأتي بكل هذه الأموال ، فقالوا إنه محامي ، لذلك كانت أوامره لأولاده أن يتخرجوا جميعا محامون ، وأصبح لبيب شغل عبده الشاغل ، فثابر على مراقبته من بعيد لبعيد ، حتى لا يشعره بوجوده ، كما أن لبيبا لم يكن ليهتم بأن ينظر إلى خادم يسير في الشارع العام ، فقد

أصبح من الأعيان ، أموال وعقارات ، ومكتب محاماة ، لقد تعرف عبده عليه بسهولة ، ثم زاد بأنه مستعد أن يدل النيابة على محل سكنه .

وما كان أمام لبيب إلا الاعتراف الكامل ، فقص على النيابة تفاصيل الجريمة ، وجميع العناصر التي شاركت فيها ، ودوره بالكامل بما فيه استئجار بلطجية لطرد الزوجة الثانية للباشا وابنها إسماعيل من الكفر ، لكنه أرجع كل ذلك إلى الأوامر التي كانت تصدر إليه من جلنار هانم ، في حضور عبد المنعم وخالد وفريال ، وطلب اعتباره شاهد ملك ، لكن النيابة وجهت إليه تهم التآمر وشراء عقار به نسبة سمية كبيرة ، وهو يعرف مسبقا فيم سيتم استخدامه ، ولذلك اعتبرته النيابة شريكا فعليا في قتل الباشا ، بالإضافة إلى تهم التآمر على انتزاع أموال الغير بالقوة ، والاشتراك في قتل عبد المنعم الجاويش .. وجرائم أخرى ترتبت على كل ما سبق .

وسأل وكيل النيابة عبده :

• " ألم تعلم أن الباشا مات مسموما ..؟"

وقال عبده ببساطة صبي في العاشرة من عمره :

• " لقد رأيتهم وهم يخرجون الباشا من الفيلا ، ويركبونه السيارة ، وكان في حالة ظننتها سكرا ، فهو كثيرا ما كان يشرب حتى يسكر ، ولم يخطر ببالي أن ما يعانيه كان نتيجة تعاطيه الدواء ، فمن غير المعقول أن عبد المنعم بك ابنه سيضع له السم في كأس الخمر ليقتله ، ظننته دواء .."

أصبح من المؤكد اشتراكهم جميعا في جريمة قتل السلحدار باشا ، وقدر خالد بما درسه من قانون ، أن هذه الجريمة قد يحكم عليهما فيها بالسجن المؤبد ، فاتفق وفريال على أن المبالغ التي ستدفع للمحامين ، هم أولى بها ، لكن ميشو الزوجة المحبة لزوجها ، قامت بتوكيل محامي عنه .

وبدأت الاستجوابات بشأن الاستيلاء على أموال الغير باستخدام الغش والتحايل والتزوير ، استنادا إلى الوقائع التي سجلت بمحاضر شرطة كفر السلحدار ، التي تثبت أن البيع تم بالحصول على بصمة الباشا بعد وفاته ، بناء على تقرير الطبيب الشرعي الذي أثبت أن الوفاة تمت قبل الدفن بثلاثة أيام ، وبحسابها يتبين أن تسجيل العقود تم يوم الجمعة ، وأشار المحامي على عبد المنعم ، بأن يركز على سنه الذي لم يكن قد تعدى السن القانونية في ذلك الوقت ، ويدفع بعدم مسئوليته عما حاول الغير أن يكتسبه له باستخدام وسائل غير مشروعة ، خاصة وأنه لم يوقع على أية

مستندات ، وإثباتا لحسن النية ، فإنه على استعداد للتنازل عن كل ما اكتسبه نتيجـــة لذلـــك ، وسارع بتوقيه التنازل عن جميع ما اكتسبه من أراض أو عقارات أو قصور لورثة الباشا الشرعيين ، أما أخته وأخيه ، فقد كانا بالغين عندما حدثت هذه الوقائع ، وقاما بالتوقيع على العقود ، فوجهت لهما تهمة الاستيلاء على أموال الغير بوسائل غير مشروعة وتمت إدانتهما ، وتم انتزاع الممتلكـــات منهما ، وأعيدت إلى الورثة الشرعيين ، وتم مصادرة الأموال التي يمتلكوها بالبنوك ، وفاء لما قاموا بالاستيلاء عليه من أموال الباشا النقدية ، وثمنا للأسهم والسندات التي كان يمتلكها ، كما طالبهم المحامي سعد الله بإيرادات وريع الأراضي والعقارات منذ استيلائهم عليها وحتى تاريخ التســـليم . وكذلك كان الأمر بالنسبة للبيب المحامي ، حيث صودرت العمارة والأراضـــي لصـــالح الورثـــة الشرعيين ، استردادا للأموال التي خصته نصيبا لاشتراكه في هذه الجرائم .

وما أن انتهت النيابة من إحالة المستندات التي تثبت تواطؤ المجموعة في قتل الباشا حتى بـــــدأت التحقيق في تهمة اختفاء عبد المنعم الجاويش ، فإذا لم يثبتوا وجوده وإحضاره ، تصبح التهمة جريمة قتل ، خاصة وأن المستندات تثبت أنه أخو خالد وفريال ، و نصح المحامي عبد المنعم أن يعترف بأنه هو عبد المنعم الجاويش ، وأن لبيب هو الذي قام باستخراج شهادة ميلاد أخرى له من الكفر باسم عبد المنعم السلحدار ، خاصة وأنه لم ينكر منذ البداية بأن خالدا أخوه ، وفريالا أخته ، وبمــــا أن هذه الأمور حدثت وهو صغير ، فربما تمكن من تخفيف العقوبات عنه .

وحاول المحامي تخفيف الحكم عليه ، وذلك باعتبار أنه كان يطيع أوامر قريبته جلنار هـــانم ، ولم يكن قد بلغ بعد السن التي يحاسبه عليها القانون ، مع الأخذ في الاعتبار أنه قام بالتوقيع متنازلا عن كل ما قامت قريبته بتحويله باسمه من أملاك وأموال الباشـــا ، وبذلـــك تم رد كـــل الأراضـــي والعقارات والقصور إلى الورثة الشرعين لمحمد باشا السلحدار ، ولأنه تعاون مع النيابة ، حتى على حساب أخيه وأخته اللذان يكبرانه بأعوام ، ولأن الجرائم مر عليها الفترة القانونية لإسقاط التهم ، فقد تضمنت مذكرات الدفاع الطلب بأن تصدر عليه أحكاما مخففة ، لكن المفاجأة أن القـــاضي حكم عليه بالإعدام ، وتقدم المحامي بصحيفة الاستئناف مستنكرا أن يحكم على حدث بـــالإعدام ، لكن الاستئناف قبل شكلا لتقديمه في الموعد ، أما في الموضوع فقد رفـــض ، لأن عبـــد المنعـــم السلحدار كان حدثا عندما ارتكبت الجرائم ، لكن عبد المنعم الجاويش كان كامل الأهلية ، وهذا

ما لم يكن المحامي أو عبد المنعم قد وضعاه في الاعتبار في دراستهم للأمور ، وحتى لو كانوا تداركوا ذلك ، فما كان ليغير من النتيجة .

أما خالد وفريال ، فقد أدينا بالتآمر وعدم إبلاغ السلطات عن جريمة قتل حضرا وقائعـــها ، ولم يحاولا منعها ، أو محاولة إنقاذ القتيل ، ولم تشفع لهما المدة المسقطة للأحكام ، ذلـــك أن المـــدة المسقطة للأحكام لا تسري إلا اعتبارا من تاريخ الإبلاغ عن الجريمة ، وشمل الحكم رد جميـــع مـــا خص كل منهم من أملاك وأموال الباشا مع عوائدها وريع الأراضي منذ ذلك التاريخ وحتى تاريخ الرد ، يعني ببساطة خراب بيوت ، هذا بخلاف أحكام السجن التي وصلت إلى المؤبد .

وأما لبيب المحامي ، فقد كانت تهمته التآمر والقتل العمد مع سبق الإصرار والترصد ، وحكـــم عليه بالإعدام ، بالاضافة إلى أحكام أخرى عما اقترفه من أعمال تحايل وتزوير وخلافه .

وأصرت شوق على شطب اسمه من سجل المحامين قبل تنفيذ حكم الإعدام عليه ، حتى يشـــعر بالخزي والعار ، قبل وبعد موته ، والعجيب أن المحامي سعد الله ، عندما أرسل طلبا إلى النقابـــة ، مرفقا به نسخا عن الأحكام ، وجد أن مجلس إدارة النقابة قرر شطب اسمه ، لأن مهنة المحاماة مـــن المهن القانونية التي يجب أن يتصف العاملين بها بصفات كثيرة أهمها النزاهة والطهر وحسن الســـيرة والسلوك القويم ، وقد كان ما اقترفه لبيب جرائم تقشعر منها الأبدان ، فلم يكـــن أمامـــهم إلا شطب اسمه ، حتى يكون عبرة لكل من تسول له نفسه أن يحيد عن الحق ، فضلا عن السير مـــع الباطل والضلال .

كل ذلك بفضل الورقة التي احتفظ بها عبده بناء على نصيحة أطلقها الصيدلي أمين ، على سـبيل التريقة والمفاكهة ، وقد اعتبرته المحكمة شاهدا ، وإلا لناله أحكاما قد تصل إلى حبل المشنقة .

شغلت ميشو بقضية زوجها ، وتركت علاء في رعاية الخادمة ، التي لم تكن في مثل دراية الأم ولا خبرها ولا رعايتها ، فحدث إهمال في انتظام تعاطيه للعلاج ، وتدهورت حالته ، والحاج محمد لا يريد أن يتدخل في قضايا قتل وسلب ، وقد تأكد له أن عبد المنعم وأخاه وأخته لم يحضروا في ذلك اليوم إلا بعد أن شعروا بأنهم بسبيلهم إلى أن يعاقبوا على جرائمهم التي غنموا منها كل ثروتهم ، وأن الأحكام قد تكون الإعدام أو السجن المؤبد ، فضلا عن انتزاع كل ممتلكاتهم وأموالهم لترد إلى أصحابها الحقيقيين ، تلك السيدة التي كان يعتني بها ويعينها في أرضه هي وابنها ، لكنه أمام حالة علاء المتدهورة جدا ، والظروف المالية التي تعاني منها عائلته بعد أن أصبحت تحت خط الفقر بكثير ، وإلحاح مدام ميشو وابنته منى ، لم يجد بداً من أن يشمله بالرعاية ، فعهد به إلى الدكتور طه والدكتورة سعاد ، وأطباء المستشفى ، واهتمام منى ، لكن المسكين علم بإعدام والده ، وتأثر بذلك كثيرا ، فتضاعفت آلامه ، ومات .

لم تتحرك مشاعر شوق لوفاة علاء ، إلا بقدر الأسف على شبابه الذي أهدره في المفاسد ، فقد كانت تعتبر أن ما حدث لهذه العائلة ، هو القضاء العادل من الله سبحانه وتعالى ، ولم تفكر في تأجيل التنفيذ الجبري للأحكام إلى ما بعد انتهاء فترة الحداد التي فرضت على ميشو ، ذلك أنها تستحق عقاباً من نوع خاص جداً ، فقد رفعت شعار الأخلاق الكريمة ، وانضمت لعضوية جمعية تحمل ذلك الاسم ، لكنه ربما كان ستاراً تخفي خلفه رذائل الجشع والتعالي على خلق الله ، وكلما تذكرت ما فعله ابنها مع منى ابنة الحاج محمد ، وعلمها بمقتل خضرة نتيجة اغتصاب علاء لها ، وما همس به اسماعيل عما حدث لبهانة ، تجد أن اللوم كله يقع على كاهل هذه الأم المتسيبة التي لم تراع ضميرها في تنشئة ابنها النشأة القويمة ، المبنية على قواعد الشريعة الإسلامية السمحاء ، فالأم مدرسة إن أنت أعددتها ، أعددت شعباً طيب الأعراق ، لذلك تركت الأمر للمحامي سعد الله وتلميذه خلف ليتابعوا تنفيذ الأحكام التي صدرت لصالحها وابنها ، دون أي تدخل منها للتأجيل ، وذهب المحامي ليخرج ميشو من القصر مصطحبا معه رجال الشرطة ، وتصور المحامي أن شوق قد ترغب في الذهاب معهم ربما للتشفي ، لكنها اعتذرت ، فبالرغم من كل ما فعلوه بها ، فإن الأمر يمس انسانة ، ولن يكون إخراجها من آخر ما تبقى لها من عز بالأمر الهين ، بغض النظر عن أن ذلك كان على حساب شقاء الآخرين ، وأشلاء قتلى ،

الباشا الذي شارك زوجها في قتله ، وخضره التي تسببت في قتلها بتسيبها في تربية ابنها ، وبهانة المسكينة التي كان من الممكن أن تقتل ، لو لم يكن أبوها حافظاً لكتاب الله .

لقد تعجب المحامي وكوكبة الشرطة اللذين كانوا معه ، من أن ميشو خرجت من فيلا الباشا ، بهدوء وبدون أية مشاكل ، حاولت حمل حقيبة ملابسها التي وضعت فيها جميع صور زوجها وابنها بنفسها ، فقد هجرها جميع الخدم دون انتظار لأجورهم أو مستحقاقم ، بعد أن قرأوا في الجرائد أحكام تجريدهم من جميع أموالهم ، فقط قدموا التعازي للهانم وانصرفوا ، ولولا شهامة خلف في رفع تلك الحقيبة عنها لما استطاعت الوصول إلى السيارة الأجرة التي أحضرها لها ، ولو علم خلف أنها تسببت بتسيبها في اغتصاب ابنها لخطيبته بهانه ، لما كانت هذه مبادرته ، ولتعامل معها بأساليب أخرى ربما ينسى فيها القانون ، ويسيطر عليه شيطان الشر فينسيه ذكر الله ، ويؤدي إلى بعده عن شريعة الله ، وربما شمل انتقامه تلك المسكينة التي قام علاء باغتصابها دون ذنب منها .

وعاد اسماعيل من فرنسا ليجد أن جميع أملاك الباشا قد تم انتزاعها من مغتصبيها ، وسجلت بأسماء الورثة الشرعيين ، هو ووالدته ، ومنى ابنة الحاج محمد ، حيث أصرت شوق على عدم المساس بحقها في مهرها لزواجها من المدعو علاء .

أَطلع إسماعيل والدته على عقود استيراد درنات البطاطس التي قام بعقدها قبل عودته من فرنسا ، وتم عمل الترتيبات اللازمة للاستلام ، وقام المزارعون بزراعتها في كل أراضي الباشا وأراضي والدته وكذلك أراضي الحاج محمد وعائلة الصقر ، ومنَّ الله عليهم ، فأعطت محصولا وفيرا أسعده وأسعد والدته وأهالي كفر السلحدار ، وكان نصيب الحاج محمد من البطاطس التي زرعها في أراضيه وأراضي العائلة من الكبر بالقدر الذي أعاد إليه طموحاته في إسعاد الآخرين ورفع المعاناة عن المعوزين .

لم يبقَ لمدام ميشو إلا أن تتمسك بحفيدها من منى ، وبات كل همها أن يخرج إلى النور ، فتطفئ بذلك حرقة قلبها على وفاة ابنها وإعدام زوجها ، والحاج محمد لا يستطيع أن يحرم سيدة ثكلى من الأمل الذي تتعلق به ، لكن مع انفعال منى بوفاة علاء ، وحزنها الذي كان بلا حدود ، ثم اهتمامها بالدراسة حتى يتم التخرج بالتفوق الذي إعتادته ، كل ذلك جاء بنتائج عكسية على الجنين ، وبمجرد أن انتهت الامتحانات ، سقطت في حمى لم تخرج منها إلا بفقدانها لجنينها ، وأصابت الفاجعة ميشو في عقلها ، وانتهى بها المقام إلى إحدى المصحات العقلية ، وهكذا دائما ما ينتهي

الجشع إلى الإعدام أو السجن أو الجنون ، فماذا يجني الإنسان من الجرائم ، مسكينة ، هامت على وجهها وهي تردد العبارات التي كان يقولها زوجها الراحل :

- "إن الأملاك كانت تخص محمد الجاويش ، والد زوجي ، وجد ابني ، وقد استولى عليـــها الباشا في لعبة رهان ، وما فعله عبد المنعم واخوته ، لم يكن إلا استرجاعا لأموال أبيهم .. "

لكنهم لم يلجأوا إلى القضاء ليعطيهم ما كانوا يعتقدون أنه حقهم ، وفي حياة الباشا وليس بعـــد قتله ، لكن أن يقوموا بالقتل ، والتزوير ، وسلب حقوق الغير ، وقلب الحقائق ، فـــــهذا مـــا لا يقبلـــه عقل ولا منطق ، ويتنافى مع الشرع والقانون ، لقد قاموا بارتكاب جرائـــــم لا تغتفـــر ، استحقوا ما تم تنفيذه في حقهم من أحكام قضائية .

٢٨- النصيب

أقامت عائلة الصقر احتفالا خاصا لما أنعم الله به عليهم من محصول البطاطس ، وكان إسماعيل ووالدته على رأس قائمة المدعوين ، وفوجئ الجميع بأن اسماعيل قد أحضر معه مجموعة من العطور الفرنسية لكل من بنات الحاج محمد وكذلك الدكتورة سعاد ، بل لقد زاد فأحضر هدايا لمن لاعبهم في العزبة من أبناء وبنات اخوة وأخوات الحاج ، فمعظمهم كانوا من أقرانه ، لعبوا سويا في صغرهم ، أما الحاجة جميلة ، فقد اختصها بهدايا جميلة كاسمها ، وكان لهذا التصرف وقعه الجميل في نفوس الجميع ، حتى لكأن منى خرجت عن بعض حزنها ، لتهنئ أختها منال بأن الله عوضها خيرا بهذا العريس ، مذكرة إياها بالمثل الذي يقول أن العريس الهني يبان من هداياه ، لكن منال رفضت كل الهدايا ، لم تقبل منها شيئا ، وانطوت في غرفتها تبكي ، وحاولت منى معها أن تجعلها تعطي بعض الإهتمام لخطبة إسماعيل لها ، لكنها فشلت ، فتيقن لديها أن منال لا ولن تحب غير حسام ، رغم أنه لم يقدم هدايا ولا يحزنون ، وهل قدم لها علاء هدايا ؟ نعم .. ولكنها لم تكن لأغراض نبيلة مشروعة مثلما هو اسماعيل ، وعن لها أن تعلق :

- "أهكذا كتب علينا أن من نحبهم لا يقدمون هدايا ؟ ومن لا نحبهم ، يتقربون إلينا بكل ما يستطيعون من خفة دم وهدايا ؟ "

وانزوت منى في ركن من غرفتها تذرف بعضا من الدموع حزنا على الزوج الذي مات ، والجنين الذي فقدته ، لكن شوقا داهمتها في خلوتها ، وبدأت تتقرب إليها بكل ما تملك من حنان الأمومة ، وحلاوة اللسان ، والأسلوب الفرنسي في الرقة ، حتى لكأن منى سعدت بها ، وبدأت تسمع لما تقوله ، وأثناء الحديث ، وجهت شوق نظرها إلى إسماعيل ابنها ، وقالت لها :

- " إن إسماعيل لو لف الكرة الأرضية لن يجد من هن في رقة وأخلاق وجمال بنات الحاج محمد ، وإذا كانت منال مشغولة بابن خالها ، فأعتقد أن منى لا يوجد حاليا ما يشغلها ، والزواج حياة يا ابنتي ، أما الحب ، فهو عاطفة ، فما رأيك ..؟"

كان سؤالا مباغتا ، هي لم تكن تفكر في الارتباط بعد أن فقدت علاء ، ولم يخطر على بالها أن يأتيها عرض للزواج ، وفترة الحداد بالكاد قد انتهت ، لكن شوق أظهرت من الكياسة ، ما أشعر منى بأن ما فعله علاء لم يكن حبا ، ولولا ما حدث له لما تزوجها :

• "ثم أن عائلته كلهم ، اتضح أنهم من البلطجية والمجرمين من صغرهم ، ولعلك تعلمين ما فعلوه معي ، فالزواج لم يكن متكافئا ، ولعل الله فعل ما فعل ، حتى تتبصرين لكل ما تفعلـــين ، ثم ليبتلي الله عائلتك المؤمنة ، فالمؤمن مبتلى ، وقد جاءك من يستطيع أن يعوضك عن كل المعاناة التي تعرضت لها ، وسأترك لك فرصة لتفكرين في إسماعيل ، ولعل الله يجعل له نصيبا معــك ، ولعلكما تسعدان في حياتكما ، أنا لا أطلب منك إلا أن تعطي نفسك فرصة لكـــي تعيــدي النظر في إسماعيل ابني ، ومش عايزة أزكيه بالأصل والأخلاق والدكتوراه والتفوق والحمد لله ، لأن كل ذلك أنت تعرفينه جيدا ، لكني متأكدة من أنك إذا وافقت على زواجك منــــه ، سأكون أسعد أم في الدنيا ، لك وله ، فأنت لا تعرفين مدى غلاوتكم ، ولا مقدار عـــائلتكم جميعا عندنا .."

كانت الحاجة جميلة مشغولة هي وسعاد في المطبخ ، لكنها أرسلت تطلب مـــنى لتســاعدهما ، فذهبت معها شوق ، وظلت تتحدث مع جميلة عن زواج إسماعيل من منى ، وسمعتــــهما ســـعاد ، وبطبيعتها التي تحب الخير للجميع ، قالت بصوت عال :

• " إسماعيل شاب ممتاز ، وياريت يا منى تفكري فيه بعيدا عما حدث ، وأنا متأكدة من إنك حتلاقي إن الموضوع مناسب جدا .."

وسعدت شوق بكلمات سعاد ، ثم قالت :

• " الحقيقة بعد ما مرت بنا تلك المحنة ، التي لم يقف معنا فيها سوى والدكم بعد الله ســـبحانه وتعالى ، وبعد ما تكشفت لنا الأمور من عبد المنعم وأخوه وأخته ، وجدنا أن الزواج من ناس لهم أصل طيب وأخلاق كريمة ، لا يكون إلا بمعرفتهم المعرفة التامة النافية للجهالة ، وليـــس أمامي غيركم ، فكرت في منال ، لكنها متعلقة بابن خالها ، ولا ألومها ، فالحب شئ جمـــيل حقا ، ولقد جربته أنا شخصيا ، وعشت حياتي كلها مع الباشا في قصة حب جميلة ، مـــازالت ذكرياها تعطر قلبي بالسعادة ، لكن منى بعد أن خلصها الله من الكابوس الذي كانت مقدمـــة عليه ، فأنا أدعو الله أن تكون من نصيب ابني إسماعيل .."

وفوجئت شوق بسعاد تضحك من كل قلبها ، حتى لكأن نورهان ضحكت معها ، وربما هـــي لا تعرف على ماذا تضحك ، وتعجبت شوق ، لكن الضحك عدوى ، فضحكت هي الأخرى ، وإذا

بمنى تشاركهم الضحك ، ولا أحد يعرف ما الذي يضحكها ، فقطعت سعاد من الضحك فاصلة لتقول :

• " حلوة قوي النافية للجهالة دي يا تانت شوق .."

وبعد أن كان ضحكا بالعدوى ، أصبح عاصفة مدوية من الضحك ، حتى لكأن الحاج قدم يستطلع الأمر ، وحاول أن يوقف تلك الكريزة ، لكنه لم يستطع ، فشاركهن ، وقد أسعده أن وجد منى تضحك من قلبها ، فقد خيم الحزن عليها بكآبة من التعاسة ، فأصبح البيت كله كئيبا ، خاصة وأن منال هي التي كانت تثير القفشات الجميلة دائما ، وهي الآن في حزنها على حبيبها الذي يسارع إلى الموت دون أن يفكر في الدفاع عن نفسه . وفي غمرة هذا الضحك ، اقتربت شوق من منى ، واحتضنتها بحنان الأم ، فاستجابت لها وتعلقت بها ، والتفت حولهما سعاد وجميلة ، وانطلقت زغرودة من مبروكة ، معلنة بذلك أفراح منى ، وزف الخبر إلى إسماعيل ، الذي عقدت الدهشة لسانه ، هو قادم باعتبار أن منال هي التي وقع عليها الاختيار ، فما هذا التحول ؟ لكن والدته شرحت له الأمر بكل تفاصيله ، وهو يهز رأسه ، ويحاور ، ويتساءل ، والإجابات كلها جاهزة عند والدته ، فقال لها إسماعيل :

• " ماذا يقول الناس ، أخذنا منهم كل ما سلبوه منا ، ولم نترك لهم شيئا ، حتى زوجة ابنهم ، لم يبقَ إلا أن تتزوجي ميشو يا حاجة شوق .."

وضحكت شوق وإسماعيل ، والكل ينظرون إليهما بتعجب ، لكن وسط هذه الدوامة من الضحك ، خرج إسماعيل بكلمات متقطعة ، ثم نظمها ، طالبا من الحاج الزواج من منى ، ونظر الحاج إلى منى التي أطرقت رأسها إلى الأرض ، وقد أبدت الموافقة بابتسامة صامتة خجلة ، وأسرع إسماعيل يمد يده للحاج الذي أمسكها وقرآ الفاتحة ، فتبعه الآخرون جميعا ، وبمجرد الانتهاء من الفاتحة ، إذا بإسماعيل يجالس منى ، وإذا بضحكاتهما تملأ المكان ، وإذا بحزنها يتحول كله إلى سعادة ، وإذا بالحاج يسعد لسعادتهما بكل التحفظ الذي كان يغلفه حزنه لزواجها المرفوض من علاء ، وهكذا أناس تأتي معهم السعادة حتى في أحزانهم ، وأناس تأتي معهم الأحزان حتى في أفراحهم .



الزواج يا ابنتي يبني بيتا ترفرف عليه السعادة ، أما الحب فإنه لا يأتي إلا بما تشعر به أختك من انشغال فكر وحزن

٢٩-غفران

أثناء الحديث اليومي على مائدة الإفطار ، أشاد الدكتور طه بالسيد مدحت ، الذي أوصى بـــه عمه ، فقد أظهر كفاءة منقطعة النظير ، لم يكن يتصور أن هناك مصريون بهذه الكفـــاءة بعدمـــا اختلط الحابل بالنابل ، واصبح العلم كتبا تدرس ، وكراريسا تعبأ ، ورؤسا تفرغ الإجابـــات في أوراق الامتحانات ، وتعود إلى سابق جهلها كأن لم تحصل على علم أو خلافه ، أما عن الثقافـــة ، فهي ثقافة تليفزيونات ، ومسلسلات أجنبية ، فذكره عمه أن مدحت من عهد معاصر له ، أيام أن كان العلم علما ، والمدرسة مدرسة ، والمدرس مدرس ، وليس العلم تجارة ، والمدرســـة بقالـــة ، والمدرس محصل ، لكن تصاريف الأيام ، وسياسات الوزراء والوزارات ، ولعبة الديب فات .

ولاحظ الجميع أن السيدة جميلة لم تشترك في الحديث ، بل ربما يكون قد كدرها مـــا يقـــال ، وأخذت تنظر إلى زوجها أكثر من مرة عله يتفاهم معها بلغة العيون كما تعودا دائمـــا ، ولكنـــه ولأول مرة يتجاهل نظراتها التي كانت تحمل كلاما كثيرا ، واستمر الدكتور طه في تقريظه للســـيد مدحت ، ومنال تتابع الحديث بشغف ، فمن يكون مدحت هذا الذي أوصى به والدها ، إلا خالها ، والد حبيبها ، ولاحظت أن والدها غير سعيدة بما يقال ، ولكن أباها هو دائما أباها ، لا تغـــيره الأحداث ، ولا يبخل حيث يجب أن يكون كريما ، قطع عنهم عطاياه النقدية ، ولكنه أرسلها إليهم في راتب وظيفة ، عل هذا التصرف يكون له من الأثر ما يعيد العلاقات الأسرية ، ويعيـــد إليـــها حسام .

وعرج الدكتور طه في حديثه على مشكلة ابنه الذي أصابه شلل وحمى ، وحيرة الأطباء في علاجه ، فطلب منه أن يحضره إلى المستشفى ، لعمل فحوصات وتحاليل ، وقد استدعى الدكتـــور طـــه كونسلتو من أطباء المستشفى واختصاصين من خارجها لتشخيص حالته . وما أن سمـــع الحـــاج محمد ذلك ، حتى نهض مفزوعا حتى قبل أن يكمل طعامه ، وأمر طه أن يتبعه ، وصرخ في زوجتـــه وبناته أن يلحقوا بهما مع سعاد ، وأسرع الخطى ، حتى أن الدكتور طه لم يكن ليستطيع اللحاق به ، رغم أنه رياضي لا يهمل الجري يوميا بأقل من خمسة كيلومترات رغم مشاغله ، وأسرع السائق يفتح الأبواب الخلفية ، وأمره الحاج محمد بسرعة التوجه إلى المستشفى ، وعندما اقتربت الســـيارة من بوابة المستشفى ، وأراد رجل الأمن الجديد التعرض لها ، فكشف له السائق عن هويـــة مـــن بالسيارة ، وما أن عرف رجل الأمن من يكونون ، حتى سرت همهمة في كل المستشفى بذلـــك ،

فاصطف الأطباء والممرضات والممرضين والجميع لتحيته ، واتجه من فوره مع الدكتور طه إلى غرفة حسام ، وعندما رآه حسام حاول النهوض ، لكن ضعفه أقعده ، فاحتضنه الحاج رغم الحمى التي يعاني منها ورغم تحذير الأطباء بعدم الاقتراب منه ، وانهمر حسام في البكاء مرة أخرى ، لكن بكاءه هذه المرة كان مختلفا ، فإنه بكاء امتنان ، وعرفان بجميل وشهامة هذا الرجل .

وذهب من يخبر المدير الإداري أن صاحب المستشفى يمر ، وبالقطع عليه أن يكون مع كوكبة المديرين للاستماع إلى توجيهاته وأوامره ، ونهض مدحت متثاقلا ، فقد كانت محنته في ابنه لا تقدر ، لم يكن يتصور أن حبه لأولاده بهذا القدر ، لكنه منذ أن مرض حسام ، لم يذق طعم النوم ، ولم يهنأ له عيش ، ولولا أن الدكتور طه أمر بإحضاره إلى المستشفى لما كان في مقدوره الحضور في موعده ، فقد أصاب الخلل كل شئ في حياته ، بيته وعمله وميزانيته . وصحبته سكرتيرته .. ابنته صفيه ، وما أن اقترب من غرفة ابنه حسام ، وأشاروا له على صاحب المستشفى ، حتى شاهد الحاج محمد ، بملابسه الصعيدية التي تعود ارتدائها في البيت ، وتساءل بذهول أنساه مرض ابنه ، وما يعانيه من مشاكل :

- " أ هذا هو صاحب المستشفى ؟"

وجاءه الجواب بالإيجاب ، ودارت به الأرض ، إن هذا الرجل يحاصره بأفضاله حتى في أشد حالات قسوته ، أي رجل هذا ، إنه ليس من البشر ، إنه .. ولم يشعر إلا وقد أسرع يلقي بنفسه عند قدميه ، ويحاول تقبيلهما ، لولا أن رفعه الرجل بيديه وهو يحاول احتضانه ، لكنه أبى إلا أن يقبل يده ، ولم يفلح الحاج في تخليصها منه وهو يبللها بدموعه وينتحب كما الثكلى ، ومع محاولات الحاج تهدئته ، وحضور أسرته وأسرة أخته ، وتجمع العاملين في المستشفى ، حتى نهض ونظر إلى السماء ، داعيا الله :

- " يا رب .. يا رب .. اشهد إني مدين لهذا الرجل بحياتي وحياة أسرتي كلها ، يا ناس .. اشهدوا إن أفضال وجمايل هذا الرجل في رقبتي إلى يوم الدين .. يارب اقبل توبتي ، وأستغفرك أن يسامحني .."

ثم ألقى بنفسه مرة أخرى عند قدميه طالباً مسامحته ، والحاج يرفعه مرات ومرات ، ولشعوره بأن أخطاءه لا يمكن لبشر أن يغفرها ، اتجه إلى أخته يستسمحها أن تعفو عنه وعن أسرته وهو يقبل يديها ورأسها ويحتضنها احتضان ملهوف فقد إحساسه بالزمن ، ودعاها لترى حسام ، مكررا أنه

ابنها ، وهو يبكي ويتوسل إليها أن تدعو له بالشفاء ، وحضر الدكتور طه ومعه التحاليل ، وكونسلتو أطباء للكشف على حسام ، لكن الحاج منعه من ذلك ، ونادى ابنته منال ، وأمرها أن تذهب إلى خطيبها .. ابن خالها ، فأخذها خالها إلى صدره بحب ، وصحبها إلى حبيبها ، ووضع يدها في يده ويديه فوقهما .

وجلست منال إلى جانب حسام على استحياء منها ، رأسها مطأطأ إلى الأرض ، وقلبها ينبض بسرعات تعجز كل الأجهزة عن قياسها ، وحسام الذي نسي مرضه من هذه المواقف الجياشة ، طالعها كما لو كانت حورية من الجنة أرسلها الله سبحانه وتعالى لتنقذه من الموت الذي كان يسعى إليه ، وما أن لامست يداها يديه ، حتى سرى تيار من الصحة والعافية ، وارتفع الدم يسري في عروقه ، فتوردت وجنتاه ، وما أن تركهما أبوه ، حتى وجد نفسه يجالسها كما لو لم يكن به داء ، وانحلت عقدة لسانه ، فبثها ما اختزنه من عواطف جياشة ألهبت مشاعره ، وأطارت النوم عن جفونه ، وهي تستمع ، وتردد بحياء ، أن معاناتها لفراقه ، وإحساسها بفرقة أهلها عنهم ، سببا لها تعاسة ما بعدها تعاسة ، وتسببا لها في شقاء ما بعده شقاء .

اصطحب الحاج محمد أخو زوجته وخرجا من غرفة حسام ، وتركا الخطيبين يبث كل منهما شوقه ولوعته للآخر ، ونظر إلى العاملين بالمستشفى الذين التفوا حوله ، وفتح لهم ذراعيه قائلا :

- " نحن كلنا عائلة واحدة ، مدحت بك ، أخو زوجتي ، وخال أولادي ، وصفيه بنته ، وبنتي ، والدكتور طه ، ابن أخي ، والدكتورة سعاد بنت أختي ، وكلكم أولادي واخوتي وأخواتي وبناتي .. طلباتكم ، أوامر عندي .."

ثم نظر إلى الدكتور طه وسأله عن سكرتيرته التي كانت تسأل صفيه عنه باللغة الإنجليزية ، حيث قالت لها صفية :

- " HE IS MY AUNTS HUSBAND , AMMO ALHADJ "

وأفاده الدكتور طه بأنها أمريكية ، كان لا بد من حضورها لخبرتها في افتتاح المستشفيات ، وبأعمال السكرتارية الطبية ، وأظهر الحاج بعض الامتعاض ، لكنها نظرت إليه ، فحياها ، فأقبلت نحوه مسرعة تحتضنه وهي تقول :

- " HALLOO AMMO HADJ "

واستغرق الجميع في الضحك ، ليفاجأوا بحسام يقف بينهم هو ومنال ، ويشاركهم الضحـــك ، فكانت مفاجأة أسعدت الجميع ، ونظر الدكتور طه إلى الكونسلتو وباقي العاملين في المستشـــفى وقال :

- " لقد ثبت بالتجربة المعملية أن من لا يجد له علاجا ، فالشافي هو الله ، وعمي الحاج محمـــد عبد المؤمن أفضل من أي طبيب .."

عقد الحاج محمد اجتماع عمل مع جميع العاملين في المستشفى ، وبدأ في رسم خطـوط توضـح الأعمال المطلوبة ، وتاريخ وساعة الانتهاء منها ، مع تحديد الأولويـات ، والأخـذ في الاعتبـار التداخل بين الأعمال ، وحدد أسبوعا للافتتاح ، وتساءل عن طلباتهم ، ووجدها تنحصر تقريبا في السكن ، فنظر إلى الدكتور طه ، وقال :

- " كانت الخطة بناء عمارتين للعاملين ، واحدة للمتزوجين والثانية لغير المتزوجين ، فهذا أفضل كثيرا ، لو قارنتها بتكلفة النقل ، فضلا عن جانب الاستقرار النفسي ، بس بقى ياريت كـل واحد منهم يتزوج زميلة له ، يوفر علينا كثير .."

وانفض الاجتماع ، والكل يملأ قلبه الأمل ، وفمه الابتسام ، وفاجأهم مدحت بك بدعوة الجميع على الغداء على حسابه بمناسبة شفاء حسام ابنه ، وبمناسبة رضاء الحاج عنه ، فذهب الجميـع إلى قاعة الطعام ليفاجأوا بما لذ وطاب ، وجلسوا جميعا ، عائلة واحدة ، والحاج ومدحت يمران عليهم ، يطمئنان إلى رضاهم عن الطعام ، ويضعان الطعام لهم في أطباقهم ، ويحثالهم على أكل المزيـد ، بود وحب يسبقان الكلام والأفعال .

كم كانت لزيارة الحاج هذه أثرها في نفوس الجميع ، بل لقد كان المستفيد الأول منـها هـو مدحت الأناضولي أيضا ، وكما لو كان الله يوفق الحاج دائما في أن يكون الأقربون أولى بالمعروف ، حتى لكأن زوجته التي كانت منزعجة من سماح الحاج لأخيها بالعمل في المستشفى ، وفوجئـت بالنتيجة التي لم تكن تتوقعها ، استقرت نفسها ، وعانقت أخاها مرات عديدة ، فقد انقلب حبها له نقمة عليه ، عندما أراد أن يسمم أفكار أبناءه عليهم ، وكان مدحت كالطفل الضال الذي وجـد أمه ، فقد كانت نورهان قريبة الشبه بوالدها ، وكان مدحت متعلقا بها كأم وليسـت أخـت ، وغضبه عليها كان نتيجة ما سمعه من منافسي الحاج في حب أخته ، فقد أوعزوا إلى مدحت مفاهيم العنصرية الغبية التي نهى عنها الإسلام ، لكن أين هم الآن منه ، بل أين هم الآن من الحاج ؟ وشعر

كم هو أقل وعيا وإدراكا وشفافية من أخته وأبيه ، فقد كانت بصيرهما أبعد كثيرا منه ، واعترافه بهذا ترجمه في استسماحهما ، وتقبيل رأسهما كلما مرا به أو اقترب هو منهما ، أما عن منال ، فقد احتضنها إلى قلبه ، ضاما إليها حسام ، وكأنما هو بذلك يكفر عن أخطائه ، ويدعــو الله الغفــور الرحيم أن يسامحه .

أمر الحاج ابن أخيه طه ، أن يضع في النظام الأساسي للمستشفى ، قواعد ثابتة تعطي للعاملين فيه ، كل العاملين سواء كانوا أطباء أو ممرضين وممرضات ، أو عمال نظافة ، أو إداريين وكتبـــه ، أو ماليين ، الجميع بدون استثناء ، الحق في سكن يتناسب مع الوظيفة والحالة الاجتماعية ، والعــلاج الطبي لهم ولأسرهم حتى الدرجة الرابعة ، وتعليم الأبناء ، إما عينا ، فإن لم يكن ، فبنســـبة مـــن الراتب رجاه أن لا تقل عن الربع لكل من السكن والمواصلات والعلاج الطبي والتعليم ، ذلك أن اهتمـــام صاحب العمل بالعنصر النفسي للعاملين وهيئة الجو المناسب لهم عوامل مهمة وأساسية في حسن الأداء والكفاءة ، بما يعود على صاحب العمل بالخير والربح الوفير ، ويؤكد على تمســـك الموظف أو العامل بوظيفته فيحافظ عليها .

تناسب موعد افتتاح المستشفى مع انتهاء البنات من الامتحانات ، واستعداد الجميع للزواج ، طه وسعاد ، ومنى وإسماعيل ، وحسام ومنال ، وخلف وبهانه ، فتم عمل جميع الاستعدادات الخاصة بالافتتاح أولا ، ثم الزواج بعد ذلك ، وكانت ليلة الافتتاح مهرجانا حقيقيا ، حيث حضرها جمع غفير من المسئولين والمختصين ، ورجال الصحافة والإعلام ، وأصر الحاج على دعوة جميع من تمكنهم ظروفهم من الحضور من أهل بلدته على حسابه الخاص ، وأمر بتدبير المبيت لهم جميعاً ، ليس العمدة وكبار البلدة فقط ، وانما دعوته كانت للجميع ، وكان اهتمامه بهم لا يقل عن اهتمامه بكبار الشخصيات الذين حضروا الافتتاح ، وأفهمهم أن هذه مستشفى أخيهم الحاج محمد ، من وجد به أو بأي من عائلته علة ، فالعلاج هنا لهم على نفقته الخاصة ، وجميع الأدوية والفحوصات والتحاليل والعمليات ، على نفقته ، ونظر إلى طه ليؤكد أن هذه تعليمات تنفذ ، ومدحت يسجل ، فهو المدير الإداري الذي عليه تنفيذ التعليمات ، وتعجب الحاج من أن مدحت يتسامر مع كمالي ، بواب الفيلا التي كان بها ، ويداعبه كأحد الأصدقاء القدامى ، حتى أن كمالي كان يذكره ببعض تصرفاته المتعنتة معه ، فيسأله مدحت العفو والسماح .

وتبين للجميع من هو الحاج المهندس محمد عبد المؤمن الصقر ، الذي استطاع بكفاح مرير أن يرفع اسم عائلة الصقر عاليا ، فهو مهندس ومقاول ، وبناته تخرجن من كليات القمة ، وأولاد وبنات اخوته وأخواته ، دكاترة من أمريكا ، أو بسبيلهم إلى ذلك .

وأسهب رجال الصحافة والإعلام في الحديث عن الحاج محمد ، فقد أخذوا يجمعون الأحاديث من كل من يعرفون الحاج محمد ، حتى كمالي ومحمدين ، وتبين لهم كم هو كريم وعطوف ، مع الفقير في فقره ، ومع المحتاج في حاجته ، رجل بر وتقوى حقيقي ، ليس لمركز ، ولا لمنصب ، ولكن لوجه الله سبحانه وتعالى ، وأضافوا الكثير من وحي الخيال ، لكن أعماله كانت هي جواز مروره إلى هذا العالم ، مسجد أسس على التقوى ، بدأه والده حامل دكتوراه الأزهر ، وأكمله هو مع إضافات خيرية كثيرة ، مستوصف ومستشفى مجاني ، وصالة اجتماعيات ، وحضانة بمقابل رمزي ، ومكتبة جاهد كثيرا لتحتوي على أكبر عدد من الكتب الهامة ، خاصة بالنسبة للطلبة والدارسين ، ونظم الحصول على كتب من انتهت دراستهم ليستفيد منها من بعدهم ، ونظم

دروس تقوية بمقابل رمزي ، وبدون مقابل لغير القادرين ، وأخيرا مستشفى استثماري على أحدث مستوى من التجهيزات والتقنيات ، والأهم من ذلك الكفاءات الطبية والعلمية .

وفوجئ الجميع بأشخاص كثيرون يَدّعون أو يُؤكدون على انتمائهم لعائلة الصقر ، وعلى الأخص ، مدحت بك الأناضولي ، الذي كان لا ينعته إلا بالصعيدي الجلنف ، أصبح يفتخر بأنه زوج أخته ، وحسام ابنه خطيب منال ابنة الحاج ، أما إسماعيل ، فما كان يعرف عن الحاج إلا حبه للخير ، لكنه لم يكن يعرف أنه يترجم ذلك إلى أعمال وليست فقط كلمات ومساعدات ، والمستشفى الذي أقامها بمساعدة الدكتور طه ، مخصصة للأعمال الهامة طبيا ، وقد وضع في نظامها الأساسي ، أنها بمقابل للقادرين ، وبدون مقابل لغير القادرين ، وإذا به يعرض على الحاج محمد استعداده للمساهمة في أعماله الخيرية أو التجارية ، فقد اكتشف فجأة أن المال والجاه والاسم العريق في هذا الزمن لا يساوون شيئا ، إنما هي الأعمال ، في أي مجال ، في الاستثمار أو في عمل الخير ، في الأولى ، هو يوفر فرص عمل للكثيرين ، وفي الثانية ، هو يرفع المعاناة عن كثيرين ، والكل بالسماحة التي يتعامل بها ذلك الرجل القادم من الصعيد ، يدعون له بالخير والصحة ، وياله من دعاء ، إذا صدر من الأعماق فتحت له أبواب السماء .

أما مدحت ، فقد عاهد الله وعاهد نفسه على أن يكرس ما تبقى له من عمر ، في خدمة هذا الرجل ، تواضع للدرجة التي نسي فيها من هو ، وأصبح عنصرا فعالا في المجتمع ، وتعلم الكثير على يديه ، وزاد ارتباطه به ، فهو يعمل وكذلك ابنته في المستشفى التي بناها وأسسها الحاج ، وابنه سوف يتزوج ابنته ، وقبل ذلك ، هو زوج أخته ، فأصبح عينه الساهرة على مصالحه ، وزادت ثقة الحاج فيه ، فأصبح مسئولا عن الأمور المالية للمستشفى والمستوصف الخيري ، إلى جانب مسئوليته عن الأمور الإدارية ، وكان حريصا على أن لا يصله عن أعماله إهمالا أو انحرافا ، منه أو من أي من العاملين معه ، فهو يعلم أن كل من كان سببا في مسح كآبة عن جبينه ، أو إضفاء السعادة على حياته ، أصبح عينا على مصالحه ، وله في ذلك تجارب كثيرة ، كمالي بواب الفيلا ومحمدين والآخرين الذين قدم أقاربهم من الصعيد ومعهم ابن العمدة الذي أصبح العمدة ، ليمسحوا عداوة كانت سببا في قطع صلته بالبلد ، وطلبهم منه أن يرشح نفسه نائبا عنهم ، وكذلك العاملين في المستشفى ، بالراحة النفسية وفرص تعلم المزيد في مجال أعمالهم وتيسير زمالتهم للجمعيات الطبية العالمية ، وتغير مدحت بك الأناضولي ، من رجل نفسه وفقط ، إلى

استقامة مطلقة ، بل وربما كان سببا في استقامة الكثيرين ، أما جوانا مديرة مكتب الدكتور طــه ، فقد كانت تكثر من الحديث مع الحاج تتساءل عما تسمعه عنه ، وكأنما هو من العصور الوســطى ، لم تر في حياقا تسامحا بهذه الصورة ، ولم تكن تعرف عن الناس إلا حبهم للمال بحسب نمط الحياة في بلدها . لكنها بعد أن سألت صفيه عما فعله والدها عندما شاهد الحاج ، ولماذا ارتمـــى تحــت قدميه ، هذا المدير الإداري ، الذي له سطوته والكل في المستشفى يعملون له ألف حساب ، نسي نفسه ، ونسي مركزه ، وألقى بنفسه تحت قدميه ، كان تصرفا أذهل فتاة التحرر الأمريكي ، لكن صفيه قصت عليها كل العلاقة بين والدها وبين الحاج ، وكان تعجب جوانا مـــن أنـــه آل علـــى نفســـه إلا أن يعطي بالرغم من سباب أبيها له ونعته بهذه الصفات التي شرحتها لها صفيه بأنها غير مقبولة لأي من البشر ، فسألته :

- " بلغني أن السيد مدحت كان يعاملك معاملة غير مقبولة ، ومع ذلك فإنك كنت ترعى عائلته ، ولم تقصر في طلباتهم ، حتى بعد أن غضبت أخته عليه .. لماذا ؟"

وقال لها الحاج بهدوء :

- " إنه ديننا الإسلامي ، من كان عنده فضل مال ، فليعطه لمن لا مال له .."

وتعجبت جوانا ، إنه تقريبا ما يسمعونه في الكنيسة ، فأفهمها الحاج أن الأديان كلها من عند الله سبحانه وتعالى ، وأن المسلم لا يقبل إسلامه إلا إذا آمن بالله وملائكته وكتبه وجميع رسله ، واليوم الآخر ، فالمسلمون يؤمنون بالمسيح عليه السلام ، وبكل الرسل الذين سبقوا محمداً عليه الســـلام ، أما اليهود ، فإنهم يؤمنون بكل الرسل الذين سبقوا موسى عليه السلام ، ومن ثم فإنهم لا يؤمنون بالمسيح ولا بمحمد عليهما السلام ، وكذلك النصارى ، يؤمنون بكل الرسل إلا محمداً ، ثم ســألها سؤالا مباشرا :

- " إذا دلك شخص على طريق ، وأثبت لك أنه يوصل إلى بر الأمان ، أتتبعينه ..؟ وإذا أخبرك شخص بأن ما تعتقدينه ليس سليما ، هل توافقينه على تفهم ما هو صحيح ؟"

ولما كانت إجابتها بالإيجاب ، أحضر لها مجموعة من الكتب الإسلامية باللغة الإنجليزية ، وأقبلـــت عليها تقرأها بنهم وتفهم ، وتسأله ويجيب ، وتسأل صفيه وتجيب ، فأطالت ملابسها القصـــيرة ، خاصة بعد أن أقنعها الحاج محمد بأن الإسلام لا يتعامل مع المرأة على أنها سلعة تعرض في ســـوق

النخاسة ، بل كرمها وشرفها وساواها بالرجل ، فلا تتزوج إلا بمن توافق هي على الزواج منـــه ، وغير ذلك لا يكون زواجا ، وذلك حفظا للنسب . وحفاظا على حقوقها وإنسانيتها فإن لها ذمتها المالية المستقلة عن زوجها ، ولقد ساهمت نساء النبي صلى الله عليه وسلم في كتابة السنة والكثـير من الأحاديث النبوية الشريفة ، ومن أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم من كانت تعلم الكثيرين رجالا ونساء مفاهيم الإسلام ، وكلمها عن الحجاب ، وأنه أمر من الله سبحانه وتعالى ، فالمرأة التي تخرج خارج بيتها بزينة وسفور وتبهرج الجاهلية الأولى ، ليست امرأة مسلمة صالحة ، وإنمـــا لا ينظر إليها من ينظر من الرجال إلا كمستودع للرذيلة ، يتمناها لليلة أو لساعة ، لكنه لا يتمناهـــا زوجة تحمل اسمه وتربي أولاده تربية دينية سليمة ، فإذا بها تبدأ بوضع غلالة رقيقة على شـــعرها ، حالما تدرجت فأصبحت حجابا ، ولاحظوا أن باب غرفتها كثيرا ما يغلق عليـــها ، ثم اكتشـفت صفية أنها تتعلم العربية بدراسة الكتب التي أحضرها لها الحاج أيضا ، فالمسلم لابد وأن يتلو كلام الله ، ومادام كلام الله بالعربية ، فهو مطالب بأن يتعلم العربية جيدا حتى يفهم أحكام التـــلاوة ، ويتدبر معانيه ، وما كانت تمر لحظة في حديث لها مع أي من العاملين في المستشـــفى إلا وتذكـــر اسمـــه أكثر من مرة ، لقد سحرها بشخصيته وأعماله وتدينه .

زفاف بالملابس السوداء

قصة من تأليف محمود عبد العزيز فرج

" الجزء الثانى "

رقم الإيداع ١٠٠٦٣ / ٢٠٠٢
I.S.B.N. 977-5229-21-9

للمؤلف تحت الطبع

مقـــبرة الأحيـــاء

أشـجار الـــبروتين

مواقف مـــن بلـدى

دائمـــاً المـــرأة

العـــذاب الأســـود

الملـك القرصـــان

خزعبـــــــلات

أغنيـــاء وفقـــراء

لحظـــات النـــدم